مسيرة الجهاد الإسلامي
ضد الصليبيين في عهد المماليك

« ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م »

تأليف

عزمي عبد محمد أبو عليان

دار النفائس

للنشر والتوزيع - الاردن

٩٥٦,٠٧١
عزم   عزمي عبد محمد أبو عليان

مسيرة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك
٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م

رؤوس الموضوعات :
١ - المماليك - تاريخ
٢ - الحروب الصليبية

رقم الايداع : (٧٩٨ / ٨ / ١٩٩٤م

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى شهداء الأمة الإسلامية الذين ارتقوا إلى جنان الخلد إعلاءً لكلمة الله تعالى، ورفعاً لراية الإسلام خفّاقةً عاليةً.

عهداً ووفاءً

- بسم الله الرحمن الرحيم -

« المقدمة»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين والمجاهدين، وصفوة الخلائق أجمعين، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد: فلقد كان الشرق الأدنى الإسلامي في العصر الوسيط يعيش انقساما داخليا عنيفا من الناحيتين السياسية والدينية، فمن خلافة عباسية سنية في بغداد إلى خلافة فاطمية شيعية في القاهرة، وبسبب هذا الانقسام عاشت بلاد الشام صراعا عسكريا مريراً بين الخلافتين، وفي خضم هذه الأحداث وفي غفلة من العباسيين، وتغافل من الفاطميين - في بداية الأمر - تمكن الأوروبيون بدعوة من البابوية من احتلال مدينة بيت المقدس وجميع الساحل الشامي من أقصاه إلى أقصاه.

وجاء الاحتلال الأوروبي هذا تحت ستار ديني، وكان الصليب هو شعارهم الذي رفعوه في حروبهم أمام المسلمين، ومن هنا جاءت تسمية تلك الحروب بالحروب الصليبية.

وقد شكّل الاحتلال الأوروبي الصليبي تحديا خطيراً للأمة الإسلامية، ليس على الأرض فقط، ولكن في معتقداتها الدينية،إذ أن هدف الصليبيين الظاهري والمعلن كان هدفا دينيا شعاره الصليب.

وأمام هذا التحدي، هب الرأي العام الإسلامي بكل وعي وحماس، ونادى بالتغيير في واقعه الداخلي، وبالتصدي للمعتدي المحتل تحت شعار: (الوحدة والجهاد). وظل الرأي العام الإسلامي يتفاعل إلى أن قيض الله تعالى للأمة الإسلامية من حمل رايته ونذر نفسه له، فكان عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وكانت الوحدة الإسلامية بين مصر وبلاد الشام يحققها صلاح الدين، وجاء الوعد الحق ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، وانتصر صلاح الدين في حطين وحرر بيت المقدس وغيرها من المدن والمواقع من براثن الاحتلال الصليبي.

على أن راية الوحدة والجهاد قد تذبذبت بعد صلاح الدين بين الارتفاع والانخفاض، ووصلت إلى مرحلة الإسقاط في بعض الأحيان، وظلت على تذبذبها إلى

أن قامت دولة المماليك في مصر، فعادت الراية إلى الارتفاع والارتقاء من جديد حتى بلغت الذروة، فكانت الوحدة بين مصر وبلاد الشام من جديد وكان الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في أجلّ وأبهى صوره حتى تم التحرير والتطهير الشامل بعون الله تعالى وفضله، فسقطت الحروب الصليبية وسقط شعارها معها، وظلت راية الوحدة والجهاد مرفوعة خفاقة بأيدي المماليك لمجابهة كل من يتجرأ على الأمة الإسلامية وديارها .

وعندما حاولت أوروبا والبابوية تجديد الحروب الصليبية بالاعتداء على سواحل مصر وبلاد الشام على أمل أن يؤدي ذلك إلى إعادة احتلال بيت المقدس، هب المماليك يدافعون عن أمتهم الإسلامية، ولما ازدادت هذه الاعتداءات حدة نقل المماليك المعركة إلى عقر دار الصليبيين في جزر حوض البحر المتوسط، فداسوا شعلتها بأقدامهم.

ولما حاول الصليبيون الالتفاف على ديار الإسلام من الجنوب عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر، انبرى لهم المماليك على الرغم من الإعياء الشديد الذي أصابهم، وتمكنوا من حماية مدخل البحرالأحمر منهم.

وهذا الكتاب هو عرض ودراسة للدور الهام والكبير الذي لعبه المماليك في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، بإسلوب مبسط وموثق، مبني على أهم المصادر المعاصرة للأحداث، وعلى المراجع ذات الصلة الوثيقة بالموضوع.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمامنا الأمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله من وراء القصد

المؤلف

الباب الأول

تحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي

الفصل الأول: قيام دولة المماليك.

الفصل الثاني: المعاقل الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المماليك.

الفصل الثالث: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس.

الفصل الرابع: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان المنصور قلاوون.

الفصل الخامس: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

الفصل الأول

قيام دولة المماليك

عقب وفاة السلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م[١] انفرط عقد الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام كدولة موحدة، وانقسمت بلاد الشام إلى ممالك متعددة، في حين احتفظت مصر بطابعها كمملكة قائمة بذاتها. ومن خلال هذا الانقسام دبّ النزاع بين ملوك بني أيوب الذين كانوا يحكمون تلك الممالك، فضلاً عن استمرار النزاع الذي كان قائما بينهم وبين أبناء البيت الزنكي في الموصل، ولذلك فقد حرص اولئك الملوك على أن يكوّن كلٌ منهم عصبة لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بملكته، ولتحقيق هذه الغاية فقد عمدوا إلى الإكثار من شراء المماليك -أو الرقيق الأبيض- فاشتروا منهم أعداداً كبيرةً وعُنوا بتدريبهم ليكونوا لهم عدة وسنداً.[٢]

وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي تولى الحكم في مصر (٦٣٨-٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م) قد فاق غيره من ملوك بني أيوب في هذا المجال، فقد استكثر من شراء المماليك وبخاصة المماليك الترك، وفي ذلك قال الذهبي: «اقتنى الصالح أيوب من الترك ما لم يشتره ملك، حتى صاروا معظم عسكره ورجحّهم على الأكراد وأمّر منهم وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه.»[٣]

وعرف المماليك الترك بالمماليك البحرية، وعن سبب هذه التسمية قال الذهبي عند حديثه عن السلطان الصالح: «وسماهم البحرية، قلت: لكون التجار جلبوهم من البحر من بلاد القفجاق»[٤] وأعطى ابن خلدون رأيا آخر فقال: «ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل ازاء المقياس بما كانوا حاميتها»،[٥]

---

(١) ابن الأثير، الكامل جـ ٨، ص٢٢٥.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٥١-١٥٢.

(٣) الذهبي، سير اعلام النبلاء، جـ٢٣، ص١٩٢.

(٤) م.ن، جـ٢٣، ص١٩٢.

(٥) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص٨٠٦.

ودعَّم المقريزي رأي ابن خلدون حين قال عند حديثه عن السلطان الصالح: «وأسكنهم معه في قلعة الروضة وسمَّاهم البحرية».[1]

وصول المماليك البحرية إلى سدة الحكم:

نجح الخوارزمية[2] في تحرير مدينة بيت المقدس من براثن الاحتلال الصليبي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م،[3] (للمرة الثالثة)، وتبع ذلك تمكّن السلطان الصالح نجم الدين أيوب من إعادة وحدة مصر والشام كما كانت في عهد السلطان صلاح الدين.[4]

ولقد أفزع ذلك أوروبا والبابوية فزعا عنيفا، ففقدان بيت المقدس وقيام وحدة إسلامية جديدة سيكونان المقدمة نحو تدمير المعاقل الصليبية في بلاد الشام تدميرا شاملاً، ولما كانت البابوية حريصة على استمرار الوجود الصليبي في الشرق لكونه العامل الذي يبقي على زعامتها لأوروبا، فقد سارعت إلى إرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق وهي المعروفة بالحملة السابعة على رأسها الملك الفرنسي لويس التاسع، وجعلت وجهتها الأولى مصر لتحطيمها عسكريا والعبور من بوابتها إلى بيت المقدس، لكونها ثقل الأمة الإسلامية في ذلك الحين، والجدار المنيع الذي يحمي بيت المقدس وبلاد الشام. وقد رست الحملة قبالة الشواطئ المصرية، ثم ما لبثت أن احتلت دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، مما جعل السلطان الصالح يسرع بالتصدي لها، إلاّ أنه توفي في أثناء ذلك بعد اشتداد مرضه في١٤ شعبان ٦٤٧هـ/٢٢ تشرين ثاني ١٢٤٩م[5] فقامت زوجته شجر الدر بتدبير أمور الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفا من حدوث فتنة بين

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ٣، ص١٧٣.

(٢) الخوارزمية: نسبة إلى خوارزم، وقد فرت أعداد كبيرة منهم من وجه التتار ودخلوا في خدمة سلاجقة الروم وملوك الأيوبيين، إلى أن عاثوا فسادا في بلاد الشام واجتاحوا معظم مدنها، فقضى عليهم الملك الصالح نجم الدين أيوب كقوة عسكرية فتفرقوا في البلاد في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، (انظر ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣٤-٣٣٩).

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣٤-٣٣٩.

(٤) سعيد عاشور، مصر والشام، ص١٠٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر، جـ٣، ص١٧٨-١٧٩.

صفوف المسلمين، وفي الوقت ذاته أرسلت إلى ابن زوجها تورانشاه في حصن كيفا (بلدة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، مشرفة على دجلة) داعية إيّاه للقدوم إلى مصر لتولي عرش السلطنة ومواجهة الصليبيين.(١)

وما أن عاد تورانشاه حتى ألحق الهزيمة بالصليبيين وتمكن من أسر الملك الفرنسي لويس السابع، وذلك في أوائل المحرم ٦٤٨هـ/نيسان ١٢٥٠م، غير أن الأمر لم يستقم لتورنشاه، فقد قُتل بأيدي المماليك البحرية في أواخر الشهر نفسه، بسبب موقفه العدائي منهم.(٢)

ولمّا لم تكن الأوضاع مهيأة بعد لأن يتولى أحد المماليك منصب السلطنة فقد أجمع أمراؤهم الرأي على تقليد شجرالدر زوجة السلطان الصالح عرش السلطنة، على أن يكون الأمير المملوكي عزالدين أيبك التركماني أتابكاً للعساكر.(٣)

وقد واجهت شجر الدر في بداية عهدها مشكلة وجود الفرنسيين في دمياط، التي ظلت في قبضتهم على الرغم من هزيمتهم وأسر ملكهم لويس التاسع، ولذلك سارعت إلى استكمال المفاوضات التي كانت قد بدأت مع الملك لويس في عهد تورانشاه، فتم الاتفاق معه على أن يتم اطلاق سراحه مقابل تسليم دمياط، ودفع فدية مالية قدرها ثمانمائة الف دينار يدفع نصفها مقدماً، ثم أبحر الملك لويس بأهله وأصحابه إلى عكا تاركا قواته في الأسر ريثما يدفع بقية الفدية.(٤)

وإذا كانت شجر الدر قد نجحت في اخراج الفرنسيين من مصر، إلاّ أنها جوبهت بمعارضة داخلية عنيفة بسبب توليها السلطنة، وقاد هذه المعارضة شيخ العصر آنذاك عزالدين بن عبدالسلام الذي كتب «كتاب حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة»(٥)

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ١، ص٧٧٤-٧٧٥.

(٢) المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، جـ١، ص٣٦١-٣٦٢، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص١٨-١٩.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٣٦١-٣٦٢، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٢٩.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ٨،ص٧٨٣.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، ص٣٤.

وازدادت هذه المعارضة حدة عندما استولى الملك الأيوبي الناصر يوسف صاحب حلب على دمشق وغيرها من مدن الشام دون قتال ثم مواصلته الزحف جنوبا نحو مصر.[1]

وحاول المماليك احتواء هذه المعارضة بمحاولة نيل تأييد الخليفة العباسي في بغداد المستعصم بالله لسلطان شجر الدر في مصر، إلاّ أنّ ردّ الخليفة جاء مخيباً لآمالهم، فقد أرسل اليهم قائلاً: «إن كانت الرجال عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسيّر اليكم رجلاً»[2] عندئذ أجمع أمراء المماليك رأيهم على أن تتزوج شجر الدر من الأمير عزالدين أيبك وتتنازل له عن السلطنة، فوافقت شجر الدر على هذه الخطوة وخلعت نفسها وتزوجت من الأمير عز الدين وذلك في أواخر ربيع الاخر ٦٤٨هـ/تموز ١٢٥٠م بعد أن حكمت ثمانين يوما.[3]

غير أن هذه الخطوة لم تكن لتنهي معارضة الأيوبيين في بلاد الشام لحكم المماليك، فلجأ هؤلاء إلى لعبة سياسية في محاولة منهم لإسكات الصوت الأيوبي، فقد أتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبي يدعى الأشراف موسى بن مسعود وأقاموه شريكاً مع المعز أيبك، وكان ذلك في جمادى الأول ٦٤٨/آب ١٢٥٠م.[4]

ولكن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيين في بلاد الشام، فزحفوا باتجاه مصر بقيادة الناصر يوسف والتقوا مع المماليك في معركة قرب العباسة في السنة ذاتها، إلاّ أنّ الأيوبيين منوا بالهزيمة [5]. مما شجع المعزأيبك على محاولة استثمار انتصاره بالزحف على بلاد الشام والقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية فيها، فدفع ذلك الملك الناصر إلى طلب المساعدة العسكرية من الملك الفرنسي لويس التاسع مقابل التنازل له عن بيت المقدس، بيد أن الملك الفرنسي لم يستجب له، فقد وجد نفسه مقيداً بصلح دمياط، فضلا عن أنه ترك وراءه في مصر عشرة آلاف أسير صليبي سيتعرض مصيرهم للخطر إنْ هو أخلّ بشروط الصلح كما لم يكن واثقا من جدية هذه العرض.[6]

وقد سار المعز أيبك على ذات النهج الذي سار عليه الناصر يوسف، فقد اتصل

---

(١) ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٨٦، العيني، عقد الجمان جـ١، ص٣٢-٣٣.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٣٦٨.   (٣) م.ن،ص ٣٦٨.

(٤) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية، ص١٣.

(٥) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط، ورقة ٤٧.

(٦) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص٥٣.

بدوره بالملك الفرنسي وطلب منه المساعدة العسكرية ضد الأيوبيين مقابل التنازل له عن بيت المقدس ايضا.[1]

واستغل الملك الفرنسي هذا العرض من الملك المعز فطالبه بشروط أخرى إلى جانب تسليمه بيت المقدس وهي:

١. الالتزام بسياسة التسامح مع النصارى في مصر وبلاد الشام.
٢. إطلاق سراح جيشه المأسور في مصر.
٣. التنازل عن بقية الفدية المطلوبة منه.
٤. تكون البلاد والغنائم التي يتم الاستيلاء عليها في بلاد الشام مناصفة بينهما.

ولما كان المعز تواقا لسحق الأيوبيين فقد وافق على هذه الشروط، فتم عقد الاتفاق الجديد سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م.[2] وتنفيذاً لذلك اتفقا على الالتقاء على أرض فلسطين تمهيداً لشن هجوم مشترك على قوات الأيوبيين، غير أن الملك الناصر يوسف فوّت عليهما هذه الفرصة عندما أرسل قواته إلى غزة قبل وصول القوات المملوكية إليها، ليس غيرةً على بيت المقدس ولكن حنقا على المماليك والصليبيين معاً.[3]

واستمر العداء قائما بين المماليك والأيوبيين حتى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، حين تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله للصلح بينهما، ونجح مبعوثه الشيخ نجم الدين البادرائي في التوفيق بين المعز والناصر فعقدا اتفاقا نصَّ على ما يلي:-

١. أن يكون للملك المعز الديار المصرية وغزة وبيت المقدس ونابلس والساحل كله إلى نهر الأردن.
٢. أن يكون للملك الناصر يوسف ماوراء ذلك.
٣. أن يطلق الملك المعز جميع الأسرى من الملوك والأمراء الأيوبيين الذين وقعوا بيده في أعقاب معركة العباسة.[4]

وبهذا الاتفاق تفرغ المعز لتدعيم سلطانه في مصر، فقتل أكبر منافسيه الأمير

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٨٤، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٨٠.

(٢) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص٥٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٨٦.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص٨١٠، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٣٨٥-٣٨٦، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٩، ص٥٤٧٢ العيني، عقد الجمان جـ١، ص٦٦-٨٥.

فارس الدين أقطاي، وعزل الملك الأشرف موسى، مستقلاً بالملك دونه وذلك سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م.[١]

وكانت نتيجة مقتل أقطاى أن فرّ أعوانه من كبار المماليك البحرية إلى بلاد الشام، عند ملوك البيت الأيوبي في دمشق والكرك، وكان على رأس المماليك آنذاك الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي سيكون له شأن عظيم في مجاهدة الصليبيين.[٢]

وقد أقلق وجود هؤلاء المماليك في بلاد الشام الملك المعز، إذ أن ذلك سيزيد من خطر الأيوبيين عليه، ولذلك أرسل الملك الناصر يحذره من غدرهم وغائلتهم ويخوّفه عاقبة شرهم، فاستغل الناصر هذا الموقف وطالبه بإعادة ما أخذه من بلاد فلسطين ليقيم فيها هؤلاء المماليك لأنها كانت من اقطاعاتهم، وبذا يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر.[٣] فأجابه المعز إلى ما طلب ولكنه في الوقت ذاته تحرك على رأس قواته وعسكر بالقرب من العباسة خشية أن يكون موقف الناصر خديعة ومكراً، ولم يرجع إلى القاهرة إلاّ بعد أن توصل إلى عقد صلح جديد معه بواسطة الشيخ البادرائي سنة٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م. ونص على ما يلي:-

١. أن يكون الشام جميعه للملك الناصر يوسف.
٢. أن تكوّن الديار المصرية للملك المعز.
٣. أن يكون الحد الفاصل بينهما بئر القاضي وهو ما بين الورادة والعريش.
٤. ألاّ يأوي الملك الناصر عنده أحدا من المماليك البحرية.[٤]

وبسبب هذا الصلح ساءت العلاقة بين الناصر والمماليك الذين عنده إلى أن غادروا دمشق سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وتوجهوا إلى الكرك داخلين في طاعة صاحبها الأيوبي الملك

---

(١) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ٤٧-٤٨، ابو الفداء، المختصر، جـ٣، ص١٩٠، الصفدي،الوافي بالوفيات، جـ٩،ص٤٧٢، العيني، عقد الجمان جـ١، ص٦٦-٨٥.

(٢) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٢٦، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٣٤.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٣٩٣، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٣٥.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص٥٩. ابو الفداء، المختصر، جـ٣، ص١٩٠.

المغيث عمر.[1]

أما في مصر فقد أقدمت شجر الدر على قتل زوجها المعز أيبك في السنة ذاتها، مما جعل مماليكه يقومون بقتلها ويقيمون في السلطنة ابنه المنصور نور الدين علي، وكان له من العمر خمس عشرة سنة، وجعلوا الأمير سيف الدين قطز أتابكا له.[2] وبتطور هذه الأوضاع في مصر، حرّض المماليك البحرية الملك المغيث عمر صاحب الكرك على مهاجمة مصر وتملكها، على أن يؤازروه في ذلك، فأخذ برأيهم وهاجم مصر مرتين الأولى سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م. والثانية سنة٦٥٦هـ/١٢٥٨م. إلاّ أنه هزم في كلتيهما من قبل سيف الدين قطز.[3]

وكانت هذه الأحداث تجري في مصر وبلاد الشام في الوقت الذي كان فيه المغول (التتار) بقيادة هولاكو يزحفون على الدولة العباسية ويحتلون بغداد ويقتلون الخليفة العباسي المستعصم بالله منهين بذلك الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ثم واصل المغول زحفهم باتجاه بلاد الشام، عندئذ قام قطز بعزل الملك المنصور علي واعتلى سدة الحكم ليتسنى له مواجهتهم.[4]

أما المماليك البحرية الذين كانوا في الكرك فقد غادروها عائدين إلى مصر بعد أن أمنّهم السلطان سيف الدين قطز، هذا في الوقت الذي واصل فيه المغول زحفهم حتى وصلو الى غزة، ومن هناك أرسل زعيمهم هولاكو كتابا إلى السلطان قطز يأمره فيه بالتسليم.[5]

ولكن هيهات فقد ردّ قطز على هولاكو رداً عملياً، بأن قتل رسله وعلق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة، ثم انبرى لقتالهم، فدارت ملحمة عسكرية بين الطرفين في عين جالوت على أرض فلسطين في ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/٢ أيلول ١٢٦٠م. انتهت بهزيمة

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص٥٩.

(٢) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة٦٠-٦١، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٣٤، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٩، ص٤٧٣، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص١٤٣.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٥٧.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٨٩-١٩٩، ٢٠٣.

(٥) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٤٧، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٢٣٤.

المغول ومقتل قائدهم كتبغانوين وأسر ابنه (وكان هولاكو قد عاد إلى خراسان قبل ذلك).[1]

وبهذا الانتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون أصبحت الطريق ممهدة إلى دمشق، فسار إليها السلطان المظفر قطز واستردها من المغول، وأنفذ في أثرهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري على رأس قوة عسكرية، فلاحقهم حتى طهّر شمال الشام منهم.[2] وبذلك بسط المماليك سلطانهم على بلاد الشام وباتوا القوة الإسلامية الوحيدة التي قدّر الله تعالى لها أن تقاتل عدوين في آن واحد: المغول الذين كانت معركة عين جالوت أولى الحلقات من سلسلة الوقائع اللاحقة معهم، والصليبيين الذين كانوا يحتلون أجزاء من بلاد الشام على امتداد الساحل.

وفي طريق عودة السلطان المظفر قطز إلى مصر، انقلب عليه الأمير ركن الدين بيبرس ومؤيدوه من المماليك بعد أن رفض قطز تعيينه نائباً على حلب، فضلاً عن العداء الذي كان قد وقع بينهما عند مقتل أقطاى، فقتله في الطريق مابين الغرابي والصالحية، ودخل بيبرس القاهرة سلطانا وتلقب بالملك الظاهر في السنة ذاتها ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.[3]

واجهت بيبرس في بداية عهده ثورة قادها الأمير علم الدين سنجر الحلبي في دمشق فقد رفض هذا الأمير الاعتراف بسلطنته، ونادى بنفسه سلطانا على دمشق وتلقب بالملك المجاهد، إلاّ أن بيبرس استطاع سحق هذه الثورة.[4]

ووفق بيبرس في السنة التالية ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، باتخاذ خطوة على جانب كبير من الأهمية في التاريخ الإسلامي ألا وهي إحياؤه للخلافة العباسية، إذا استقدم أحد أبناء البيت العباسي من الشام وأقامه خليفة في القاهرة، فثبّت بيبرس بذلك دعائم

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٦٥-٦٦،اليافعي، مرآة الزمان، جـ٤، ص١٤٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٦٦، القرماني، كتاب اخبار الدول وآثار الأول، ص١٩٧.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٦٦، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٠، ص١٣٣ العيني، عقد الجمان، جـ١ ،ص٢٥٣.

(٤) ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٩٩. اليافعي، مرآة الزمان، جـ٤، ص ١٤٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٠، ص٣٢٢.

حكمه من خلال التقليد الذي قلده إياه الخليفة الجديد.[1] فقد جاء في كتاب التقليد: «وأمير المؤمنين يشكر الآن هذه الصنائع ويعترف أن لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع، وقد قلدك الديار المصرية، والبلاد الشامية، والديار البكرية، والجزيرية والحجازية والفراتية مع سائر مايتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوّض أمر جندها ورعاياها اليك».[2]

وبذلك تفرغ بيبرس لمواجهة أعداء الأمة والدين من صليبيين ومغول، وتابع طريقه المنصور قلاوون والأشرف خليل حتى تم تحرير بلاد الشام تحريرا نهائياً من براثن الاحتلال الصليبي.[3]

انتقال الحكم إلى المماليك البرجية:

استمر حكم المماليك البحرية حتى سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م حين حلّ محلهم المماليك البرجية الذين يرجع أصل تكوينهم كفرقة جديدة إلى أوائل حكم السلطان المنصور قلاوون، فقد سعى هذا السلطان إلى تكوين فرقة جديدة من المماليك من غير العناصر التركية ليكون إخلاصها له ويكون اعتماده عليها دون الفرق المملوكية السابقة[4] وفي ذلك قال المقريزي: «وكان قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلآف وسبعمائة من الآص والجركس، جعلهم في أبراج القلعة وسماهم البرجية».[5] ويعود هؤلاء في أصولهم إلى منطقة تقع بالجزء الجنوبي من شبه جزيرة القرم.[6]

وقد سار السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على سنّة أبيه، فقد استكثر من شراء المماليك الجركس، حتى أنه رغب في زيادة عددهم إلى عشرة آلآف مملوك، فاشترى

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٣٩، اليافعي، مرأة الزمان، جـ٤، ص١٥١.

(٢) ابن ايبك الدواداوي، الدرة الزكية، ص ٧٥.

(٣) القرماني، كتاب اخبار الدول وآثار الأول، ص١٩٧-١٩٩.

(٤) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١١-١٢

(٥) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٧٥٦.

(٦) محمد مصطفى زيادة، حاشية السلوك، جـ١، ص٧٥٦.

في مدة حكمه القصير حوالي الفي مملوك من أسواق ثغر كافا بالقرم.(١)

وبدأ حكم المماليك البرجية عندما اعتلى سدة الحكم الأمير برقوق اليلبغاوي الجركسي وتلقب بالملك الظاهر بعد خلعه للسلطان الصالح حاجي بن شعبان آخر سلاطين المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م.(٢)

واذا كان المماليك البحرية قد سجّل لهم التاريخ تحرير بلاد الشام من الصليبيين فان المماليك البرجية قد أضافوا صحائف مشرقة في سجل التاريخ الاسلامي عندما دافعوا عن ديار الإسلام أمام تجدد الحروب الصليبية، ثم تحولهم من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم عندما بدأوا يدكّون قواعد الصليبيين في عقر دارهم، كما سنبين في الباب الثاني.

واستمر حكم المماليك البرجية حتى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م حين هزموا من قبل الدولة العثمانية التي استولت على بلاد الشام ومصر، منهية بذلك حكم المماليك الذي استمر لأكثر من قرنين ونصف.(٣)

---

(١) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٣.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، جـ٣، ص٨٦. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٢١، ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ١، ٤٤٥.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ق٢، ص٤٧، القرماني، كتاب اخبار الدول وآثار الأول ص٢٢٠.

الفصل الثاني

المعاقل الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المماليك

تمكن الصليبيون في الفترة الواقعة بين أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وأواسط القرن السادس/ الثاني عشر الميلادي من احتلال الساحل الشامي على طول امتداده من قيليقية شمالاً وحتى غزة جنوباً، وبعمق داخلي متفاوت في عرضه امتد من الرُها شمالاً وحتى أيلة جنوباً.

وشكّل الصليبيون في هذه المنطقة أربع وحدات سياسية هي:

١. إمارة الرّها: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م حين أرسل أميرها الأرمني «ثورس» إلى الأمير بلدوين أحد الأمراء الصليبيين يدعوه للحضور إلى الرّها لمساعدته ضد السلاجقة، فلبّى بلدوين دعوته، ومالبث أن دبر هذا مؤامرة ضد ثورس حتى قتله ونصّب نفسه أميراً على الرّها. [١]

٢. إمارة انطاكية: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م حين احتل الصليبيون المدينة، وكانت تحت حكم الأمير السجلوقي ياغي سيان، وانتصّب الامير بوهمند أميرا عليها[٢]

٣. مملكة بيت المقدس: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حين احتل الصليبيون مدينة بيت المقدس، وكانت تحت حكم الفاطميين، واقيم الأمير جودفري بوايون ملكاً عليها.

٤. إمارة طرابلس: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م حين احتلها الصليبيون وكانت تحت حكم الفاطميين- بعد أخذها من حاكمها ابن عمار- وانتصب الأمير برترام أميراً عليها.[٣]

وقد أحدث الاحتلال الصليبي هذا ردّ فعل قوي في العالم الإسلامي، فبرزت

---

(١) ابن الاثير، الكامل، جـ٨، ص٢٠٤، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣٤، ١٣٧ محمد العمروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص٥٦-٥٧.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥، ابن الأثير، الكامل، جـ٨ ص ١٨٦، محمد العمروسي، الحروب الصليبية، ص٥٧، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات، ص١٥٧، ١٦٧.

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٣، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات، ص٢٠٣، ٢٠٨.

حركة جهاد قادها عماد الدين زنكي أتابك الموصل، وتمكن هذا المجاهد من فتح الرّها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، فسقطت بذلك أول أمارة صليبية نشأت في المشرق[١]

ثم قاد حركة الجهاد من بعده ابنه نور الدين محمود، فاستعاد العديد من المدن والقرى من أيدي الصليبيين.[٢]

تم ما لبثت حركة الجهاد أن أخذت بعداً أكثر قوة وتنظيما، وذلك عندما استطاع السلطان صلاح الدين الأيوبي توحيد جهود مصر وبلاد الشام تحت قيادته، بعد أن عاد بمصر إلى حظيرة الخلافة العباسية في بغداد منهياً بذلك حكم الخلافة الفاطمية في القاهرة، وقد شن حرباً طاحنة ضد الصليبيين نجح خلالها في استعادة بيت المقدس والكثير من مناطق بلاد الشام في اعقاب معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٣]. وبفتح بيت المقدس خسر الصليبيون عاصمة مملكتهم، فاتخذوا من عكا عاصمة لهم، وذلك بعد أن أعادوا احتلالها للمرة الثانية سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م.[٤]

وقد تأرجحت حركة الجهاد بعد صلاح الدين بين مد وجزر، فلم يكن بعض من تولى الحكم من بعده بمستواه القيادي، أو بمستوى حرصه على متابعة الجهاد والحفاظ على مقدسات المسلمين، كالسلطان الكامل الذي سلّم بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[٥]، وبعد أن حررها الملك الناصر داود (ملك الكرك) سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م.[٦] حذا السلطان الصالح اسماعيل (ملك دمشق) حذو السلطان الكامل فأعاد تسليم بيت المقدس -ومناطق أخرى في بلاد الشام- إلى الصليبيين من جديد وذلك سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م[٧]، وبقيت بيت المقدس بأيديهم إلى أن حررها الخوارزمية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م.[٨]

ثم عادت حركة الجهاد ضد الصليبيين تقوى وتشتد حتى بلغت الذروة عندما حمل

---

(١) ابن الأثير، الكامل جـ٩، ص٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص١٧، ٢١، ٣٢...، محمد العمروسي، الحروب الصليبية، ص٦٩-٧١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ٩،ص١٧٧-١٧٨-١٨٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، جـ٩ص٢١٤.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤١-٢٤٢.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٤٦. (٧) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣٢.

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٢٦-٣٣٧.

رايتها المماليك الذين تمكنوا من تحرير بلاد الشام من براثنهم.

وكانت المعاقل الصليبية عند قيام الدولة المملوكية سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م. تمتد على طول الساحل الشامي من قيليقية شمالاً وحتى يافا جنوباً، وبعرض متفاوت، وتشكلت من وحدتين سياسيتين هما:

١. مملكة بيت المقدس: وعاصمتها عكا، ولم تكن هذه العاصمة تتمتع بسلطة مركزية بحيث تهيمن على جميع المعاقل الصليبية داخل نطاق حدود المملكة، إذ أن النظام الذي كان يسودها هو النظام الإقطاعي المبني على نمط النظم الإقطاعية التي عرفها الصليبيون وعاشوها في غرب أوروبا قبل مجيئهم إلى الشرق، ولذلك فقد تألفت مملكة بيت المقدس من عدة إمارات اقطاعية، كيافا وأرسوف وقيسارية وصور وبيروت إلى جانب عكا ذاتها، وفضلاً عن حصون وقلاع، كالقرين وتبنين والشقيف وغيرها خاصة بفرق الصليبيين العسكرية والدينية وأهمها فرقتا الداوية[1]، والاسبتارية[2] وكانت هذه الفرق تتمتع بالاستقلال عن الملكية وتتبع للبابوية مباشرة[3]

---

(١) الداوية: (جمعية فرسان المعبد) فرقة دينية عسكرية، أسسها الفارس هيوباينز سنة ١١١٨م، عندما رفض الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي السماح له ولرفاقه النزول في جناح من اجنحة القصر الملكي في ساحة المعبد- المسجد الأقصى- ثم أصبحت طائفة مستقلة اتخذت من الصليب الأحمر شارة لها، وقد تألفت من ثلاث طبقات هي: الفرسان، والأجناد، ورجال الدين، واشتركت في جميع الأعمال الحربية التي قامت بها مملكة بيت المقدس. (رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٤٩-٢٥٠).

(٢) الاسبتارية: فرقة دينية عسكرية، أسسها جيرار أحد الفرنج الغربيين في بيت المقدس سنة ١٠٧٠م، وقد تأسست أولاً في نزل يعود لحجاج الفرنج ليأوي إليه الحجاج الفقراء، وبعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس، تحول القائمون على هذا النزل إلى طائفة مستقلة تتبع البابا مباشرة، وخصص لها رجال الكنيسة عشر دخلهم، وبعد أن توفي جيرار مؤسسها الاول سنة ١١١٨م. تولى أمرها الفرنسي ريموند لي بويه فتقرر في عهده أن تتحول إلى طائفة من الفرسان لقتال المسلمين واتخذوا من الصليب الأبيض شارة لهم (رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٤٨).

(٣) عمر توفيق، الدبلوماسية الاسلامية، ص٨٤.

أما عن الأحداث السياسة التي عاشتها هذه المملكة عند قيام الدولة المملوكية، فبدأت منذ وصول الملك الفرنسي لويس التاسع إلى عكا سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م قادما من مصر على أثر الاتفاق الذي كان قد عقده مع شجر الدر، وقد أجمع الصليبيون على الاعتراف به حاكما فعليا لمملكة بيت المقدس، وكان الحكم قبل وصوله من حق كنراد إمبراطور المانيا، وكانت تمثله في الوصاية على عرشها الملكة اليس ملكة قبرص، وبوفاتها، انتقلت الوصاية إلى ابنها هنري الذي عين ابن عمه يوحنا سيد أرسوف نائبا عنه في إدارة مملكة بيت المقدس، فسلّم يوحنا هذا عن طيب خاطر زمام الحكومة إلى الملك لويس، وإن لم يتحدد مطلقا ما كان له من وضع قانوني، لأن الاعتراف به حاكما أعلى لم يتم إلاّ أثناء غياب كنراد، الذي استمر الحكم من حقه من الناحية الشرعية بالنسبة لهم[١].

ومهما يكن من أمر فإن الملك لويس عمل على تحصين مدن عكا وحيفا وقيسارية وصيدا، تحسباً لأي هجوم قد تشنه عليها القوات الإسلامية، ثم دخل في تحالف مع الملك المعز أيبك ضد الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، إلا أن هذا التحالف مالبث أن انهار من أساسه بعد الاتفاق الذي تم بين المعز أيبك والناصر يوسف -كما ذكرنا في الفصل السابق-[٢] وقد أعطى ذلك فرصة لانتقام الملك الناصر يوسف من الملك لويس فوجه قواته للإغارة على معاقل الصليبيين عند يافا وارسوف وعكا وصيدا، بحجة عدم وجود صلح أو مهادنة بينه وبين الصليبيين، فردّ الملك الفرنسي بالإغارة على نابلس، علما بأنها كانت من نصيب المماليك في الاتفاقية التي عقدت مع الملك الناصر، وقد عزا الدكتور سعيد عاشور هذا الاعتداء الى استياء الملك الفرنسي من موقف المماليك بعد اتفاقهم مع الملك الناصر[٣]. على أن الملك الفرنسي نجح في عقد هدنة مع الناصر يوسف سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م مدتها سنتان وستة أشهر وأربعون يوما، ثم غادر بعد ذلك عكا عائدا إلى فرنسا بعد أن ترك وراءه «جفرى مارجينس» ليكون ممثلا له[٤].

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٧٣، ٤٧٤.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٥٦.

(٤) رنسيمان، م.ن، جـ٣، ص٤٨٤-٤٨٥، سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ٥٨٠-٥٨١.

وفي أعقاب رحيله عقد يوحنا ابلين كونت يافا والوصي على مملكة بيت المقدس باسم ملك قبرص هدنة مع الملك الناصر مدتها عشر سنين، ولم تدخل فيها يافا في بداية الأمر بسبب رفض الناصر لذلك، ثم دخلتها في السنة التالية ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م في أعقاب تعرض قوات الناصر في بيت المقدس للهزيمة من قبل كونت يافا وممثل الملك لويس في عكا[1].

وتطورت الأحداث سريعة في عكا بعد ذلك فقد جرت فيها حرب أهلية بين الجنوية والبنادقة سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، ومما زاد في حدّتها انضمام البيازنة وأمير صور والإسبتارية إلى جانب الجنوية، فيما انضم أمير أنطاكية- طرابلس والداوية وفرق صليبية أخرى إلى جانب البنادقة، وامتدت الحرب على طول الساحل الشامي الذي يسيطر عليه الصليبيون برا وبحرا، ولم ينته هذا الصراع إلاّ بعقد معاهدة بين الطرفين سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.[2]

٢. إمارة أنطاكية – طرابلس:

وكانت كل منهما إمارة مستقلة، وعندما توفي الأمير ريمond أمير طرابلس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ولم يترك ولدا، خلفه في حكم طرابلس الأمير بوهمند ابن أمير انطاكية بوهمند الثالث[3]، وعندما توفي بوهمند الثالث سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م انتصب ابنه بوهمند الرابع أميراً على أنطاكية وطرابلس معا[4] إلى أن توفي سنة ٦٣١هـ/١٢٢٣م فخلفه ابنه بوهمند الخامس[5]، وظل يحكم حتى وفاته سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م فخلفه ابنه بوهمند السادس وهو الذي عاصر أهم الأحداث مع الدولة المملوكية، ثم تلاه ابنه بوهمند السابع، ثم ابنته لويسا -ابنة بوهمند السادس-.

أما النظام السياسي في هذه الإمارة، فهو النظام ذاته الذي عُرف في مملكة بيت المقدس (عكا) فقد تألفت من مدن اقطاعية كجبيل واللاذقية والسويداء وطرطوس وغيرها وكذلك من حصون وقلاع للداوية والاسبتارية كبغراس والاكراد وعكا وصافيتا

---

(١) رنسيمان، المصدر نفسه، جـ١، ص٤٨٥، سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص٥٨١.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الاولى، ص١٦٢، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٩٠.

(٣) سعيد برجاوي، الحروب الصليبية، ص٤٠٣.

(٤) رنسيمان، المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٤٢.

(٥) رنسيمان، المصدر نفسه، جـ٣، ص٣٦٠.

واللد، والمرقب، وغيرها علاوة على أنطاكية وطرابلس ذاتهما.

وإلى جانب المعاقل الصليبية هذه في بلاد الشام كانت هناك مملكة أرمينية الصغرى في اقليم قيليقية بين جبال طوروس والبحر المتوسط، وامتدت حتى حدود أنطاكية، وقد تحالفت هذه المملكة النصرانية مع الصليبيين في بلاد الشام ضد المسلمين، مما جعل المماليك يعاملونها كمعاملتهم للصليبيين.[1]

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢١٥.

الفصل الثالث

مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس

أضحت سلطنة المماليك بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة من قبل السلطان الظاهر بيبرس في صورة القوة الحامية للخلافة المتمتعة ببيعتها، مما أضفى عليها الصفة الشرعية وأكسبها أهمية كبيرة في نظر المسلمين كافة[1]، وغدا السلطان الظاهر بيبرس الزعيم الذي أنيط به حمل لواء الجهاد ضد أعداء الأمة الإسلامية. فقد جاء في كتاب تقليد الخليفة العباسي الجديد المستنصر بالله، له: «ومما يجب أيضا تقديم ذكره، أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضا، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضا، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي (لا لغو فيها ولا تأثيم)[2]. وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء اسرعت في سواد الحسّاد، وعرفت منك عزمة هي أمضى مما تجنيه ضمائر الأغماد، واشتهرت لك مواقف في القتال هي أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد، وبك صان حمى الإسلام من أن يبتذل، وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدولة وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحا لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول، فايقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا، وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعا سامعا...»[3].

ولما كان الصليبيون لا يزالون يحتلون أجزاء من بلاد الشام، ومغول فارس بزعامة هولاكو يعتدون على حدود الدولة الإسلامية عبر بوابتها الشرقية والشمالية في ذات الوقت، فقد وضع السلطان الظاهر بيبرس -حامل لواء الجهاد- نصب عينيه مجابهة هذين العدوين في آن واحد، وفي سبيل ذلك سعى إلى تأمين موقفين على جانب كبير

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٣.

(٢) سورة الطور، الآية٢٣.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١١٧-١١٨، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٣٠٥-٣٠٦.

من الأهمية، الأول داخلي بحيث يقيم جبهة داخلية متراصة تتحد فيها جهود المسلمين في مصر وبلاد الشام، ولـمَّا كان الملك الأيوبي المغيث عمر صاحب الكرك لم يزل يشكل خطرا على نظام حكمه- وبخاصة بعد أن أضحى المغيث الزعيم الأيوبي الوحيد الذي ظل متحفزا للانقضاض على مصر، بعد وقوع الناصر يوسف صاحب دمشق في أسر المغول -فقد عمل على التخلص منه أولا. أما الثاني فهو تأمين موقف خارجي يستطيع من خلاله إحكام الحصار حول الصليبيين في بلاد الشام وحرمانهم من أية معونة يمكن أن تصلهم من الشرق أو الغرب، هذا فضلاً عن مساعدته على الوقوف في وجه مغول فارس. فاتجه منذ سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٣م إلى عقد سلسلة من الأحلاف والاتفاقات مع الملوك المجاورين وغير المجاورين.

فبدأ بعقد حلف دفاعي مع الإمبراطور البيزنطي «ميخائيل باليولوجس» لعلمه أن الإمبراطورية البيزنطية كانت دائما العدو اللدود للصليبيين في بلاد الشام، وعندما اعتنق بركة خان زعيم مغول القفجاق الإسلام مع قبيلته، سارع بيبرس بعقد حلف معه ضد مغول فارس للحيلولة دون قيامهم بالاعتداء على حدود دولته أو تقديم المساعدة للصليبيين، كذلك عقد بيبرس اتفاقا مع الملك «مانفرد هوهنتشتاوفن» ملك صقلية ونابلي يقضي بتعهد مانفرد بعرقلة سبيل أية حملة صليبية جديدة تحاول الخروج من أوروبا وتنبيه السلطان عن أي نشاط صليبي يظهر في أوروبا بقصد مساعدة الصليبيين في بلاد الشام، كما عقد اتفاقا مع دولة السلاجقة بآسيا الصغرى التي كانت على عداء مع مغول فارس ومملكة أرمينية الصغرى.[1]

على أن السلطان بيبرس لم يكن لينتظر تحقيق هذه المواقف حتى يبدأ جهاده ضد الصليبيين -موضوع دراستنا- بل بدأ مرحلة عسكرية أولى معهم أثناء سعيه ذاك، مال فيها إلى مهادنتهم على بعض الجبهات وشن هجمات عسكرية على جبهات أخرى، وبعد أن حقق ما كان يصبو إليه بدأ مرحلته الثانية معهم وهي مرحلة الحرب الشاملة.

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٣، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص٦١-٦٢، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٨٠.

مرحلة المهادنات والهجمات العسكرية الأولى:

بدأت هذه المرحلة عندما توجه السلطان الظاهر إلى بلاد الشام سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م. إذ لما نزل بمنطقة العوجا في جنوب فلسطين، أسرع أمير يافا «سيرجوان دبلين» بانفاذ رسله يسأل الأمان للحضور بين يديه، فرحب السلطان بذلك وأرسل له أتابكه كي يرافقه في حضوره، فلما حضر تلقاه باحتفاء وتكريم، ثم كتب له منشورا بالبلاد التي كان يحكمها ورده سالما إلى يافا.(١)

وقد شجع هذا الموقف بقية حكام الصليبيين، فحضر إليه عندما وصل إلى دمشق رسول من جهة عكا يسأله أمانا للرسل المتوجهين إليه من كافة المعاقل الصليبية، فاستجاب السلطان لذلك، وكتب إلى واليه على بانياس يأمره بتمكينهم من الحضور، فحضر أكابرهم والتمسوا الصلح وسألوه إعادة العسكر الذي كان قد انفذه للإغارة على بلادهم من جهة بعلبك في وقت سابق، ولمّا كان السلطان قد اتخذ سياسة المهادنة معهم في هذه المرحلة فضلاً عن غلاء الأسعار في بلاد الشام في تلك السنة، هذا في الوقت الذي كانت فيه معاقلهم مصدرا لجلب كثير من السلع، فقد وافق على الصلح وعقد مهادنات مع أمرائهم في عكا ويافا وبيروت «فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية (الناصر صلاح الدين) وإطلاق الأسارى من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت الهدنة (أي من سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م - ٦٥٩هـ/١٢٦١م). وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم»، وكانت النتيجة أن أمنت السبل وكَثُرَ الجلبُ.(٢)

ولكي يضع السلطان الظاهر بيبرس هذه الهدنة موضع التنفيذ شرع في جمع أسرى الصليبيين ثم انفذهم إلى مدينة نابلس تمهيدا لمبادلتهم بالأسرى المسلمين الذين في أيدي الصليبيين، إلاّ أن الصليبيين أخذوا يماطلون في تسليم الأسرى المسلمين، مطالبين بتعويضهم عن منطقة زرعين في شمال فلسطين، فأجابهم السلطان رافضا مطالبهم: «إنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية (عشر ضياع) من مرج عيون، وقايضتم صاحب تبنين بمواضع، والمقايضة في أيديكم فكيف تطلبون العوض مرتين؟ فإن

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١١٧-١١٨، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٤٧.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١١٨، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٤٧.

كنتم باقين على العهد، وإلاّ فما لنا شغل إلاّ الجهاد» ولمّا طال الأمر معهم دون نتيجة أمر بإعادة الأسرى من نابلس إلى دمشق واستخدامهم في العمائر.[1]

لقد جاء هذا الموقف السلبي من جانب الصليبيين لكي لا يطلقوا سراح أسرى المسلمين لاعتمادهم الكبير عليهم، نظرا لأنهم كانوا صناعا مهرة، وكان السلطان مدركا لموقفهم ذاك، وقد واجههم بحقيقته وعنّفهم لعدم تمكين أسراهم من العودة إليهم قائلا لهم: «ولم ترحموا أهل ملتكم من الأسرى، وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم، كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم».[2]

وبفشل المفاوضات معهم، انفذ السلطان الأمير جمال الدين المحمدي على رأس قوة عسكرية للإغارة على بعض معاقلهم وعلى العرب الزبيديين الذين كانوا يساعدونهم.[3]

ثم تطلع السلطان للانتقام من بوهمند السادس أمير انطاكية - طرابلس بسبب تحالفه مع المغول ضد المسلمين، ولما ارتكبه من أعمال عدوانية في شمال بلاد الشام، فأرسل إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومي -الذي كان قد انفذه على رأس قوات عسكرية إلى حلب لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها هناك بعد الاضطرابات التي اصابتها -يأمره بالتوجه إلى انطاكية ومهاجمتها، وانضم إليه لتنفيذ هذه المهمة صاحب حمص وحماه فنازلها شمس الدين وسيطر على مينائها، وأحرق المراكب الراسية فيه بعد أن استولى على ما بها من حواصل، وكادت انطاكية تقع في يده لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذي استنجد بالمغول، مما جعل الأمير شمس الدين ينسحب عنها[4]، ويتوجه إلى مدينة السويداء التابعة لها، فحاصرها ثم دخلها عنوة بالسيف وقتل عددا من الصليبيين فيها، ثم عاد إلى القاهرة -بعد عودة السلطان إليها- ومعه أكثر من مائتين وخمسين أسيرا من الصليبيين.[5]

وعاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشه إلى بلاد الشام مرة أخرى سنة

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١١٨-١١٩، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٤٧..

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٤.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٢٠، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٤٨.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٢٠، ابو الفداء، المختصر، جـ٣، ص٢١٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٣٣، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٥٠-٥١.

٦٦١هـ/١٢٦٣م، وقد استمر في اتباع سياسة المناورة مع الصليبيين إذ لم يكن قد انتهى بعد من أمر الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وتطبيقا لهذه السياسة، استقبل وفدا منهم جاء لتهنئته بالسلامة، وقد تعلل أعضاء الوفد عن تأخرهم عنه بقولهم له: «ما عرفنا بوصول السلطان»، فرد عليهم السلطان ردا أشعرهم فيه بقوة جيشه ليزدادوا هلعا ورعبا قائلا لهم: «إن من يريد أن يتولى أمرا ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة، والحيتان في المياه، من كثرة هذه العساكر التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته حوافر خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنابكها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج، في مرغان من التتار، إذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأي شيء تعلمون؟»

كما استقبل نوابا من يافا وأرسوف وتقبل هداياهم تطييبا لهم وتسكينا لقلوبهم وقد أصدر أوامره إلى قواته العسكرية بعدم النزول في زروعهم أو التعرض لها أو رعي خيولهم بها أو التعرض لمواشيهم، كما أمرهم الرفق بفلاحيهم، لعل ذلك يعيدهم عن الغي الذي هم فيه.

وكان الصليبيون قد بلغ من صلفهم أن «كانت كتبهم قبل توجه السلطان مضمونها طلب فسخ الهدنة والندم عليها، وصارت عند قرب السلطان ترد كتبهم بأنهم باقون على العهد متمسكون بأذيال المواثيق».[1]

واستمر السلطان يحتمل موقفهم هذا إلى أن تمكن من إلقاء القبض على الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وعندئذ اتخذ منهم موقفا صارما، فقد أحضر رسلهم وقال لهم: «ما تقولون؟ فقالوا نتمسك بالهدنة التي بيننا، فردّ عليهم: لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان!» وبعد أن ذكّرهم بسوء أفعالهم، اشترط عليهم شرطا جديدا لاستمرار الهدنة معهم وهو رد المعاقل التي كانوا قد أخذوها صلحا من الملك الصالح اسماعيل سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، وهي صفد والشقيف وما يتبعهما من بلاد لأنهم قد حصلوا عليها مقابل نجدة الصالح اسماعيل ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب.[2]

فلما سمعوا قوله هذا بهتوا، إذ كانوا يسعون من خلال عقد هذه المهادنات إلى

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٢-١٥٣.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٦، ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة، ص١٤٦، ١٥٩.

ترسيخ أقدامهم في بلاد الشام والحصول على مكتسبات جديدة ظنا منهم أن السلطان يهادنهم لضعف فيه، ففوجئوا والحالة هذه بأن السلطان يسعى إلى سحب البساط من تحت أقدامهم، ولذلك رفضوا رد المعاقل التي بأيديهم مكتفين بالموافقة على تبادل الأسرى فقط.

وأزاء هذا الرفض أمر السلطان بطرد رسلهم من حضرته، وأصدر من فوره أمراً بهدم كنيسة الناصرة، وأنفذ لهذه المهمة الأمير عز الدين طيبرس في قوة عسكرية، فهدمها وسوآها إلى الأرض، ثم أنفذ الأمير بدر الدين الأيدمري في قوة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها، فنازلها وهاجم أبوابها واستاق الكثير من مواشيها وعاد إلى مخيم السلطان -قرب جبل الطور-.[1]

ولم يكتف السلطان بهذه الغارة، بل خرج بنفسه على رأس فريق من فرسانه للاستيلاء على عكا[2]، فهاجمها وحرق أشجارها وزروعها إلاّ أنه لم يتمكن من اقتحامها فاكتفى بما حققه وعاد أدراجه إلى القاهرة بعد أن زار بيت المقدس، وقد عين قبل رحيله الأمير ناصر الدين القيمري نائبا للسلطنة بالفتوحات الساحلية.[3]

ولم تتغير العلاقات معهم بعد عودة السلطان إلى القاهرة، بل استمرت على الاسلوب ذاته ففي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، سأل الصليبيون في المنطقة الساحلية من فلسطين ومنها قيسارية، نواب السلطان الإذن لهم بزراعة البلاد وتقويتها من أموالهم وهي جملة كثيرة من الغلات، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام الحصاد.[4]

وفي السنة ذاتها أغارت قوة عسكرية إسلامية بأمر من السلطان على جهات أنطاكية فغنمت وقتلت وأسرت، كما أغارت قوة عسكرية أخرى بقيادة الأمير ناصر الدين القيمري على عكا، وأغارت قوة عسكرية أخرى بقيادة الأمير عز الدين الشجاعي على منطقة الخيط (وهي جزء من الغور الأعلى في الشمال الشرقي من

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٦-١٥٨، ١٦٢، أبو الفداء، المختصر، جـ٣، ص٢١٧، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٣٥٦.

(٢) العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٣٥٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٤.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٦٢.

(٤) م.ن، ص١٨٧.

فلسطين كانت تحت الاحتلال الصليبي).[1]

وفي محاولة للحد من الهجمات الإسلامية أخذ الصليبيون يشنون الهجمات المعاكسة علي المعاقل الإسلامية، فقد أغارت قوة منهم من فرسان الداوية والاسبتارية في عكا على اقليم عسقلان[2]، فردّ الأمير ناصر الدين القيمري بالإغارة على عثليث وقيساريه[3]، وهاجم الصليبيون منطقة بيسان ونهبوها وعادوا إلى عكا محملين بالغنائم[4]، واعتدى الصليبيون الذين هادنوا الأمير ناصر الدين القيمري على جماعة من المسلمين وأسروا عددا منهم واستولوا على أموالهم ومواشيهم، فسير إليهم الأمير ناصر الدين يتهددهم بقوله لهم: «نحن هادناكم كما سألتم المدة التي طلبتموها، وهذه الأخيذة كانت في مدة الهدنة»، فأرسلوا وزير قيسارية ليتحدث في الأمر، فما كان من الأمير ناصر الدين إلاّ أن أمسكه عنده، ولم يطلقه إلاّ بعد أن رد الصليبيون جميع ما أخذوه.[5]

مرحلة الحرب الشاملة:

حقق السلطان الظاهر بيبرس مقصده من المرحلة الأولى بنجاح كبير، فقد تمكن من تأمين سلامة الجبهة الداخلية، كما أمن موقفا خارجيا مؤيدا له ضد الصليبيين، ولذلك لم تعد المرحلة الأولى هذه ذات نفع أو أهمية، فقرر الانتقال إلى مرحلة الحرب الشاملة، وهي مرحلة التصفية والتحرير.

فتح قيسارية:

بينما كان السلطان الظاهر بيبرس يصطاد في جهات العباسة سنة٦٦٣هـ/

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٩٦-١٩٧.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٤٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٤.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠٠، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٧٨.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٤٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٤٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٧٨.

١٢٦٥م وصلته الأخبار بهجوم المغول على بلاد الشام عبر حدودها الشمالية، فأسرع بالعودة إلى القاهرة لجمع قواته وإعدادها تمهيدا للخروج على رأسها لصدهم، وكانت قواته العسكرية متفرقة في البلاد المصرية، فيما كانت الخيول قد أرسلت إلى المراعي.

والواقع أن الصليبيين كان لهم دور كبير في حث المغول على القيام بهذا الاعتداء إذ أفهموهم بأن عساكر الديار المصرية لا يمكنها وقت الربيع الحركة، غير أن السلطان بفضل تنظيمه للبريد قد نجح في جمع قواته بوقت قياسي «وما علموا أن للإسلام ملكا يحمل النفس على المشاق، وإذا ساق إلى جهة يخيل أنه ركب على البرق أو البراق».

وبتكامل أعداد قواته خرج بها في شهر ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ/ مستهل ١٢٦٥م. وعندما دخل فلسطين وصلته الأخبار بتمكن قواته المرابطة في البيرة في شمال الشام من صد المغول، عندئذ قرر مهاجمة الصليبيين في المنطقة الساحلية مستفيدا من استعداد قواته للقتال، فبعد أن قطع بجيشه نهر العوجا حط رحاله قريبا من غابة أرسوف مظهرا التلهي بالصيد، وبسرية تامة ساق في قوة عسكرية إلى أرسوف ثم قيسارية فكشف منطقتهما تمهيدا لمهاجمتهما، ثم عاد مسرعا إلى معسكره وكتب من فوره إلى القلاع الإسلامية القريبة بطلب المجانيق والصناع والحجارين، كما أمر الصناع في معسكره بصناعة المجانيق والسلالم. وبتكامل تجهيزاته تحرك بالجيش إلى أن وصل قريبا من عيون الأساور، وعند حلول الظلام أمر الجيش بلباس آلة الحرب والاستعداد في أقصى درجاته، وبسرية تامة تحرك قبيل الفجر إلى قيسارية، فوافاها على حين غفلة من أهلها بكرة نهار يوم الخميس ٩ جمادى الأول / ٢٨ شباط من السنة ذاتها. وبعد أن ضرب حصاره حولها من جهاتها البرية ونصب عليها المجانيق شرع في مهاجمتها.

وفي أثناء ذلك قام بانفاذ الأمير شهاب الدين القيمري على رأس قوة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها ومشاغلة الصليبيين فيها لمنعهم من تقديم أية مساعدة لقيسارية.[١]

وتمكنت جموع المجاهدين من تجاوز خنادق قيسارية واعتلاء أسوارها باقتدار كبير رافقه رفع الأعلام فوقها وسط ذهول الصليبيين وفزعهم. وعبثا حاولوا المقاومة، فقد تمكن المجاهدون من إحراق أبواب المدينة والاندفاع إلى داخلها في نفس يوم الخميس[٢]،

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٢٢-٢٣١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٨٨-٨٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٨٨، ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص٢٣٣، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص٢٥٢.

فما كان من الصليبيين الا أن هربوا إلى قلعتها وتحصنوا بداخلها، وكانت هذه القلعة التي عرفت بالخضراء، تمتاز بالحصانة والمنعة فضلاً عن وقوعها على حافة البحر، فزحف السلطان بقواته وحاصرها، ونصب عليه المجانيق، كما استخدم الدبابات ذات العجلات، والزحافات في هجومه عليها، وكمنت وحدة من رماة النشاب فوق كنيسة قبالة القلعة لمنع الصليبيين من اعتلائها، وبلغت مرحلة القتال ذروتها عندما خاض السلطان عباب البحر على رأس كوكبة من فرسانه لشل حركتهم" وأخذ في بعض الأيام في يده ترسا وقاتل ومارجع الا وفي ترسه عدة سهام"[1] وتحت وطأة الحصار والرماية الشديدة اضطر الصليبيون إلى الهرب من القلعة باتجاه عكا بحرا، فدخلتها القوات الإسلامية في يوم الخميس منتصف جمادى الأولى / ٤ آذار من السنة ذاتها، وأذن عليهاالصلاة فجر يوم الجمعة.[2]

وبعد هذا الفتح المؤزر شرع السلطان بهدم المدينة والقلعة بعد أن قسّم ذلك على عساكره ومماليكه، وقد شارك بنفسه في عمليات الهدم، ثم ملك سائر أعمالها للأمراء الذين حضرواحصارها والغائبين عنه بالبيرة الذين صدوا المغول.[3]

وقبل أن يفرغ من هدم المدينة وقلعتها سيّر الأمير سنقر الألفي والأمير سيف الدين المستعربي في قوة عسكرية إلى الملوحة بالقرب من حيفا لهدم قلعة للصليبيين هناك، وكانت قلعة عاتية عاصية، فهدمت ودكت إلى الأرض.[4]

ثم سيّر الأمير سنقر الألفي مرة أخرى في قوة عسكرية إلى حيفا فهاجمها ودخل قلعتها «فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب بعد أن قتل منهم وأسر واحضرت الأسارى والرؤوس وأخربوا المدينة وقلعتها وأحرقوا أبوابها وجعلوها خاوية على عروشها».

وفي الوقت ذاته كان السلطان ينطلق بنفسه على رأس قوة عسكرية إلى عثليث

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣١.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣١-٢٣٢، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٨٩، ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٢، ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص٢٣٣، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٢٥٤، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٣٦٧.

(٣) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١٠٧، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٣٠.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣٤، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٢٧-٥٢٨.

فأغار عليها «وأمر بتشعيثها وقطع اشجارها، فقطعت جميعها وخربت ابنيتها في ذلك النهار» ثم عاد إلى قيسارية لاستكمال هدم قلعتها.[1]

فتح أرسوف:

ما أن انتهى السلطان الظاهر من تدمير قيسارية حتى تحرك في أوج انتصاره الكبير وبسرية تامة صوب أرسوف جنوباً، فنازلها في مستهل جمادى الآخرة ٦٦٣هـ/ آذار ١٢٦٥م وضرب حصاره على امتداد جهاتها البرية ونصب عليها المجانيق.[2]

وقد اتبع السلطان خطة عسكرية محكمة لاقتحامها، وصفها المقريزي بقوله:"ونقل إليها من الأحطاب ما صارت حول المدينة كالجبال الشاهقة وعمل منها ستائر وحفر سربين من خندق المدينة إلى خندق القلعة وسقفه بالأخشاب، وسلم احدهما للأمير سنقر الرومي...وسلم الآخر للأمير سيف الدين قلاوون...وعمل السلطان طريقا من الخندقين إلى القلعة وردمت الأحطاب في الخندق، فتحيل الفرنج وأحرقوها كلها، فأمر السلطان بالحفر من باب السربين إلى البحر، وعمل سروبا تحت الأرض يكون حائط خندق العدو ساترا لها، وعمل في الحائط أبوابا يرمى التراب منها وينزل في السروب حتى تساوى أرضها أرض الخندق، وأحضر المهندسين حتى تقرر ذلك، وولى أمره للأمير عز الدين أيبك الفخري، فاستمر العمل، والسلطان بنفسه ملازم العمل بيده في الحفر وفي جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الأحجار، أسوة غيره من الناس وكان يمشي بمفرده وفي يده ترس، تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر يرمي مراكب الفرنج، وكان يجر في المجانيق، ويطلع فوق الستائر يرمي من فوقها، ورمى في يوم واحد ثلاثمائة سهم بيده...".[2]

وذكر ابن عبد الظاهر من الذين شاركوا في هذا الفتح بقوله" وحضر العباد والزهاد والفقهاء إلى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر، وأصناف العالم، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش، بل النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال ويجررن في المجانيق".[3]

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣٤، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٥.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٢٨.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣٨.

واستمر المجاهدون يحاصرون المدينة حتى انهارت كل مقاومة كانت لدى حاميتها من فرق الاسبتارية إلى أن سقطت المدينة في يوم الخميس ٨ رجب/٢٦ نيسان من السنة ذاتها، عندئذ طلب الصليبيون الذين تحصنوا بداخل القلعة الأمان من السلطان، فأمنهم وأمر بجمع سيوفهم، كما أمر بنقل المصابين منهم إلى يافا.(١)

"ولما لم يبق بأرسوف أحد من الفرنج أباح القلعة للمسلمين بما فيها من غلال وذخائر ومال، وكانت بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض منها إلا لما اشتراه بماله، وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا تلك الساعة، وأخذت قيودهم قيد بها الفرنج ".(٢)

ثم شرع السلطان بتقسيم أبراجها على الأمراء لهدمها، وأمر بأن يتولى الأسرى الصليبيون هدم الأسوار، فهدمت بأيديهم.(٣)

وكتب السلطان إلى قسطلان يافا كتابا بأن يكتب الى صاحبه (أمير يافا)، (بأنا لا نحتمل الهضيمة، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها تلة مرتفعة، وإذا أسر لنا فلاح أسرنا الفا من المقاتلة لابسة السلاح، واذا هدموا جدارا هدمنا أسوارا والسيف في يد الضارب، والجواد عنانه في قبضة الراكب، ولنا يد تقطع الاعناق، ويد تصل الأرزاق، ومن تحرش فعن تجربة، ومن أراد شيئا من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة».(٤)

وقد حرص السلطان على ابلاغ حلفائه نبأ انتصاراته هذه، كملك صقلية وامبراطور الدولة البيزنطية، وبركة خان زعيم المغول القفجاق، وجمهورية جنوا، الذين ربطتهم به رابطة العداء والكراهية للصليبيين.(٥)

ولدى عودته إلى القاهرة أخذ معه الأسرى الذين وقعوا في قبضته غنائم حرب

---

(١) م.ن، ص٢٤١-٢٤٢، شافع بن علي، حسن المناقب، ص٨٩-٩٠. ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص٨٣٢، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٢٨-٥٢٩.
رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٤٧، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٥.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٤٣.

(٣) م.ن، ص٢٤٣، ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص٨٣٢، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٦.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٤٣.

(٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٥.

ليزين بهم موكبه اثناء دخوله القاهرة وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة.(١)

فتح قلاع حلبا وعرقا والقليعات:

قضى السلطان الظاهر بيبرس فترة قصيرة في القاهرة ثم عاد إلى بلاد الشام في منتصف سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م لمواصلة جهاده ضد الصليبيين وفتح المزيد من معاقلهم، وكان الأمير بوهمند السادس أمير انطاكية - طرابلس قد تحرك في أوائل السنة ذاتها للإغارة على حمص بمساعدة فرسان الداوية والاسبتارية، غير أنه ارتد عنها مهزوماً بعد أن تصدى له نائبها الأمير علم الدين الباشقردي.(٢) وأزاء هذا الاعتداء جرد السلطان عندما وصل إلى غزة قوة عسكرية على رأسها الأمير جمال الدين أيدغدي والأمير سيف الدين قلاوون إلى حمص أولاً لرد أي اعتداء قد يشنه عليها بوهمند من جديد ثم أمرهما بالتوجه إلى طرابلس للإغارة على بلادها الساحلية فتحركا من فورهما إلى أن وصلا قريبا من حمص ثم ارتدا إلى جهة حصن الأكراد، وهناك أغارا على معقل قريب منه «فأقاموا عليه يوما واحدا، وأخذوه وأسروا به جماعة»، وكان بقلعة حلبا جماعة، فهربوا وأخلوها، ودخل العسكر إليها وكسبوا منها شيئا كثيرا... ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم فقتلوهم وأخذوا نساءهم، «ولما شاهد أهل قلعة عرقا ما جرى في حلبا نجوا بأنفسهم»، «وما زالت العساكر حتى أخربت القلعتين المذكورتين، ونزلوا على حصن يعرف بالقليعات، وهو حصن عظيم وتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان، وهدمت أيضا».

وفي أثناء عودة هذه العساكر كمن الأمير سيف الدين قلاوون بالقرب من القليعات وسير كشافة لمراقبة تحركات الصليبيين، فوجد خمسين منهم قد توجهوا من صافيتا إلى حصن الأكراد لنجدته، فقتلهم جميعا وأحضر رؤوسهم إلى السلطان عند عودته، كما أفشل غارة قام بها فرسان الداوية على بعض أفراد قواته، فقتل منهم عددا وأسر عددا آخر.

وكان قد انضم إلى العساكر الإسلامية في هذه الغزوة الفا فارس من الأعراب على

---

(١) وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٦.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٥، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٤٣، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٢.

رأسهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وقد أصيب شرف الدين هذا بجرحين فيها.

وبالسيطرة على هذه القلاع الثلاث حلبا وعرقا والقليعات التي كانت تؤلف خط دفاع محكم يحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي لإشرافه على المنفذ الذي يوصل بين طرابلس وحمص، أصبح الطريق مفتوحا للقوات الإسلامية كيما تضيق الخناق على طرابلس ذاتها تمهيدا لتحريرها من أيدي الصليبيين.

وقد شجعت هذه الانتصارات السلطان الظاهر، فجرد عددا من الأمراء على رأس قوات عسكرية للإغارة على العديد من معاقل الصليبيين على طول الساحل الشامي وكانت على نحو ما يلي:

الأمير علاء الدين البندقداري والأمير عز الدين أوغان إلى صور.

الأمير سيف الدين أتامش إلى صيدا.

الأمير بدر الدين بيسرى إلى جهة حصن القرين.

الأمير ناصر الدين القيمري إلى عثليث.

فيما اتجه السلطان على رأس بقية جيشه إلى عكا، ثم إلى قلعة القرين، ولما وجدهما محصنتين، أقلع عنهما باتجاه صفد، فكشف منطقتها ثم عاد إلى معسكره.[1]

وقد عمت الهجمات الإسلامية بلاد الفرنج من حدود طرابلس شمالا وحتى المناطق القريبة من أرسوف جنوبا. وغنم المسلمون فيها غنائم كثيرة «وتوالت المكاسب حتى لم يوجد للأبقار والجواميس من يشتريها» ولما كانت هذه الهجمات قد أثرت في الصليبيين تأثيرا كبيرا فقد أرسل مقدم الاسبتار بعكا إلى اتابك السلطان لكي يسعى في الصلح. غير أن الجواب الذي أرسل إليه كان يتضمن التهديد والتخويف.[2]

فتح صفد:

كان السلطان قبل أن يتحرك إلى صفد قد أنفذ إليها الأمير فخر الدين الشهابي في قوة عسكرية، فاستمال أهل البلاد المجاورة لها، كما أنفذ الأمير فخر الدين الفائزي

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥١-٢٥٣، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٤٥،
King, The Knights Hospitallers in Holly Land, P260.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٣-٢٥٤، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٤٥.

إلى قلعة الشقيف في مظاهرة عسكرية لصرف النظر عن وجهته الحقيقية، ولمنع الصليبيين من تقديم أي عون لصفد عند محاصرتها.[1]

ووصل السلطان إلى صفد في ٨ رمضان ٦٦٤هـ/ ١٣ حزيران ١٢٦٦م وشرع من فوره بضرب حصاره حولها، وفي اثناء ذلك قدم عليه رسل من قبل أمراء صور وبيروت ويافا يلتمسون موادعته، بيد أن السلطان زجرهم وأنكر على أمرائهم امورا تنقض العهد معهم، ومن ذلك أنه كان قد اتفق مع أمير صور على أن يشارك الجنوية بحرا في محاصرة عكا (لخلافات كانت بين الجنوية والصليبيين في عكا) أثناء هجومه عليها من ناحية البر، إلا أن أمير صور لم ينفذ ذلك، بل أعان فرقة من الصليبيين للإغارة على بانياس، وقتل غلاما له (للسلطان) داخل إمارته.

وأمّا أمير بيروت فردّ على رسوله: «إن صاحبكم الذي كان متفقا معنا قد هلك»، وأنكر عليهم تعرضهم لمركب من مراكب أحد قواده، إذ غدروا بأهله وأخذوه، وأما أمير يافا، فأنكر عليه نصبه المجانيق على قلعة يافا مع أنه في صلح، فعاد الرسل دون تحقيق الهدف الذي قدموا لأجله.[2]

وما أن وصلته المجانيق التي كان قد طلبها من دمشق (في ٢١ رمضان / ٢٦ حزيران) حتى نصبها حول صفد، وأول ما بدأ به قصف بيت مقدم الداوية فيها. وبتكامل عودة قواته التي أنفذها للإغارة على معاقل الصليبيين شرع بشن هجومه الأول عليها في ٢ شوال / ٧ تموز مستخدما السهام والرماح المشتعلة بالنفط، وقد وعد الحجارين «أنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثاني والثالث إلى العشرة». واشتد القتال عليها ليلاً، وقاد السلطان بنفسه هجوما على خندق الباشورة (سد ترابي) إلا أنه لم يتمكن من اقتحام المدينة، فيما حقق فقط احداث نقوب في أسوارها.

ونتيجة لكثرة الجراح التي حدثت بين صفوف مقاتليه، فقد أمر بنصب خيمة جعل فيها الحكماء والجرائحية لمداواتهم.

ثم شن هجوما ثانيا في ٨ شوال / ١٣ تموز فلاقى ذات المصير، إلا أنه نجح في

---

(١) شافع بن علي، حسن المناقب، ص١٠٨، King, op, cit, p260

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٥، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٤٦.

عمل جسر اقامه على باب القلعة، وشن بعد ذلك هجوما ثالثا في ١١ شوال/ ١٦ تموز ولكنه أخفق ايضا.[١]

وتعود أسباب هذا الفشل المتكرر إلى منعة القلعة وقوتها، فقد جددت استحكاماتها من قبل فرسان الداوية قبل خمس وعشرين سنة -قبل تاريخ حصارها- كما أن الحامية فيها كانت وفيرة العدد.[٢]

وبإصرار السلطان على اقتحامها قام بشن هجوم رابع في ١٤ شوال/ ١٩ تموز، واستمر طوال الليل وحتى صباح اليوم التالي ١٥ شوال/ ٢٠ تموز، وتمكن خلال ذلك من الاستيلاء على أسوار الباشورة ورفع أعلامه عليها، بعد دحر الصليبيين الذي اندفعوا إلى القلعة وتحصنوا بها، واستمر السلطان يناصبهم الحصار ويناهزهم القتال.[٣] وأعلن في الوقت ذاته بأنه سيمنح العفو لكل من يستسلم له منهم[٤]. عندئذ أرسل الصليبيون -بعد أن تقطعت الأسباب بهم- إلى السلطان يطلبون الأمان، فاشترط عليهم «أن لا يستصحبوا سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الفضيّات، ولا يؤذوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم» واستمرت المفاوضات معهم إلى ما بعد صلاة يوم الجمعة ١٨ شوال/ ٢٣ تموز، حين تمت الموافقة على هذه الشروط، «فلما كان وقت العصر فتحت الأبواب. وطلعت الصناجق (الأعلام) وكانت ساعة مشهودة ووقف السلطان راكبا على باب صفد ونزل الفرنج أولاً فأولاً، وصاروا جميعا في يديه، وفي اثناء تفتيشهم وجد بأنهم قد نقضوا شروطه، اذا اصطحبوا معهم أسلحة وبعض أسرى من المسلمين على أنهم نصارى، فأمر السلطان بضرب رقابهم، فضربت على تل قريب من صفد.[٥] وكانوا زهاء الفي فارس.[٦]

وقد ذكر بعض المؤرخين بأن السلطان الظاهر لم يحلف لأهل صفد عندما عرض

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٠-٥٥١.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٩.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥١.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦٠-٢٦١.

(٦) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١١٨، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٧.

عليهم الأمان وإنما أجلس مكانه أحد الأمراء ويدعى «كرمون انماالتتري» فحلف لهم وهم يظنونه السلطان.[1]

وعندما علم أهل عكا بقتل هذا العدد في صفد، أرسلوا إلى السلطان يطلبون جثث القتلى قائلين له: «تصدق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء إلى عكا لأجل البركة بهم، فترك السلطان رسولهم في مخيمه، ثم أخذ كوكبة من الفرسان وساق في أول الليل إلى عكا فما أصبح إلا وهو على بابها. فلما فتح الصليبيون الباب وخرجوا لقضاء حوائجهم ساق عليهم فقتل منهم عددا كبيرا وعاد من فوره إلى صفد، فلما دخل الى خيمته طلب رسول عكا وأعاد إليه الرسالة قائلا له: «عود «عد» إليهم. فقد عملنا عندهم شهداء، وكفيناكم مؤونة النقل وكلفته».[2]

واتخذ السلطان الظاهر من مدينة صفد بعد تحريرها مركزا لنيابة جديدة من نيابات الدولة المملوكية في الشام، وولّى الأمير عزالدين العلائي نائبا لها، كما ولّى الأمير علاءالدين أيدغدي مقدما لعسكرها، والأمير مجد الدين الطوري نائبا لقلعتها وحمل إليها الذخائر والسلاح، كما استدعى الرجال من دمشق للإقامة بها، وقرر نفقة رجالها مبلغ ثمانين ألف درهم في الشهر، كما استخدم الأمراء على أعمالها التي تشكلت منها في ذلك الحين.[3]

وجاء هذا الفتح المؤزر مكسبا كبيرا للمسلمين، إذ كان هذا المعقل مصدر خطر دائم هدد الصليبيون من خلاله القوات الاسلامية والفلاحين المسلمين على امتداد عرض فلسطين شمالاً، نظرا لموقعه الحربي المتوسط في قلب الجليل. فضلاً عن منعته وارتفاعه وقد عبّر ابن عبد الظاهر عن سبب اهتمام السلطان بأمر صفد بقوله «لأنها الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الإسلام».[4]

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٣٨، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١١٧، الكتبي، عيون التواريخ، جـ٢٠، ص٣٣٦، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٨.

(٢) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١١٨.

(٣) الكتبي، عيون التواريخ، جـ٢٠، ص٣٦٠، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٤٧-٥٤٨.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٤.

فتح طبرية وبلادها وهونين وتبنين والرملة واللد:

بعد فتح صفد توجه السلطان الظاهر الى طبرية فاستولى عليها وعلى بلادها المجاورة لها وذلك في الشهر ذاته(شوال/ تموز) كما (استولى في شهر ذي القعدة، اواخر آب) على هونين وتبنين ودمرهما بحيث لم يبق لقلاعهما أثرا. ثم استولى في الشهر ذاته على الرملة واللد،[1] وانفذ قوة عسكرية إلى حيفا، فقطعت أشجارها، ثم توجه السلطان بعد ذلك إلى دمشق، وأمر جيشه بعدم دخولها بل التوجه إلى مملكة أرمينية الصغرى مباشرة لتدميرها.[2]

تدمير مملكة أرمينية الصغرى:

كان الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى قد دخل في حلف مع هولاكو زعيم مغول فارس ضد المسلمين، كما دخل في حلف مع الصليبيين في بلاد الشام، وزاد من صلفه أنه اتبع سياسة جديدة ضد المماليك في مصر وهي فرض حصار اقتصادي عليهم. وذلك بمنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إليهم، وقد هدف من وراء ذلك إلى حرمان المماليك من إنشاء قوة بحرية، إذ كانت أخشاب الأناضول تدخل في صناعة السفن الحربية المملوكية. أزاء ذلك ظل السلطان الظاهر بيبرس ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على مملكة أرمينية وتدميرها، وكان انشغال ابغا ابن هولاكو وخليفته في حكم مغول فارس- بالحرب ضد مغول القفجاق المسلمين من ناحية ومغول التركستان من ناحية أخرى، قد أتاح للسلطان الظاهر الفرصة التي كان ينتظرها،[3] فجهز جيشا كثيفا جعل قيادته للأمير سيف الدين قلاوون وللملك الأيوبي المنصور الثاني ملك حماه، للزحف على مملكة أرمينية الصغرى وتدميرها، وبالقرب من دربساك (قلعة حصينة قرب أنطاكية) دارت معركة كبرى بين الجيشين الإسلامي والأرميني في شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ/ آب ١٢٢٦م، هزم فيها الجيش الأرميني شر هزيمة وقتل في المعركة الأمير توروس ابن الملك هيثوم الأول، فيما وقع الأمير ليو ابنه الآخر أسيرا في أيدي

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٠.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦٧.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٧، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٣.

المسلمين، أما الملك نفسه فكان متغيبا عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة مغول فارس.(١)

وبعد هذه المعركة انقسم الجيش الإسلامي إلى فرقتين، فرقة قادها الأمير سيف الدين قلاوون وتوجه بها إلى مدن أرمينية الرئيسة وهي المصيصة، أذنه، طرسوس، اياس، فهاجمها ودمرها دون مقاومة تذكر. أما الفرقة الثانية فقادها الملك الأيوبي المنصور الثاني وتوجه بها إلى سيس عاصمة أرمينية، فاستولى عليها دون مقاومة ايضا، وبعد أن نهبها أشعل النيران فيها.

وبعد أن مكث الجيش الإسلامي مدة عشرين يوما في أراضي مملكة أرمينية عاد إلى الشام ومعه أربعون ألف أسير وغنائم كثيرة لا تحصى، وغنمت العساكر ما لا يُعَدّ ولا يحصى حتى بيع الرأس البقر بدرهمين، ولا يوجد من يشتريه، وكانت ذبائح العسكر في كل يوم جملة من البقر والجاموس والأغنام.(٢)

وعندما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى السلطان الظاهر. اتجه مسرعا من دمشق إلى أفامية لاستقبال قواته هناك، ثم عاد على رأسها إلى دمشق.(٣)

وكان السلطان في أثناء توجهه للتقى عساكره قد نزل على بلدة قارا الواقعة بين دمشق وحمص، وكان أهلها من النصارى، فشُكي إليه أنهم يعتدون على المسلمين في الضياع المجاورة ويبيعون من يقع إليهم للصليبيين في عكا بيع الرقيق دون أن يراعوا حرمة في ذلك طالما أنهم يعتبرون من رعايا الدولة، فأمر السلطان بنهب أهلها وقتل كبارهم وسبي النساء والأولاد، كما أمر بتحويل كنيستها إلى جامع، ونقل إليها رعية من المسلمين ورتب فيها خطيبا وقاضيا.(٤)

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٧٠-٢٧١، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٤٧، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٨، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٣-٥٥٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٧٠-٢٧٧، ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٣-٤، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٣، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٤٢٣.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٧١.

(٤) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١٢٠، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٣، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٠، العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٤٢٥.

أما الملك هيثوم الأول، فلما عاد إلى مملكته ومعه جماعة صغيرة من المغول ألفى ولي عهده الأمير ليو أسيرا، وعاصمته خرابا، وبلاده بأكملها مستباحة، ولم تنهض مملكته بعد ذلك مطلقا من هذه الكارثة التي حلت بها جراء ما اقترفت يداه، وصار دورها سلبيا في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى.(١)

اعتداءات الصليبيين ورد القوات الإسلامية:

في مطلع المحرم سنة ٦٦٥هـ/ تشرين أول ١٢٦٦م قدمت للصليبيين نجدة من جزيرة قبرص على رأسها الملك هيو وعدتها ألف ومائة فارس وصلت إلى عكا، ولـمّا كان هيو متحمسا لقتال المسلمين، فقد قاد هذه القوة التي أتى بها مع فرسان الطوائف الدينية والعسكرية والكتيبة الفرنسية وشن هجوما على منطقة الجليل حتى وصل إلى طبرية، غير أن القوات الإسلامية المرابطة في صفد تصدت للملك هيو ولاحقته قريبا من عكا حيث أنزلت به هزيمة منكرة وقتلت الكثير من قواته. «وصار في عكا بسببهم عزاء عظيم لما قتل من ملوكهم في هذه الغزاة».(٢)

أما السلطان الظاهر، فكان قد عاد إلى مصر عن طريق الكرك، وفي الطريق عند بركة زيزاء وقع عن فرسه اثناء الصيد فكسرت فخذه، فحمل إلى القاهرة، وتعافى بعد مدة، وفي أثناء ذلك ورد عليه رسول من قبل الملك هيثوم الأول ملك أرمينية يشفع في ولده ليو الذي كان قد وقع في الأسر، فأمر السلطان بفك قيده فقط ولم يطلق سراحه، وكتب للملك هيثوم موادعة على بلاده لمدة سنة.(٣)

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٨، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦٨، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٤-٥٥٥.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٥، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٤٨-٤٩.

المهادنات مع قوى الصليبيين

في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ/شباط ١٢٦٧م تحرك السلطان إلى بلاد الشام على رأس شطر من جيشه تاركا معظمه في مصر، إذا كان هدفه تعمير صفد وقلعتها، وكان قد أمر في السنة السابقة ببناء قلعة في قاقون لتكون عوضا عن قيسارية وأرسوف بعد تدميرهما، وقد كملت عمارة هذه القلعة في الشهر الذي قدم فيه إلى بلاد الشام[1].

وعندما وصل إلى غزة ورد عليه رسل الصليبيين ومعهم هدايا وجماعة من أسرى المسلمين هدية له تعبيرا عن حسن نواياهم تجاهه، فكسا الأسرى وأطلقهم وأحسن للرسل، ثم توجه إلى صفد، وفي أثناء مقامه فيها بلغه أن الصليبيين في عكا يخرجون منها في بعض الأيام من الصباح وحتى الضحى، فسرى إليها في كوكبة من الفرسان سراً، ولم يشعر أهل عكا إلاّ وهو على باب مدينتهم مرة أخرى، فدمر عمائرها وآبارها وقطع أشجارها، واستمر على ذلك مدة أربعة أيام.

وفي أثناء مقامه في صفد ورد عليه رسل من قبل بعض قوى الصليبيين في بلاد الشام يلتمسون الموادعة والمهادنة لخشيتهم من أن يقوم بالانقضاض على معاقلهم بعد أن أفزعتهم تلك الانتصارات الكبيرة والساحقة التي حققها بين سنتي ٦٦٣ - ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٥ - ١٢٦٧م.

فقد ورد عليه رسل الملك «هيثوم الأول» ملك أرمينية، فجدد السلطان الهدنة له لمدة سنة أخرى، ولكنه احتفظ بالأمير ليو ولم يطلق سراحه[2].

وورد عليه رسل ملكة بيروت «ايزابيلا دى ابلين»، فعقد معهم موادعة بعد أن التزمت الملكة برد التجار مع أموالهم الذين أسروا في وقت سابق - وهم أهل أحد قادته[3].

وورد عليه رسل أمير صور «فيليب دى مونتفورت»، فعقد معهم هدنة مدتها

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ٢٧٥، ٢٨٠، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٧.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٨٢، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٩.

عشر سنين لصور وبلادها وهي تسع وتسعون قرية، وذلك بعد أن ردّ الأمير جماعة من المغاربة كانوا قد وقعوا بيده، ودفع دية غلام للسلطان كان قد قتله في وقت سابق[1].

وورد عليه رسل بيت الإسبتار يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب، وكانوا قد تحدثوا مع السلطان في هذا الأمر في السنة السابقة، وكان الأمر قد استقر معهم حينذاك على أن يكون الفسخ بيد السلطان، ولمّا حضرت رسلهم هذه المرة التمسوا أن يحلف لهم السلطان على الهدنة، فقررت الهدنة معهم لعشر سنين وعشرة أشهروعشرة أيام وعشر ساعات، وبطل بموجبها ما كان يأخذه الإسبتارية من قطيعة عن بلاد الدعوة الإسماعيلية (وهي حصون، مصياف والعليقة والكهف والقدموس والمنيقة)، وحماه وشيزر وأفامية وأبي قبيس وعينتاب[2]، وكان ما يأخذه الإسبتارية ألفا ومائتي دينار ومائة مد من حنطة، وشعير (نصفين) عن بلاد الدعوة الإسماعيلية، وأربعة الآف دينار عن حماه وشيزر وافامية، وثمانمائة دينار على بلاد أبي قبيس وعينتاب[3].

وورد عليه قسطلان يافا يطلب عقد هدنة مع الأمير جاك الذي تولى إمرة يافا بعد وفاة والده «جوان دبلين»، إلاّ أن السلطان رفض ذلك بسبب الغارات التي كان يشنها هذا الأمير على المسلمين، وأجاب القسطلان بقوله: «الذي كان معي صلحا قد مات»[4]، وبفراغ السلطان من تعمير صفد وعقد هذه المهادنات عاد أدراجه إلى القاهرة في أوائل سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨ م.

ومما هو جدير بالملاحظة أن السلطان الظاهر بيبرس لم يعقد هذه المهادنات مع بعض قوى الصليبيين في بلاد الشام إلاّ ليحول بينهم وبين تقديم المساعدة العسكرية الفعلية للمعاقل التي كان يضعها على قائمة مخططاته العسكرية، وما رفضه لعقد هدنة مع صاحب يافا إلاّ دليلاً على ذلك، إذ كانت يافا أول هدف على قائمته آنذاك، وبخاصة بعد أن أصبحت معقلا يتيماً في وسط محيط إسلامي، كما أن السلطان لم

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٨٢، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٥٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٨٣.

(٣) م.ن، ص٢٨٩.

(٤) م.ن، ص٢٨٩.

يلزم نفسه -كما سنبين- بتنفيذ تلك المهادنات إذا ما سنحت له فرصة الانقضاض على معاقلهم، كيف لا وهم المعتدون المحتلون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر من ناحية، ولم يحترموا العهود والمواثيق التي كانوا يعطونها للمسلمين عندما كانوا يحتلون مدنهم وقراهم من ناحية أخرى.

تجدد القتال بين الصليبيين في عكا:

لم يحاول الجنوية والبنادقة تصفية خلافاتهم التي ظلت قائمة بينهما داخل عكا منذ عقد المعاهدة التي توصلا إليها سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م على أثر القتال الذي نشب بينهما قبل ذلك بسنتين، وقد تجدد القتال بينهما مرة أخرى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وذلك عندما أتى اسطول جنوي في السنة ذاتها مؤلفاً من ثمان وعشرين سفينة بقيادة الأمير «لوتيشستوجر مالدي» الذي شق طريقه إلى عكا واستولى على برج الذباب الذي يقع في طرف حاجز المياه، فتصدت له السفن البندقية، ودارت معركة بحرية بين الطوفين انسحب بعدها الأسطول الجنوي إلى صور على أثر خسارته لخمس عشرة سفينة[1]

فتح يافا:

عاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشه إلى بلاد الشام في مستهل جمادى الآخرة سنة ٦٦٦هـ/ شباط ١٢٦٨م وأرسل إلى نائب دمشق يأمر بتجهيز الجيش الشامي والخروج به إلى قلعة الشقيف لحصارها ريثما يصل إليه، وعندما وصل قريبا من يافا حضر إليه رسل صاحبها يطلبون الهدنه[2]، وكان السلطان قد بلغه «بان أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا، وأقاموا في يافا حانة، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا أسبابا ليست في الهدنة» فعزم على فتحها، فألقلى القبض على رسل صاحبها ثم نزل عليها على حين غفلة من أهلها، وشرع من فوره بحصارها ثم افتتحها عنوة بالسيف في ٢٠ جمادى الآخرة/٧آذار من

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٨.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٩٢، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١٢٤.

السنة ذاتها، فلم يسع أهلها إلاّ اللجوء إلى القلعة، فحاصرها السلطان إلى أن تسلمها صلحاً في اليوم المذكور، ثم سمح لأهلها بالخروج منها، وعوضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا البحر إلى عكا، ثم شرع في هدم القلعة والمدينة، وجمع أخشابها ورخامها وحمله في البحر إلى القاهرة[1].

وملّك السلطان بعض قراها لعدد من الأمراء المماليك، ورتب إقامة قبائل من التركمان بالبلاد الساحلية التي افتتحها لحمايتها، وأمر ببناء الجوامع والمساجد بهذه البلاد وإظهار شعائر الإسلام وإزالة المنكرات منها، كما رتب الخفراء على السواحل والزمهم بدركها، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يغمس في غيره وقال: «هذه بلاد فتحها الله على يدي»، واختار أن يكون مأكوله ومشروبه من هذا المال[2].

فتح الشقيف:

عندما فرغ السلطان من هدم يافا اتجه إلى صفد لأخذ المجانيق والسلاح، ثم تحرك قاصداً الشقيف فنازلها في ١٩ رجب ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م وقدم عليه للمشاركة في الجهاد عدد كبير من الفقهاء والفقراء [3] وكان قد ورد عليه أثناء مسيره إليها بعض المسافرين من عكا ومعهم كتب من أهلها إلى من بالشقيف من الصليبيين، وكانت هذه الكتب أوراقاً مقصوصة عوضاً عن الكتابة، وكان مضمونها بعد ترجمتها: «لا يهولنكم نزول هذا العدد عليكم وقاتلوه أشد قتال، وإن احتجتم إلى شيء تصرفونه فيما بينكم عليه فخذوه من فلان» وسموا لهم رجلاً، فأعمل السلطان الحيلة والمكيدة للسيطرة على القلعة، فأمر أن يكتب مثلها وأن يزاد فيها «وإن أنتم رأيتم من أنفسكم عجزاً من قتاله فسلموا الحصن اليه، واجعلوا فيما تشترطون عليه سلامة أنفسكم وأولادكم وحريمكم»[4].

---

(١) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٢٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٥١، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٢.
Khowaiter, Baibars The First, P97

(٢) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٢٩٣- ٢٩٤.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٥٦٥.

(٤) ابن شداد الحلبي، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٩٦.

وأضاف أبن شداد الحلبي في مصدر آخر، بأنه قد حذّر في هذا الكتاب مقدم الشقيف من الوزير المقيم عنده على لسان أهل عكا، وأرسل في الوقت ذاته كتاباً آخر إلى الوزير نفسه يحذره من مقدم الشقيف -على لسان أهل عكا أيضا- [1] فدب الخلاف بينهم وأخذت الفتنة تستعر في القلعة في الوقت الذي شدد فيه السلطان الحصار عليها مستخدماً ستة وعشرين منجنيقا لقصفها[2]، مما اضطرهم إلى إخلاء احدى القلعتين وتخريبها، فسيطر عليها السلطان، وشدد حصاره على القلعة الأخرى، ونتيجة لذلك «سألوا الأمان على نفوسهم، وأنهم يؤخذون أسارى، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال فأجاب السلطان إلى ذلك»[3]، وتسلم القلعة منهم في ٢٩رجب/١٥ نيسان من السنة ذاتها [4]، وأخرج منها النساء والأطفال وحملهم على الجمال إلى صور وسير معهم من يحفظهم، في حين قيد الرجال كلهم وسلمهم للعسكر، ثم شرع في هدمها، فهدمت إلى الأرض، إلا أنه عاد وولّى الأمير سيف الدين بلبان الزيني لعمارتها فيما بعد، نظراً لأهميتها العسكرية[5].

وقد أرعب هذا الفتح ملكة بيروت وتخوفت من أن يلحق بمعقلها المصير ذاته، فأرسلت إلى السلطان تفاوضه على استمرار الهدنه، ولكي تظهر مصداقيتها في ذلك، فقد توقفت عن المماطلة في تسليم التجار مع أموالهم الذين كانوا قد أسروا في وقت سابق، وإعادتهم إلى السلطان، عندئذ أقر استمرار الهدنه معها.[6]

فتح أنطاكية:

ما أن انتهى السلطان من أمر الشقيف حتى تحرك بجيشه شمالاً صوب طرابلس وخيم بالقرب منها، ثم هاجم النواحي المحيطة بها، فقطع أشجارها وهدم كنائسها

---

(١) ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة، ص١٥٧.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٦٥.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٩٨.

(٤) ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة، ص١٥٨ - ١٦٠.
Khowaiter, op. cit, P98.

(٥) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٢.

(٦) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٢٩٩.

وافتتح برجاً كان قد عصى فيه جماعة من الصليبيين فضرب رقابهم، وأسر عدداً منهم وغنم غنائم كثيرة، كل ذلك وأمير طرابلس قابع في مدينته فزعاً لا يحرك ساكنا"[1].

ثم تحرك السلطان باتجاه صافيتا وانطرطوس فتلقاه أميرها الصليبي بالخدمة وأطلق سراح ثلاثمائة أسير مسلم كانوا في قبضته وذلك تعبيراً عن تودده، فشكره السلطان ولم يتعرض لبلاده، وواصل سيره إلى حمص ثم حماه، وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق لاجتياح بلاد أنطاكية:

- فرقة بقيادة الأمير بدر الدين الخزندار ووجهتها ميناء السويدية لقطع الطريق بين أنطاكية والبحر.
- فرقة بقيادة الأمير عزالدين أوغان وجهتها الدربساك، لسد الممرات بين أرمينية والشام، ولمنع أية مساعدة تقدم منها لأنطاكية عند البدء بمهاجمتها.
- فرقة بقيادة السلطان نفسه وقد نزل بها أولاً على أفامية، ثم توجه إلى أنطاكية ونازلها محاصراً في الأول من شهر رمضان سنة ٦٦٦هـ/ ١٥ آيار ١٢٦٨م، وقد وافته الفرقتان السابقتان بعدما احدثتاه من تدمير وقتل وأسر في منطقة السويدية والدربساك[2].

وكان بوهمند أمير أنطاكية في طرابلس آنذاك، فتولى قيادة أنطاكية الكند اسطبل «سيمون مانسل»، وحدث أن كان سيمون هذا يقود جماعة من العساكر خارج المدينة في محاولة لمنع مهاجمتها، غير أنه وقع في أسر القوات الإسلامية، فلما احضر إلى السلطان «رأه (السلطان) رجلاً عاقلا، وسأل أن يدخل إلى أنطاكية ويتوسط لأهلها، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة لإقامة الحجة عند الله تعالى، فسير كند اسطبل من أحضر ولده وجعله رهينة، ودخل البلد وتحدث وخرج معه جماعة من القسيسين والرهبان وأقاموا يترددون ثلاثة أيام، فظهر منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس (الأمير بوهمند)»[3].

---

(١) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٠٠، شافع بن علي، حسن المناقب، ص١٢٦.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٦٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢٤٩.

(٣) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٠٧، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية جـ٣، ٥٥٨.

ولـمّا لم يصل السلطان معهم إلى نتيجة شرع بشن هجوم عام على جميع قطاعات أسوارها، وركز في هجومه على موضع من أسوارها بالقرب من القلعة وقبالة منحدر جبل سيلبيوس، في محاولة لاقتحام المدينة عبره، وأمام شدة ضرباته انهارت كل مقاومة للصليبيين[1]، وتمكن المجاهدون من اعتلاء الأسوار من الموضع الذي انتخبه السلطان، وتدفقوا إلى داخل المدينة في يوم السبت ٤ رمضان/ ١٨ أيار[2]. فهرب من استطاع من أهلها إلى القلعة، «وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر، وما رفع السيف عن رجل في المدينة وكان بها فوق المئة ألف نفر»[3] وأحاط الأمراء بأبواب المدينة حتى لا يفر منها أحد[4].

وأما القلعة فاجتمع فيها من المقاتلة الصليبيين ثمانية الآف سوى النساء والأطفال، ولـمّا لم يكن بالقلعة مياه ولا طواحين تكفيهم، فقد أنفذوا إلى السلطان «يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى، فأمنهم على ذلك، وتسلم القلعة منهم في اليوم التالي الأحد ٥رمضان/ ١٩ أيار من السنة ذاتها[5] ووجدأثناء تسلم القلعة جماعة من المسلمين الحلبيين أسرى لديهم، فأطلق سراحهم[6].

وكانت الغنائم لا تحصى لدرجة أن «قسمت النقود بالطاسات»،[7] أما الأسرى فكانوا أكثر من أربعين ألف أسير[8]، فأقام السلطان يومين وهو يباشر تقسيم الغنائم والأسرى بين قواته العسكرية[9]، ولم يجز إلاّ لعدد قليل من الأسرى من أثرياء المدينة

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٠٨، مفضل بن ابي الفضائل، النهج السديد، ١٧١ - ١٧٢.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٠٨، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٨ .

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣١٨، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٥٦٧.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٦٧.

(٥) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ٣٠٨.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٥٢، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة جـ٧، ص١٤٣.

(٧) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٢٤، مفضل بن ابي الفضائل، النهج السديد، ص١٧٢.

(٨) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٣.

(٩) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٢٤.

بافتداء أنفسهم بالمال ومنهم الكند اسطبل سيمون مانسيل[1]، ثم غادر المدينة بعد أن أمر بإحراقها، فأصبحت أثراً بعد عين[2].

وقد أحدث استعادة المسلمين لأنطاكية فزعاً كبيراً في قلوب الصليبيين المحيطين بها، فأرسلوا إلى السلطان يطلبون الأمان، فأمنهم وأرسل قوة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بيليك لتسلم حصونهم وهي: ديركوكش، شقيف كفردبين، شقيف كفر تلميس، فتسلمها منهم وعاد بهم أسرى إلى السلطان[3].

فلما رأى الداوية في حصن بغراس سقوط هذه الحصون، تركوا حصنهم فارين منه، فأرسل السلطان الأمير شمس الدين أقسنقر في قوة عسكرية فاستولى عليه[4].

وقد هال ذلك بطريرك قلعة القصير – وهو من نصارى بلاد الشام – وتخوف من أن يقوم السلطان بالاستيلاء على قلعته، فأرسل إليه يلتمس الموادعة على أن يتنازل له عن نصف البلاد التي تتبعه، فسمح له السلطان بالبقاء بها سبع سنوات على أنه من أتباعه، وكتب له هدنة بذلك[5].

ولم يبق من إمارة أنطاكية سوى مدينة اللاذقية التي ظلت معزولة في جيب صغير إلى أن تم فتحها على يد السلطان المنصور قلاوون فيما بعد[6].

أما أمير أنطاكية «بوهمند السادس» الذى كان قابعاً في طرابلس مركز إمارته الثاني، فقد كتب إليه السلطان الظاهر بيبرس يبشره بفتح أنطاكية ساخراً منه ومحتقراً إياه، ومن جملة ما قاله له: «وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر بكونك لم تكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما أسيرا وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٨ – ٥٥٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٢٤، مفضل بن ابي الفضائل، النهج السديد، ص١١٢، وليم موير، دولة المماليك في مصر ص٤٩.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض، ص٣٢٤ – ٣٢٥.
Khowaiter, op. cit, P101

(٤) ابن عبدالظاهر، العروض الزاهر، ص٣٢٥، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٥٢.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٢٥، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٠.

(٦) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٠.

الحي إذا شاهد الأموات»[1].

وبالاستيلاء على أنطاكية انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بأرمينية الصغرى، وتبددت فكرة التحالف بين أنطاكية وأرمينية والمغول[2].

وقبل أن يعود السلطان الظاهر بيبرس مزهواً بالنصر إلى دمشق عقد هدنة مع الملك هيثوم الأول ملك أرمينية نتج عنها ما يلي:

١- إطلاق سراح الأمير «ليو ابن الملك هيثوم» من الأسر، مقابل إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر من سجن أبغا بن هولاكو زعيم مغول فارس، وقد توسط في ذلك الملك هيثوم، وكان سنقر الأشقر قد وقع في أسر المغول عندما احتلوا حلب على عهد هولاكو.

٢- تنازل الملك هيثوم عن المناطق التالية للسلطان الظاهر وهي: بهسنا، الدربساك، مرزبان، رعيان، الزرب، شيح الحديد، وكانت كلها ضمن إقليم مرعش[3].

وبذلك سيطرت الدولة المملوكية - باستثناء بهسنا التي ماطل هيثوم في تسليمها في ذلك الحين - على مناطق لها أهميتها العسكرية بسبب تحكمها في الطريق بين الجزيرة الفراتية حيث المغول حلفاء هيثوم وأرمينية الصغرى[4].

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣١٢ - ٣١٣، القلقشندي، صبح الاعشى، جـ٨، ص٣٠٢.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٥٠.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٢٨، أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٥.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٤٨.

أوضاع الصليبيين في عكا
وتطور علاقة السلطان الظاهر بيبرس بهم

توفي الملك «هيو الثاني» ملك قبرص الوصي على عرش مملكة بيت المقدس (عكا) عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧، ولم يتجاوز من العمر أربعة عشر عاما، فخلفه على العرش الوصي «هيو لوزجنان» باسم هيو الثالث، الذي لم يلبث أن توج ملكاً على قبرص في العام ذاته.

وحدث في العام التالي أن أعدم الملك «كنرادين هوهنتشاوفن» في نابولي بناء على أوامر من شارل انجو ملك صقلية، بعد أن حاول عبثا أن يسترد منه ارثه في ايطاليا، وكان كنرادين الملك الأصيل لمملكة بيت المقدس، وبمقتله زال الفرع الأكبر للأسرة الحاكمة في بيت المقدس (عكا)، ولما كانت الأسرة الحاكمة في قبرص هي التي تلي أحقية ولاية عرش مملكة بيت المقدس، فقد توج هيو الثالث ملكاً على مملكة بيت المقدس إضافة إلى ملكه في قبرص عام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، (على الرغم من الخلافات التي حدثت بين الصليبيين قبيل ذلك حول أحقية عرش مملكة بيت المقدس)، وأضحى عليه أن يمضي إلى صور كي يتوج في كاتدرائيتها التي صارت منذ تحرير مدينة بيت المقدس من قبل السلطان صلاح الدين، الموضع التقليدي الذي يتوج فيه ملوك مملكة بيت المقدس[1].

على أن الملك هيو الثالث الذي وصل إلى عكا بعد تتويجه في صور آثر أن يتودد إلى السلطان الظاهر أملاً في عقد هدنة معه، وبعد أن توسط له أمير صور، أرسل وفداً إلى السلطان عقب عودته من أنطاكية «وحصل الاتفاق بين السلطان وبين هذا الملك على شيء يسير وهو مدينة عكا وبلادها، وهي إحدى وثلاثون ضيعة، وتقرر أن حيفا تكون للفرنج، ولها ثلاث ضياع، وبقية بلادها مناصفة، وبلاد الكرمل تكون مناصفة، وعثليث يكون لها خمس قرى، والباقي مناصفة، والقرين، عشر قرايا، والباقي للسلطان، وبلاد صيدا، الوطاة للفرنج، والجبليات للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرص»[2].

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٢ - ٥٦٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٣٢.

وتحدث المؤرخ ابن عبدالظاهر عن هذا الصلح بقوله: «هذا ما استقر عليه الحال في البلاد كلها، وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وأنها لا تنقض برجل غريبة، ولا ملك يحضر في البحر، واشترط عليه إطلاق رهائن البلاد، وتوجهتُ رسولاً أنا والأمير كمال الدين بن شيت لاستحلاف الملك، وسير السلطان معنا هديةً، عشرين نفراً من أسارى أنطاكية قسيسين ورهبانا، فدخلنا عكا في رابع وعشرين شوال، واحتفل بنا احتفالاً كثيراً، وكان السلطان قد وصّى بأن لا نتواضع له في جلوس ولا مخاطبة، فلما دخلنا إليه رأيناه على كرسيه هو والمقدمين، فلم نجلس إلى أن وضع لنا كرسي قبالته، ومد الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم نعطه حتى مد الملك يده وأخذه، وتوقف في أشياء منها أنه رغب في أن مملكة قبرص يكون لها صلح بمفردها، وأن الصلح يستقر ما لم تصل رجل غريبة أو أحد من ملوك البحر، وأن الإسماعيلية (الدعوة) لا يكون لها حديث في الهدنة، واستعفى من حديث الرهائن، وفصول أخر، وعادت رسل السلطان عنه، ولم يحلف وبقيت الأمور ساكنة»[1].

ويعود سبب عدم توقيع الملك هيو الثالث على هذه الهدنة إلى تخوفه من شارل الجو ملك صقلية الذى كان يتطلع لحكم بيت المقدس (عكا) بوصفه وريثا للإمبراطور «فردريك الثاني» الذى كان قد تسلم مدينة بيت المقدس من السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.

أما الملك شارل الجو هذا، فقد أرسل إلى السلطان الظاهر كتابا يوصية فيه بالصليبيين المتواجدين في المنطقة الساحلية ورفع السيف عنهم، فكتب السلطان إليه بقبول شفاعته فيهم، نظراً للعلاقة التي كانت تجمعه به[2].

على أن السلطان ما لبث أن عاد إلى شن هجماته العسكرية ضدهم سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وذلك أن الصليبيين في عكا قد أقدموا على تنصير أربعة من مماليك السلطان كانوا قد هربوا إليهم، كما فعل ذلك أيضا أمير صور، إذ نصّر مملوكا للسلطان كان قد هرب إليه كما نصّر فتاة مسلمة كانت أسيرة لديه، وعندما طالب السلطان بردّهم إليه رفض الصليبيون ذلك، وكان أن حضر رسل من جهتهم أنذاك يطلبون استمرار

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٣٢ - ٣٣٣،

(٢) م.ن، ص٣٣٦.

الهدنة، فأمر بتقييدهم، وكتب من فوره إلى نوابه بفسخ الهدنة مع الصليبيين في عكا وصور، وبناء على أوامره شن الأمير جمال الدين أقوش الشمسي على رأس قوة عسكرية هجوما على بعض معاقلها، كما شن السلطان بنفسه على رأس قوة عسكرية أخرى هجوما على المناطق المحيطة بصور، وأعطى أوامره إلى طائفة من جنده باستغلال بلاد صور وقطع الميرة عنها للتضييق عليها[1].

غير أن السلطان وإن كان قد اتخذ هذا الموقف مع أمير صور إلا أنه وفي الوقت ذاته كان شديد الحرص على عدم معاداة الصليبيين في آن واحد، فقد استقبل رسل ملكة بيروت «ايزابيلا دى ابلين» وكان طلبهم عقد هدنة معها فوافق على ذلك وعقد هدنة مع الملكة مدتها عشر سنين[2].

---

(١) م.ن، ص٣٤٦ - ٣٤٧، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٥٧٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٥٨، القلقشندي، صبح الاعشى، جـ١٤، ٣٩٥، انظر نص الهدنة في الملحق.

حملة ملك أراغون إلى عكا سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م

إزاء الهزائم المتلاحقة التي منى بها الصليبيون في بلاد الشام، تحرك ملك أراغون جيمس الأول على رأس أسطول قوي إلى الشرق، أملاً في انقاذ ما تبقى من معاقل الصليبيين، وكان في الوقت ذاته قد أرسل إلى أبغا بن هولاكو زعيم المغول بأنه قادم إليه من جهة سيس عاصمة مملكة أرمينية في سفن كثيرة لشن هجوم مشترك على ديار الإسلام، بيد أن الرياح تجرى بما لا تشتهي السفن، فقد صادفته عاصفة عاتية أثارت الرعب في قلبه فارتد خاسئاً إلى بلاده على رأس الشطر الأكبر من اسطوله، ولم يواصل الحملة إلاّ اسطول صغير قاده ولداه غير الشرعيين هما «فرناندو سانكيز وبدرو فرنانديز» فبلغا عكا في أوائل سنة ٦٦٨هـ/تشرين أول ١٢٦٩م[1].

وبهذه النجدة التي أتت إلى عكا توهم الصليبيون فيها أنهم قادرون على مواجهة القوات الإسلامية خارج أسوار عكا، فخيموا بظاهرها «وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم» وقادهم الغرور إلى شن غارة على نواحي الجليل بقيادة «اولفريترميس» الذى لم يدر بخلده أن السلطان الظاهر كان يرصد حركاته، مما أوقعه في كمين السلطان، وتناولتهم القوات الإسلامية قتلاً وأسراً، فلم يبق منهم على قيد الحياة ممن شارك في القتال إلاّ عدداً بالغ القلة، وبهذا الفشل الذريع، أبحر ولدا ملك أراغون عائدين إلى بلادهما[2].

أما السلطان الظاهر فقد تحرك على رأس خيار عسكره إلى جهة حصن المرقب، ولمّا كانت الأمطار والثلوج شديدة عدل عنه إلى حصن الأكراد، ثم ما لبث أن عاد أدراجه إلى القاهرة عندما ترامى إلى مسامعه خروج الملك الفرنسي لويس التاسع على رأس حملة صليبية جديدة إلى الشرق، وهي المعروفة بالحملة الثامنة، وقد توجه بها سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م إلى تونس، وهناك انتهى أمرها إلى الفشل بعد موت الملك لويس.

وكان السلطان الظاهر يخشى أن تتجه الحملة إلى مصر، ولذلك «اهتم بالثغور والشواني (السفن)، وفكر في جهة عسقلان وأن الملك الفرنسي ربما يقصدها ليعمرها

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٥١. Khowaiter, op. cit, P105.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٦٢ - ٣٦٤، رنسيمان، المصدر السابق، جـ٣، ص٥٦٧ - ٥٦٨.

وكان بها بقايا أسوار لا سيما قلعتها، فتوجه إليها بنفسه وهدمها[1].

فتح قلعة صافيتا:

وبفشل حملة لويس التاسع عاد السلطان على رأس جيشة إلى بلاد الشام لمواصلة جهاده ضد الصليبيين، فهاجم المناطق المحيطة بطرابلس وحرّر قلعة صافيتا بالأمان في شهر رجب ٦٦٩هـ/أذار ١٢٧١م، وسمح لمن كان بها من الداوية وعدتهم سبعمائة رجل عدا النساء والاطفال بالخروج من الحصن، فتوجهوا إلى انطرطوس[2].

كما استولى على الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، بالأمان أيضا، كحصن المجدل وتل خليفة وغيره من الحصون الأخرى المنتشرة هناك[3].

فتح حصن الأكراد:

ثم توجه السلطان بقواته إلى حصن الأكراد فنازله واستولى على بعض أرباضه، وبتكامل نصب المجانيق حوله، شرع بمهاجمته، وتمكن من فتحه عنوة بالسيف في ١٦ شعبان ٦٦٩هـ/أذار ١٢٧١، فخرج الصليبيون إلى التلة المقابلة له، فاعمل السلطان الحيلة لإجبارهم على الاستسلام، إذ كتب «كتابا على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالتلة يأمرهم بالتسليم» وقد نجحت هذه الحيلة، فقد طلبوا الأمان من السلطان، فأمنهم وسمح لهم بالخروج، فتوجهوا إلى طرابلس، وتسلم السلطان الظاهر الحصن في ٢٤ شعبان/٧نيسان من السنة ذاتها[4] وأمر بعمارة البلد، وجَعَل كنيسته جامعاً وأقام فيه الجمعة، وولىّ فيها نائباً وقاضيا[5].

وقد جاء فتح هذا الحصن ليدعم مركز المسلمين في مواجهة الصليبيين فقد،

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٧٠، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٥٨٥ - ٥٩٠ .
King; Op. Cit,p 270

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٧٥، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٥٩، المقريزي، السلوك، جـ١ ،ص٥٩٠، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٧١ .

(٣) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٧٥، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٥٠.

(٤) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٧٥ - ٣٧٦، المقريزي، السلوك، جـ١، ص١٩١، ابو المحاسن، المصدر السابق، جـ٧، ص١٥١.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٥٩

اتخذه السلطان قاعدة لعملياته الحربية ضد إمارة طرابلس[1].

وقد أفزع هذا الفتح صاحب انطرطوس، وهو مقدم بيت الداوية، فأرسل إلى السلطان طالباً المهادنة، وتعبيراً عن مصداقيته في ذلك، بعث إليه بمفاتيح مدينته، فصالحه السلطان على الأسس التالية:

١- استرجاع جميع ما أخذه الداوية من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية، (الناصر صلاح الدين).

٢- ترك جميع ما للداوية من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.

٣- يكون للسلطان نصف محاصيل إنطرطوس.

٤- يعين السلطان نائباً عنه في إنطرطوس[2].

وقد شجع هذا الصلح صاحب حصن المرقب وقلعة لد وهو مقدم بيت الإسبتار، فطلب عقد هدنة مع السلطان، فعقد السلطان معه هدنة أولها مستهل شهر رمضان ولمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على الأسس التالية:

١- استرجاع جميع ما أخذه الإسبتار من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية.

٢- ترك جميع ما للإسبتار من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.

٣- تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين الإسبتار.

٤- عدم تجديد عمارة بحصن المرقب[3].

فتح حصن عكار:

ثم توجه السلطان الظاهر بقواته العسكرية في ١٧ رمضان ٦٦٩هـ/ أواسط نيسان ١٢٧٢م إلى حصن عكار الذى كان يمتاز بموقعه الحصين في جبال صعبة المرتقى، وكان يشكل ضرراً بالغاً على المسلمين فحاصره ونصب عليه المجانيق، وبعد قتال شديد طلب الصليبيون الإسبتارية الذين كانوا فيه الأمان في ٢٩رمضان/أوائل أيار على أن

---

(١) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٦٨. King. op. Cit, p271.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٧٨ - ٣٧٩، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٩١ - ٥٩٢، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١٥٤ - ١٥٥، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٥١.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٧٩، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٤٢، انظر نص الهدنة في الملحق.

يمكنهم السلطان من التوجه سالمين إلى طرابلس، فأجابهم وسمح لهم بالرحيل، فدخلته القوات الإسلامية، وبعد أن صلى السلطان به صلاة العيد رحل عنه ونزل ببرج صافيتا، وكتبت البشائر إلى البلاد الإسلامية بما فتح الله به[1]، كما كتب إلى أمير طرابلس بوهمند السادس مبشراً إياه بهذا الفتح تحطيماً لمعنوياته وتحذيراً له بسبب تحالفه مع أبغا بن هولاكو زعيم المغول، ومما جاء في هذا الكتاب «قد علم القومص بيمند - جعله الله ممن ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه - نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها من جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في صبرها على مناكدة الأوحال، ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل أذا مشى، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان عيّر حبالها رشا، وكيف صابرت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، حسنت بهم استعانة نائبك الذى انتخى بهم، وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس عوضه «الله أكبر» ومن بقي من رجالك اطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح، واطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى،... ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلاّ القليل، وأنهم ما تركونا إلاّ على رحيل، فنعرّف كنائسك واسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب، وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول أنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعا، ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلاّ كما عافت شرب دمائهم، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عسكر يعلم القومص هذه الجملة المسرودة، ويعمل بها، وإلاّ فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده»[2].

كما أرسل له رسلة مشافهة على لسان رجل من فرقة الإسبتارية يقول فيها،

---

(١) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٧٩ - ٣٨٠، المقريزى، المصدر السابق، جـ١، ص٥٩٢، ابن ايبك الدواداري، المصدر السابق، ص١١٥، ابو المحاسن، المصدر السابق، جـ٧، ص١٥١ - ١٥٢، اليافعي، مرآة الجنان جـ٤، ص١٧٠

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٠ - ٣٨١، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ١٥٦.

«أين تروح مني والله لا بد أن أخذ قلبك وأشويه، وأنت تنظر، وما ينفعك أبغا بن هلاوون»، فلما بلغته هذه الرسالة، أخذ يحترس على نفسه، «ولا عاد يركب ولا يصيد خوفاً على نفسه من الإسماعيلية (أن تغتاله بأمر السلطان) وكان يحب الركوب للصيد، فامتنع من ذلك، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك، سيّر إليه غزلان مذبوحة وضبعاً حياً، وحمل ثلج ورسالة يقول له فيها: «لما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرامك، بعثنا إليك نصيبا من الإجحاف بك والميل عليك»[1].

وقد أتبع السلطان ذلك بالتحرك على رأس جيشه صوب طرابلس ونزل عليها في ١شوال/أيار من السنة ذاتها، فما كان من بوهمند إلاّ أن أرسل إلى السلطان يستعطفه ويسأله الصلح، فبعث إليه السلطان الأمير فارس الدين الاتابك والأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي لمفاوضته على الأسس التالية:

١- يكون للسلطان من أعمال طرابلس نصف بالسوية.
٢- يكون للسلطان دار وكالة وزكاة ونائب ومشد وديوان في طرابلس.
٣- يسلم للسلطان جبلة واللاذقية بخراجهما من يوم خروجهما عن الملك الناصر صلاح الدين إلى يوم تاريخة.
٤- يدفع للسلطان نفقات العساكر الإسلامية من يوم خروجه.

صعق بوهمند لهذه المطالب، فأباها وآثر القتال، وأخذ يحصن طرابلس، فرد عليه السلطان بنصب المجانيق حول أسوارها تمهيداً لاقتحامها[2]، إلاّ أنه تراجع عن عزمه بسبب قدوم الأمير ادوارد على رأس حملة بحرية إلى عكا في ذلك الوقت، فضلاً عن قدوم الملك هيو الثالث ملك قبرص على رأس قوة بحرية ونزوله في عكا أيضاً، وقبل بعقد صلح مع بوهمند بشورط أقل حدة من الشروط السابقة، وقد نص الاتفاق الجديد على ما يلي:

١- تكون عرقة وجبلة وأعمالها للأمير بوهمند، مع التأكيد بأن عرقة وأعمالها وهي٥٦ قرية صدقة من السلطان.

---

(١) ابن ايبك الدواداري، المصدر نفسه، ص١٥٧ - ١٥٨.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٥٢، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٦، ١٩٨٥.

٢- يكون ساحل انطرطوس والمرقب وبانياس وبلاد هذه النواحي مناصفات بين السطان وبين فرقتي الداوية والإسبتارية.

٣- تؤول بعرين وحمص القديمة خالصة للسلطان.

٤- مدة الصلح بينهما عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

على أن بوهمند الذى قبل بهذا الصلح مرغماً بسبب الزحف المستمر للقوات الإسلامية على إمارته، استغل هذه الهدنة فتوجه إلى أبغا بن هولاكو زعيم المغول يستصرخه على المسلمين ويذكر له ما فتحه السلطان الظاهر من القلاع والحصون، إلاّ أن أبغا لم يستجب له وصاح به قائلا: «أنت ما جئت إلاّ لتخوفني منه وتنفرني عنه، وتملأ قلوب عسكري رعباً»[1].

أما السلطان الظاهر فقد توجه بعد عقد تلك الهدنة إلى قلعة العليقة، فتسلمها من الإسماعيلية مع البلاد التابعة لها في شهر شوال/أيار من السنة ذاتها[2].

محاولة غزو جزيرة قبرص:

على أثر قدوم هيو الثالث ملك قبرص إلى عكا اغتنم السلطان الظاهر هذه الفرصة فوجه إلى قبرص أسطولاً مؤلفاً من سبع عشرة سفينة، تولى قيادتها جمال الدين مكي بن حسون ومعه الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس دار الصناعة بالفسطاط، وشهاب الدين ابراهيم بن عبدالسلام رئيس دار الصناعة بالاسكندرية، وشرف الدين علوس ابن أبي المحبة بن علوي العسقلاني رئيس دار الصناعة بدمياط، ولجأ ابن حسون إلى الخديعة، إذ طلى السفن باللون الأسود ورفع فوقها أعلاماً عليها صلبان، كالسفن الصليبية، حتى إذا دخلت هذه السفن موانئ الصليبيين يعتقدونها لهم، فيتم الانقضاض عليهم على حين غرة، وقد انطلقت السفن على هذه الصورة، وعندما اقتربت من مناء ليماسول القبرصي هبت عليها ريح عاتية أدت إلى تحطيم احدى عشرة سفينه منها، مما أوقع بحارتها في أيدي القبارصة، وكانوا زهاء ألف

---

(١) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، ص١٩٢ - ١٩٥، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١٦٠.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٤، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٥٩٣.

وثمانمائة نفس، أما بقية قطع الاسطول، فقد عادت دون تحقيق هدفها[1].

وقد شمت هيو الثالث ملك قبرص بما حدث للسفن الإسلامية، وأرسل إلى السلطان بيبرس يخبره بانكسارها وأمر رجالها، غير أن السلطان لم يجزع لذلك، بل قال: «الحمد لله مذ ملكني الله الملك ما خُذلت لي رايةٌ، وكنت اخاف من أصابة عين، بهذا ولا بغيره»[2].

فتح حصن القرين:

توجه السلطان الظاهر بعد أن تسلم قلعة العليقة صوب حصن القرين، وكان من الحصون المنيعة التي احتفظ بها الفرسان الإسبتارية حتى ذلك الحين، وقد نازله السلطان ضارباً الحصار حوله، وفي أثناء نصب المجانيق تمهيداً لقصفه ورد عليه رسولان للصليبيين أحدهما من قبل أمير طرابلس وكان طلبه أن يرحل السلطان عن حصن القرين، إلاّ أن السلطان رفض ذلك، أما الرسول الآخر فكان من قبل ملك قبرص الذى كان في عكا في ذلك الوقت، وكان طلبه أن يتنازل له السلطان عن بعلبك ونابلس، فسخر السلطان منه قائلاً له «صاحبك في عقله أم لا، أنا باخذ منكم حصونكم أول بأول، تطلب مني بلادى»، ثم صرفة من بين يديه[3].

وشرع السلطان في هجومه على الحصن، واستولى على ربضه، وتحت وطأة ضرباته الشديدة، طلب الصليبيون الأمان، فأمنهم وأنزلهم من الحصن وأركبهم الجمال إلى عكا، ثم دخلته القوات الإسلامية وذلك في ١٣ ذي العقدة ٦٦٩هـ/١٣ أيار ١٢٧١م، وقد أمر السلطان بهدمه، فهدم[4].

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٦ - ٣٨٧. ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص١٦٢، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٥٩٣، المرعظ والاعتبار، جـ٢، ص١٩٤، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٥٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٧٨، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٧٩٤.

(٣) ابن ايبك الدواداري، الزكية، ص١٦١ - ١٦٢.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٦، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية ص١٦٢، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٥٩٣، الكتبي، عيون التواريخ، جـ٢٠، ص٤٠٣، ، فضل بن ابي الفضائل، النهج السديد، ص١٩٨ - ١٩٩، Khowaiter, op. Cit, p112.

وقد استغل السلطان الظاهر هذا الفتح فرد على ملك قبرص مبشراً إياه بتهكم قائلاً له: «... وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدة من شوانينا وصار بذلك يتبجح ويه يفرح، ونحن الأن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتمليك القرين من البشارة بما كفى الله به ملكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالإستيلاء على حديد وخشب، الإستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب... وأين من اتكل على الله وسيفه، كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهواء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح ..»[1].

وقبل أن يغادر السلطان إلى القاهرة قدم عليه رسل أمير صور يطلبون عقد الصلح، فوافق السلطان على أن يكون له خمس بلاد يختارها من البلاد التابعة لها، ويكون لأمير صور عشر بلاد، بينما تكون بقية البلاد مناصفة بينهما، وتم الصلح على هذه الأسس[2].

حملة الأمير إدوارد ولي عهد انجلترا إلى عكا سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م.

كان الملك الإنجليزي هنري الثالث قد عزم على المشاركة في حملة صليبية تتجه نحو الشرق، ولما كان رجلاً كهلاً فقد شجع ابنه وولي عهده الأمير إدوارد على القيام بهذه المهمة عوضا عنه، فأبحر هذا الأمير من انجلترا في صيف عام ١٢٧١م على رأس حملة مؤلفة من ألف رجل، ثم تبعه بإمداد بعد بضعة أشهر أخوه أدموند دوق لانكستر وكان إدوارد ينوي اللحاق بالملك الفرنسي لويس التاسع في تونس، والإقلاع معاً إلى الأرض المقدسة، غير أنه لما وصل إلى افريقية تبين له أن الملك لويس قد مات وأن الفرنسيين يوشكون على العودة إلى فرنسا، فأمضى فصل الشتاء في صقلية ثم أبحر في الربيع إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا ووصل في أواخر سنة ٦٦٩هـ/١٩ أيار ١٢٧١م[3] ثم تبعه الملك القبرصي هيو الثالث وأمير طرابلس بوهمند السادس، ولم يكد إدوارد يبلغ عكا حتى أنفذ سفارة إلى أبغا بن هولاكو زعيم المغول للتحالف معاً

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٧ - ٣٨٨، مفضل بن ابي الفضائل، النهج السديد، ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ابن عبدالظاهر، المصدر نفسه، ص٣٨٩، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٩٥.

(٣) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٧٣ - ٥٧٤، King, op, cit, P268

ضد المماليك، وتنفيذاً لذلك فقد هاجم المغول الحدود الشمالية لبلاد الشام بينما هاجم الصليبيون بقيادة إدوارد منطقة الشاغور والبعنة في شمال فلسطين، فنهبوا الغلال وأحرقوا بعضها كما هاجموا منطقة قاقون في السنة التالية ٦٧٠هـ/١٢٧٢م وأسروا طائفة من التركمان ممن كانوا يقطنونها، وهاجموا كذلك منطقة القرين بالقرب من عكا[1].

ازاء تلك الإعتداءات السافرة تحرك السلطان الظاهر على رأس جيشه من دمشق بعد أن كان قد وصلها في وقت سابق لمهاجمة عكا، ولكنه عندما وصل إلى مرج برغوت بالقرب منها عدل عن مهاجمتها بسبب شدة هطول الامطار، فرد العسكر الشامي وعاد إلى القاهرة، ولكنه ما لبث أن عاد إليها في السنة ذاتها ٦٧٠هـ/١٢٧٢م وشرع في الهجوم عليها.

أما الأمير إدوارد فبعد أن تأكد له استحالة تحقيق نصر عسكر على القوات الإسلامية، فقد آثر اللجوء إلى مفاوضة السلطان الظاهر، وقد توسط في ذلك شارل انجو ملك صقلية الذى كان على علاقة طيبة مع السلطان، غير أن إدوارد لم يصل إلى ما يرضيه في مفاوضاته معه، ولذلك لم يشارك في التوقيع على عقد الهدنة التي تمت بين السلطان وحكومة عكا، وكانت مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها ٢١رمضان ٦٧٠هـ/٢٢ أيار ١١٧٢م[2].

وقد بلغ من صلف الأمير إدوارد أن وضع نصب عينيه القدوم مرة أخرى إلى الشرق على رأس حملة صليبية جديدة، تكون أكثر عدة وقدرة لمواجهة القوات الإسلامية، ولقد أدرك السلطان الظاهر ما كان ينويه، ولذلك قرر التخلص منه، وتولى هذا، الأمير غرس الدين بن شاور والي الرملة، فسير أحد الحشيشية إلى عكا وطعنه بخنجر مسموم، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة، بيد أنها كانت كافية لثنيه عن عزمه في محاولة الكرة مرة أخرى، إذ بعد أن غادر عكا على أثر شفائه في السنة ذاتها، لم يعد إلى المنطقة وبخاصة بعد أن أصبح ملكاً على انجلترا[3].

---

(١) ابن عبدالظاهر، المصدر نفسه، ص٣٩٠، ٣٩٦، ٢٩٧، اليونيني، ذيل مرأة الزمان، جـ٢، ص٤٦٨.

(٢) ابن شداد الحلبي، تاريخ الملك الظاهر، ص٣٣.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٠١.

أما الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر مع حكومة عكا، فقد أعطته الفرصة لمواجهة هجمات المغول ومملكة أرمينية الصغرى، التي اشتدت على الحدود الشمالية لبلاد الشام، وعلى الرغم من أن عملياته الحربية ضد الصليبيين في الساحل الشامي قد توقفت عند ذلك التاريخ (٦٧٠هـ/١٢٧٢م)، فقد استمر في مناورتهم سياسياً ليشعرهم بتأهبه للانقضاض عليهم في أية لحظة، كما أن الصليبيين أنفسهم ظلوا يتوددون إليه بعد أن خبروا عزيمته القتالية التي لا تفتر، ومثال ذلك أن الأمير بوهمند السابع الذى تولى إمارة طرابلس بعد وفاة والده بوهمند السادس، تقدم إلى السلطان بتجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع والده بحكم وفاته، فوافق السلطان على أن يدفع الأمير بوهمند السابع مبلغاً قدره عشرون الف دينار صورية كل سنة، ويرد إليه عشرين أسيراً، فقبل بوهمند ذلك، وعقدت الهدنة بينهما في المحرم سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م[١].

تطور أوضاع الصليبيين في عكا بعد عقد الهدنة الأخيرة

ظل الملك هيو الثالث ملك قبرص ومملكة بيت المقدس (عكا)، يعمل جاهداً لإزالة الخلافات التي وقعت بين الجماعات والهيئات الصليبية في عكا، في أعقاب مغادرة الأمير إدوارد، غير أن بذور الانحلال كانت أقوى من مجرد أسباب سطحية يمكن ازالتها بسهولة، وأخذ هيو نفسه يفقد السيطرة على الأمور في عكا وبخاصة بعد وقوف رئيس فرقة الداوية «غليوم دى بوجيه» ضده، كما فقد سيطرته على بيروت أكبر إقطاع له بالساحل الشامي، وذلك عندما تزوجت أميرتها «ايزابيلا» من المدعو هامو أحد رفاق الأمير إدوارد، ولمّا كان هامو هذا لا يثق بالملك هيو الثالث فقد جعل زوجته ايزابيلا واقطاعها (بيروت) في حماية السلطان الظاهر بيبرس، وعندما توفي هامو سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م، حاول الملك هيو نقل الأميرة ايزابيلا إلى قبرص ليزوجها من رجل يختاره لها[٢] غير أن السلطان الظاهر اعترض على ذلك بحكم أنها في حمايته، وكتب

---

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص٤٠، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٦١٩.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٨٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٥٩، سعيد برجاوى، الحروب الصليبية في المشرق، ص٦٢٥.

إلى الملك هيو قائلاً: «هذه الملكة بيني وبينها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها، وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً ولا بد من حضورها، وأن تتوجه رسلي وتشاهدها، وإلاّ أنا أحق ببلادها»[1].

إزاء هذا التهديد وفضلاً عن عدم تأييد المحكمة العليا في عكا لما قام به الملك هيو، أضحى لزاماً عليه أن يعيد الأميرة ايزابيلا إلى بيروت حيث استقر حرس المماليك لحمايتها[2]

وبفقدان سيطرة الملك هيو على الوضع في عكا، غادرها عائداً إلى قبرص سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م دون أن يعين نائباً عنه لحكمها، وقد انتهز شارل انجو أمير صقلية هذه الفرصة واتخذ لنفسه لقلب ملك بيت المقدس، وأرسل نائباً عنه إلى عكا على رأس أسطول صغير في العام التالي ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، وكانت الصدمة قوية على الملك هيو، فقصد صور على رأس قوة بحرية كبيرة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، في محاولة منه لإسترداد مملكته، إلاّ أن وقوف فرقة الداوية في طريقه جعله يرتد خاسراً إلى قبرص، وحاول الكرة مرة اخرى عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣، ولكنه توفي في صور في العام التالي دون تحقيق ما كان يصبو إليه[3].

مهاجمة مملكة أرمينية الصغرى للمرة الثانية:

لم تلتزم مملكة أرمينية الصغرى بنصوص الهدنة التي عقدت بين ملكها هيثوم الأول والسلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م، فقد هاجم أهل قلعة كينوك - وهي قلعة الحدث الحمراء إحدى قلاع مملكة أرمينية الحدودية مع بلاد الشام- التجار المسافرين المسلمين، وكتب إلى ملكها ليو الثالث - تولى الحكم بعد اعتزال أبيه هيثوم - بذلك: «فلم يفد فيه الكتابة» بل استمرت اعتداءاتهم على المسلمين، إذ كانت جماعات منهم تخرج متنكرة بزي المغول وتهاجم القوافل الإسلامية، إزاء ذلك جرد

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٤٧.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٨٧.

(٣) م.ن، جـ٣، ص٥٩١ - ٥٩٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٦٠، سعيدبرجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ٦٢٦. king. op. Cit, p268.

الأمير حسام الدين العين تابي مقدم عسكر حلب قوة عسكرية إلى قلعة كينوك في أوائل المحرم ٦٧٢هـ/١٢٧٤م، وقد نجحت هذه القوة في فتح القلعة وقتل رجالها وسبي نسائها، ثم واصلت إغارتها حتى أطراف طرطوس، فنهبت وسبت ثم عادت إلى حلب، وقد شجع ذلك الأمير حسام الدين فخرج بنفسه في العام ذاته على رأس قواته وأغار على بلاد سيس عاصمة أرمينية فحاز على غنائم كثيرة ثم عاد إلى حلب[١].

غير أن هذه العمليات لم تردع ملك أرمينية، فاستمر مخالفاً لنصوص الهدنة المعقودة بين أبية والسلطان، فتحرك السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشة سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٥م صوب مملكة أرمينية للإغارة عليها وتأديب ملكها الذى استمر على غيه، فهاجم المصيصة والعاصمة سيس وأذنه وطرسوس واياس.وبعث في البحر عسكراً فأخذ وقتل من كان فيها، وانبثت الغارات في الجبال فقتلوا وأسروا وغنموا»، وقضى السلطان عيد الفطر بمدينة سيس العاصمة وقبل أن يغادرها بالغنائم والأسرى أمر بالمدينة فاحرقت، كل ذلك دون أن يجرؤ الملك ليو الثالث الذى كان قابعاً في قلعته على الوقوف في وجهه[٢].

وعندما عاد السلطان الظاهر جرّد الأمير سيف الدين الدوادار إلى حصن القصير لمهاجمته، فأسر نائبه «جيوم كليام»، غير أنه لم يفلح في اقتحامه، فأمر السلطان بالاستمرار في حصاره حتى يفتح، وقد تم ذلك في أواخر شهر جمادى الأولى ٧٦٤هـ/١٢٧٦م، حين طلب من فيه من النصارى الأمان والتسليم، فتسلمته القوات الإسلامية منهم[٣].

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٤١٧.

(٢) م.ن، ص٤٣١ - ٤٣٨، المقريزى، السلوك، جـ١، ص٦١٧ - ٦١٨.

(٣) ابن عبدالظاهر، المصدر نفسه، ص٤٤٣ - ٤٤٤.

الفصل الرابع

مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين
في عهد السلطان المنصور قلاوون

بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس في دمشق سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م. نودي بابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة سلطانا بإجماع كبار أمراء المماليك واستمر في الحكم حتى تم عزله عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وأقيم مكانه أخوه الملك العادل بدر الدين سلامش، وكان له من العمر سبع سنين، كما أقيم الأمير سيف الدين قلاوون، أتابكا على العساكر ووصيا عليه، بيد أن الأمير قلاوون سرعان ماخلعه قبل أن يمضي في السلطنة ثلاثة أشهر وتولى سدة الحكم وتلقب بالسلطان الملك المنصور.[١]

وقد تعرض قلاوون في اوائل حكمه لثورة قادها الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق، استهدف من خلالها الانفصال ببلاد الشام عن مصر، وقد نجح قلاوون في القضاء عليها وهزيمة الأشقر، الذي فرّ إلى قلعة صهيون في شمال الشام، ومن هناك أخذ يستنجد بالمغول ضد السلطان قلاوون، فقد كتب إلى أبغا بن هولاكو يحثه على قصد البلاد الشامية بجيوشه لأخذها، ووعده بمساعدته في تحقيق ذلك.[٢]

ولـمّا كان أبغا بن هولاكو تواقا لذلك، فقد دفع بقوة عسكرية إلى شمال الشام سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م احتلت عينتاب وبغراس ودربساك وحلب لبعض الوقت، ثم انسحب منها بعدما أحدثته فيها من تدمير وتخريب، وكان ممّا عجّل بانسحابها تراجع الأمير سنقر الأشقر عن موقفه ووقوفه إلى جانب السلطان قلاوون.[٣]

كما استغل الصليبيون فرصة تردّي الأوضاع في بلاد الشام بسبب ثورة الأشقر فقاموا بمحاولة لإعادة احتلال حصن الأكراد، غير أنهم فشلوا، وفي طريق عودة قوتهم

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٥٦-١٥٨، المقريزي، السلوك،جـ١، ص٦٤٢، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٩٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٦٧-٦٨.

(٣) م.ن، ص٧٦-٧٧، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٩٩.

انقضّت عليها قوة إسلامية عند صافيتا وأنزلت بها خسائر كبيرة في أواسط سنة ٦٧٩هـ/ أواخر ١٢٨٠م.[١]

وكان السلطان المنصور قلاوون قد خرج على رأس جيشه من مصر لمواجهة المغول وعندما وصل إلى غزة بلغه انسحابهم من شمال الشام فعاد إلى مصر.[٢] أما الصليبيون فقد جردّ السلطان أولاً قوة عسكرية على رأسها الأمير علاء الدين البندقداري إلى الساحل الشامي لحفظ البلاد منهم، ثم أعطى أوامره في أواخر عام ٦٧٩هـ/ مطلع ١٢٨١م إلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بحصن الأكراد لمهاجمة فرقة الاسبتارية في حصن المرقب، فجمع الطباخي جيوش الحصون الإسلامية وأمراء التركمان والرجالة واستصحب معه المجانيق وآلات الحصار وتوجه إلى حصن المرقب، وباكتمال حصاره ونصب المجانيق حوله شرع بمهاجمته، ولمّا لم يحرك الاسبتارية ساكناً قوي طمع القوات الإسلاميه فيهم وتقدمت إلى جانت الحصن، عندئذ رشقتهم الاسبتارية بالسهام، في حين كانت سهام المسلمين لا تصل إليهم بسبب علو الحصن ومنعة تحصيناته، وقد أحدث ذلك اضطراباً كبيراً في صفوف القوات الإسلامية، وحاول الطباخي السيطرة على الموقف عندما أمر الجند بالابتعاد عن الحصن، فظنوها هزيمة وولوا الأدبار، فما أمكنه إلاّ أن تبعهم، وخرج الاسبتارية في أعقابهم ونهبوهم وقتلوا وجرحوا وأسروا عدداً كبيراً منهم.[٣] «وبلغ مجموع من قتل من المسلمين في هذه الواقعة مائتي فارس وراجل».[٤]

ونتيجة لهذه الهزيمة فقد سعى السلطان إلى تفرقة أعدائه من صليبيين ومغول ليتمكن من منازلة كلّ منهم على حدة، في الوقت الذي يمنعهم فيه من الاستعانة بالغرب الأوروبي، ولتحقيق ذلك اتبع نهج السطان الظاهر بيبرس في عقد معاهدات مع الغرب الأوروبي، والميل إلى عقد مهادنات مع الصليبيين على جبهة ومهاجمتهم على جبهة أخرى، فجدد الاتفاقيات والمعاهدات السابقة مع مغول القفجاق والإمبراطورية البيزنطية وقشتالة وصقلية وجمهورية جنوا، فضلاً عن الإمبراطور الغربي رودلف

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٦٥-١١٦٦. King, op. cit,p 282

(٢) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٧٨.

(٣) م.ن، ص٨٠.

(٤) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص٣٢١.

هابسبورج.[1]

كما أن الفرصة قد جاءت من الصليبيين لعقد مهادنات معهم، فحين وصل بجيشه إلى منزلة الروحاء بالقرب من حيفا، أسرع اسبتارية عكا بانفاذ رسلهم إليه يسألونه تجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م والزيادة عليها، وبعد مفاوضات سياسية عقد السلطان المنصور قلاوون هدنةً معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها ١٠محرم ٦٨٠هـ/٣ أيار ١٢٨١).[2]

وعقد هدنة أخرى في وقت لاحق مع بوهمند السابع أمير طرابلس مدتها عشر سنين أولها ٢٧ربيع الأول ٦٨٠هـ/١٦تموز ١٢٨١م.[3]

ولم يكن الصليبيون يؤثرون مسالمة السلطان فقط، بل أظهروا الود له أيضا وذلك عندما كتبوا له عن مؤامرة دبرها الأمير كوندك (أحد أمراء السلطان) الذي اتصل بهم في عكا وطلب منهم ألاّ يصالحوا السلطان، مما ساعده على القضاء على هذه المؤامرة قبل استفحالها.[4]

وبعقد هاتين الهدنتين أمن السلطان المنصور جانب الصليبيين، فتمكن من مواجهة المغول وهزيمتهم في موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م.[5] وقد أدهش انتصاره هذا الصليبيين في عكا، فلم يسع سان سفرينو نائب شارل أنجو في عكا إلاّ أن خرج لاستقباله وتهنئته بهذا الانتصار.[6] وقد عزز هذا مهابة السلطان في قلوب الصليبيين،

---

(١) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص٦٦-٦٧.

(٢) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام العصور، ص٨٢ ،بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، مخطوط، ورقة ١٢٤

(٣) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ١٢٤-١٢٦

ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٧٧، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص٢٠٥-٢٠٦، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٦٨٥، (انظر نص الهدنة في الملحق).
Holt, Qalawun's, Treaty with Acre in 1283,P802.

(٤) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٢٤٠، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٦٨٥-٦٨٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص١٤.

(٦) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٦٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٦٧-١١٦٨.

فتقدم الداوية في عكا والساحل وانطرطوس بطلب عقد هدنه معه، فوافق على ذلك- لخشيته من المغول الذين ظلوا يعملون على اجتياح بلاد الشام بالرغم من هزيمتهم في حمص- وعقد هدنة معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر أولها ٥ محرم ٦٨١هـ/ ١٥نيسان ١٢٨٢م، واعقبها في العام التالي عقد هدنة اخرى عامّة مع حكام عكا وصيدا وعثليث مدتها عشر سنين وعشرة أشهر أولها ٥ربيع الأول ٦٨٣هـ/ ٣ حزيران ١٢٨٣م.[١] وقد استبعدت فيها صور وبيروت[٢].

وواصل السلطان المنصور سياسة سلفه السلطان الظاهر في استمرار الهجوم على مملكة أرمينية بسبب موقفها العدائي من المسلمين وتحالفها مع المغول،فجرد سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م قوات عسكرية أغارت على بلادها ووصلت إلى مدينة إياس فقتلت ونهبت وأحرقت، ثم دخلت في معركة مع الأرمن عند باب اسكندرونة فهزمتهم ولاحقتهم حتى تل حمدون ثم عادت محمّلةً بالغنائم.[٣]

فتح حصن المرقب:

أخذ السلطان المنصور يتحين الفرصة للانقضاض على معاقل الصليبيين وبخاصة بعد ضعف خطر المغول، ولذلك ما أن عاد الاسبتارية في حصن المرقب إلى الاعتداء على المسلمين ومضايقتهم حتى شرع بالتحرك على رأس جيشه إلى بلاد الشام سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م لتحرير هذا الحصن، فوصل أولا إلى دمشق، وبعد أن استكمل تجهيزاته تحرك بسرية تامة دون أن يعلم أحد بوجهته، وقد نازله في ١٠صفر/ ١٧ نيسان من العام المذكور، وباكتمال نصب المجانيق حوله، بدأ بقصفه من جميع الجهات، وبالرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها الصليبيون، إلاّ أن السلطان أصرّ على اقتحام الحصن، فشدد المجاهدون من ضرباتهم حتى أجبروا الصليبيين على طلب الأمان، فأمنهم السلطان وسمح لهم بمغادرة الحصن دون حمل مال أو سلاح يتعلق بالحصن خاصة،

---

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، جـ٢٠، ٣٤ (انظر نص الهدنة في الملحق).

- كان قد تولى نائبا عن الملك شارل الجو في عكا في ذلك الحين اودو بولشيان الذي حل محل سان سفرينو (رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٦٤-٦٦٥).

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٦٥. Holt, op. cit,p 802.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧١٦.

فغادروا الحصن بأموالهم الخاصة إلى انطرطوس في حماية عسكرية من السلطان، ثم اتجهوا إلى طرابلس، ودخل السلطان القلعة في ١٩ ربيع الأول / ٢٥ أيار من السنة ذاتها[١]، ثم استولى على جميع الأعمال التابعة للحصن مثل بلنياس ومرقية.[٢]

ونظرا لمناعة حصن المرقب وأهميته العسكرية فقد أمر السلطان بالإبقاء عليه، ورتب فيه ألف راجل من فرق الجيش وعددا من الأمراء أصحاب الطبلخانات وخمسين من المماليك البحرية، فضلا عن أربعمائة من أرباب الصنائع، كما زوده بأصناف عديدة من الأسلحة.[٣]

وكان قد ورد على السلطان في أثناء حصاره لهذا الحصن رسول من جهة ملك أرمينية ليو الثالث يطلب عقد هدنة معه مقابل جزية يحملها إليه كل سنة، وكان هذا الملك يكاسر في تسليم بهسنا إلى السلطان ويعتذر بأعذار كثيرة، وكانت بهسنا إحدى المدن المتفق على تسليمها للدولة الإسلامية في الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع الملك هيثوم الأول والد ليو عام (٦٦٦هـ/١٢٦٨م).

وبعد مداولات مع رسول الملك ليو عقد السلطان المنصور هدنة معه مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات أولها يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر ٦٨٤هـ/ ٧ حزيران ١٢٨٥م وأهم ما جاء فيها:

١. يحمل الملك ليو إلى السلطان المنصور قلاوون في كل سنة ألف ألف درهم قطيعة من دراهم وأصناف طيلة مدة الهدنة.
٢. يطلق الملك ليو جميع التجار المسلمين المعتقلين لديه مع إعادة أموالهم وبضائعهم، وإعادة أموال من مات منهم ايضا.
٣. يطلق الملك ليو جميع من عنده من أسرى المسلمين.
٤. لا يجدد الملك ليو بناء قلعة أو ما يختص به في مملكته.[٤]

---

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٧٨-٨٠، ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٢١. ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٢٦٨.

(٢) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٢٧١، King, op, cit, P285

(٣) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٨٠.

(٤) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٩٢-١٠١.

تدمير حصن مرقية بأيدي الصليبيين:

بعد أن فتح السلطان المنصور قلاوون حصن المرقب وأعماله، أخذ في إعمال الحيلة لفتح حصن مرقية -الواقع بين طرطوس والمرقب وسط البحر، وبمواجهة مدينة مرقية- وكان السلطان الظاهر بيبرس قد فتح مرقية إلاّ أن الصليبيين أعادوا احتلالها عقب وفاته، وقد عمر هذا الحصن قبالتها «بارتلميو» أحد أكابر الصليبيين، وأعانه على ذلك أمير طرابلس واسبتارية حصن المرقب، فلحق المسلمين منه أذى كبير بسبب موقعه العسكري، وكان نواب حصن الأكراد لمّا عاينوا بناءه وعجزوا عن منع الصليبيين من تشييده، قد أقاموا بالقرب منه برجا بقرية ميعار، غير أنه لم يضاهيه في المنعة.[1]

وعندما تيقن السلطان من عدم إمكانية حصاره لافتقاره إلى مراكب حربية في ذلك الحين ليحاصره ويقطع الميرة عنه، فقد أرسل إلى أمير طرابلس طالبا منه هدم الحصن لأنه قد ساعد في بنائه، وهدده باجتياح إمارته إن لم ينفذ الهدم، فلم يسع أمير طرابلس إلا الإذعان، فتوسط لدى صاحب هذا الحصن مقابل جملة من المال، كما عوضه بعدة ضياع من إمارته بدلاً منه. فهدمه مرغما -بالرغم من أنه كان قد قتل ابنه عندما علم بمحاولته تسليم الحصن للسلطان سرا- وقد أرسل السلطان مائة حجّار للمشاركة في الهدم نكاية بالصليبيين.[2]

وقد روع ذلك جموعهم في بلاد الشام فتقدمت الأميرة ايشيفا أميرة بيروت -تولت الحكم بعد وفاة اختها ايزابيلا- بطلب عقد الهدنة مع السلطان، فطالبها بدفع مبلغ تسعين ألف درهم مقابل ذلك، فتم الاتفاق على أن تدفع مبلغ ثلاثين ألف درهم أولا على أن يتم دفع ما تبقى في غضون ثلاثة أشهر، وفي السنة التالية تقدمت الأميرة مرجريت أميرة صور بطلب عقد هدنة، فوافقها السلطان المنصور مقابل تنازلها عن نصف دخل إمارتها السنوي وتعهدها بعدم تجديد تحصيناتها، وعلى هذه الأسس تم عقد الهدنة معها لمدة عشر سنين أولها ١٤ جمادى الأولى ٦٨٤هـ/ ١٨ تموز ١٢٨٥م.[3]

---

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٨٨، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٨٥.

(٢) م.ن، ص٨٧-٨٩.

(٣) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص١٠٣، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٣٣٨، «انظر نص الهدنة في الملحق».

تطور أوضاع الصليبيين في عكا:

توفي شارل أنجو سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، ولما لم يكن ابنه شارل الثاني ملك نابولي يحفل بما يجري في الشرق، فقد ارسل اسبتارية عكا إلى الملك هنري الثاني ملك قبرص ينصحونه باسترداد ملك أبيه في مملكة بيت المقدس «عكا» ولـمّا كان هنري الثاني تواقا إلى ذلك فقد أرسل مبعوثا إلى عكا ليجري مفاوضات مع مختلف الهيئات الصليبية حول الاعتراف بهه ملكا على بيت المقدس، غير أن اودو بوليشيان رفض أن يتخلى عن نيابته عن ملك صقلية.

وجاء وصول هنري الثاني إلى عكا عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، ليضع حدا لرفض اودو بوليشيان، الذي اضطر في النهاية إلى الاذعان والموافقة، وبتتويج هنري الثاني ملكاً على مملكة بيت المقدس في كاتدرائية صور -كما جرى التقليد- في ١٥ آب من السنة ذاتها عادت عكا مرة أخرى تحت حكم ملوك قبرص، وقبل أن يغادر هنري الثاني عكا عائدا إلى قبرص عين فيها خاله بلدوين ابلين نائبا عنه.[١]

وفي ذلك الوقت نشبت حرب في ايطاليا بين بيزا وجنوا، ولم تلبث أن امتدت بينهما إلى سواحل بلاد الشام التي تخضع للصليبيين، فقد جاء أسطول جنوى لمهاجمة البيازنة ومستعمراتهم عام٦٨٦هـ/١٢٨٧م بقيادة أميري البحر توماس سبينولا وأورلاندو أشيري، وقد توجه سبينولا لزيارة الاسكندرية للحصول على تأييد السلطان المنصور، في حين انطلق أشيري يذرع ساحل الشام على رأس أسطوله ويهاجم سفن البيازنة ويغرق أو يأسر كل من يصادفه منها، وقد حاول بيع الملاحين البيازنة الذين وقعوا في أسره، لكن تدخل الداوية منعه من ذلك، ثم أن أشيري لجأ إلى صور ليعد هجوما على ميناء عكا،مما دفع البنادقة إلى اشراك أسطولهم المحلي مع البيازنة لحماية الميناء، غير أن أشيري انتصر تجاه حاجز الأمواج، إلا أنه لم يستطع أن ينفذ إلى داخل الميناء، ولـمّا أبحر سبينولا من الاسكندرية،استطاع الجنوية فرض الحصار على كل الساحل،بيد أنهم ما لبثوا أن تراجعوا إلى صور على أثر توسط مقدمي الداوية والاسبتارية ومن معهم من ممثلي النبلاء المحليين فعاد الطريق البحري آمنا إلى ميناء عكا.[٢]

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٦٩-٦٧١.

(٢) رنسيمان، م.ن، جـ٣، ص٨٦٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧١.

فتح اللاذقية:

انتهز السلطان المنصور فرصة انشغال الصليبيين بمنازعاتهم الداخلية، فأرسل قوات عسكرية على رأسها الأمير حسام الدين طرنطاي للاستيلاء على اللاذقية وذلك سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، وكانت اللاذقية آخر ما تبقى للصليبيين من إمارة انطاكية، وعندما وصلت القوات الإسلامية قريبا من المدينة، انسحب منها الصليبيون إلى حصن قريب منها ويتصل بالبر بواسطة جسر، فسقطت المدينة بيد الأمير حسام الدين دون مقاومة.

أما الحصن فكان قد تهدم أكثره نتيجة زلزلة كانت قد حدثت قبيل مهاجمة المسلمين له، وقد ساعد ذلك على سقوطه، إذ استطاع الأمير حسام الدين نصب المجانيق على أمكنة ضيقة جداً قبالته ووسع الجسر الواصل إليه، وشرع في مهاجمته إلى أن تمكن من إحداث النقوب من جهة الأمكنة التي هدمتها الزلزلة وكشفتها من جهة البحر، عندئذ لم يقو الصليبيون على المقاومة وطلبوا الأمان، فأمنهم الأمير حسام الدين على أنفسهم وأموالهم على أن يخرجوا منه تاركين ما به من عدد وسلاح، فتركوه وتوجهوا إلى جهات عدة، وتسلمه الأمير حسام الدين في ٥ ربيع الأول/ ٢٠ نيسان من السنة المذكورة.[1]

فتح طرابلس:

ظلت طرابلس بمنأى عن هجمات الدولة المملوكية بحكم المهادنات التي عقدت مع أمرائها، وكان آخرها تلك الهدنة التي عقدها السلطان المنصور قلاوون مع الأمير بوهمند السابع سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وكانت طرابلس في ضوء هذه المهادنات قد ازدحمت بالصليبيين الذين التجأوا إليها من المعاقل الصليبية في الساحل الشامي بعد أن حررتها القوات الإسلامية.

ولم يكن عقد تلك المهادنات ليجعل الدولة المملوكية تتخلى عن محاولة الانقضاض على طرابلس وطرد الصليبيين منها وإعادتها للحظيرة الإسلامية، فقد أخذ

---

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص١٥١-١٥٢، ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٢٢٢، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٨١.

السلطان المنصور قلاوون يتحين الفرصة المناسبة لتحقيق هذا الهدف.

وكان أن ساعدت الظروف الداخلية التي حدثت في طرابلس السلطان على تحقيق ما كان يصبو إليه، فقد حدث أن توفي الأمير بوهمند السابع أمير طرابلس سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ولم يخلف وريثا مباشرا للعرش، فأعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام قومون -مجلس بلدي- بزعامة بارثو لوميو ايمبرياكو لحكم الإمارة، في الوقت الذي قدمت فيه لويسا أخت بوهمند السابع ووريثته مع زوجها إلى الشرق ونزلت في عكا، وعلى الفور استنجدت بالاسبتارية للوقوف إلى جانبها لاستعادة حقها، فرد قومون طرابلس بعقد اتفاقية مع جنوا، أصبحت طرابلس بمقتضاها تحت حمايتها، وقد حصلت جنوا بموجب ذلك على شوارع وأسواق عديدة في طرابلس، والواقع أن جنوا كانت تتوق إلى عقد مثل هذه الاتفاقية نظرا للمكاسب التجارية الكبيرة التي كانت تتطلع إليها في طرابلس، فضلا عما في ذلك من أهمية في النزاع والتنافس بينها وبين البندقية في الشرق وفي حوض المتوسط.

غير أن أهل طرابلس كانوا متعاطفين مع لويسا، فكتبوا لها بما تم مع جنوا، ولكن ذلك التعاطف لم يكن ذا فائدة دون موافقة الجنوية على إعادة الحق لها، فسارعت إلى عقد لقاء مع رئيس الجنوية في صور، تم الاتفاق فيه على موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على طرابلس مقابل موافقتها على جميع ما حصلت عليه جنوا، وكذلك موافقتها على الحقوق التي حصل عليها قومون طرابلس.[1]

غير أن ذلك لم يرض «بارثولوميو ايمبرياكو» زعيم القومون الذي كان يطمع في الحصول على إمارة طرابلس لنفسه، وتعبيرا عن موقفه قام بإرسال مبعوث إلى السلطان المنصور قلاوون يطلب منه التأييد والمساعدة لتحقيق أطماعه في طرابلس، على أن تكون المدينة مناصفة بينهما، وفي ذلك قال المؤرخ أبو المحاسن: «وسأل سير تلمه (بارثولوميو) من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بلبان الطباخي السلحدار وأن يساعده على تملك طرابلس،على أن تكون مناصفة ويذل بذولا كثيرة».[2]

وقد وجد السلطان المنصور قلاوون في ذلك فرصة للانقضاض على طرابلس دون

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٨١-٦٨٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٢.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٠ ٣٢-٣٢١.

أن يتعهد لبارثولوميو بشيء، وفي غمرة ذلك ازدادت النزاعات والانقسامات بين صفوف الصليبيين في طرابلس، واضطرب حبل الأمن فيها، ثم ما لبثوا أن نقضوا الهدنة المعقودة مع السلطان عندما اعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين وذلك في أواخر سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، فشرع في تجهيز قواته وإعدادها، ثم تحرك على رأس الجيش في منتصف المحرم ٦٨٨هـ/شباط ١٢٨٩م، وكتب عند رحيله إلى سائر ممالك الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس.[١]

وفي ذلك الوقت علم مقدم الداوية عن طريق رشوة احد أمراء المماليك وهو الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، بنية السلطان قلاوون، فحذّر أهل طرابلس من الخطر المحدق بهم، ولكن الأحقاد والمنازعات والانقسامات ظلت تعمل عملها بين مختلف طوائفهم، فلم يلتفتوا إلى ذلك التحذير.[٢]

وكان السلطان قد وصل إلى دمشق أولا، وبعد استكمال التجهيزات قاد جيشا عدته أربعون ألف فارس ومئة ألف راجل ما بين قوات نظامية وأخرى متطوعة.[٣] وفور وصوله إليها في مستهل ربيع الأول ١٧ آذار من السنة المذكورة، شرع في حصارها ونصب المجانيق على طول جبهاتها البرية، وقد بلغت عدتها تسعة عشر منجنيقا عمل فيها ألف وخمسمائة رجل من الحجّارين والزرّاقين.

وقد أصاب الهلع قلوب أهلها، فأسرعوا يطلبون النجدة من كل صوب، فأرسل لهم ملك قبرص اربع سفن بقيادة أخيه عموري.[٤] وأسرع الاسبتارية إلى مساندتهم -رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس- وقدم صليبيو عكا كل ما أمكنهم من مساعدة، أما الجنوية والبيازنة والبنادقة، فقد تناسوا خلافاتهم مؤقتا وتضامنت سفنهم في حماية طرابلس من جهة البحر.

ورغم كل هذه المساعدات إلاّ أن المدينة لم تستطع الصمود في وجه الحصار الشديد الذي ضربه السلطان المنصور، وعندما شددت المجانيق في رمايتها على المدينة وأخذ النقابون ينقبون أسوارها، تمكن الخوف واليأس في صفوف المنجدين، فسارع الجنوية

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٤٦، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٨٨-٢٨٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ١١٧٣.

(٣) سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص٦٣١.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٤٧، King. op. cit, P288

والبنادقة بالانسحاب حفاظا على أنفسهم وأموالهم.[1] مما أصاب أهلها بالذهول، ووسط ذهولهم هذا، تمكن المجاهدون المسلمون من اعتلاء أسوار المدينة وفتحها عنوة بالسيف في ١٤ ربيع الآخر/ ٢٦ نيسان من السنة ذاتها (٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، فلم يسع أهلها إلا الهرب باتجاه الميناء، فتبعهم المجاهدون فقتلوا وجرحوا وأسروا عددا كبيرا منهم.[2]

وقد التجأت أعداد كبيرة منهم إلى جزيرة بالقرب من المدينة، ودخلوا في كنيسة سنطماس، فتبعتهم قوة من المجاهدين خاضت مياه البحر فرسانا ورجالة حتى أدركتهم، فقتلت الرجال وسبت النساء والأطفال، وذكر أبو الفداء الذي شارك في هذا الفتح بقوله: «وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب والسلب عبرت إليها في مركب، فوجدتها ملأى من القتلى وقد جافت بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى».[3]

ويلغ مجموع من قتل من الصليبيين في هذا الفتح عدد كبير يقدر بنحو سبعة الاف.[4] أما الأسرى فكانوا في نحو ألف ومائتي أسير.[5]

ثم أمر السلطان المنصور بهدم المدينة، فهدمت «وأحرقت وخرب سورها» وكان عرض سورها يمر عليه ثلاثة فرسان بالخيل، ثم أمر السلطان بعد ذلك ببناء مدينة جديدة بجوار النهر حول حصن صنجيل في الداخل بعيدا عن شاطئ البحر خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية.[6] أما الموضع الذي كانت تقوم عليه أطلال المدينة التي هدمها فقد أقام عليها عددا من الأبراج على طول الساحل الشرقي والشمالي من شبه جزيرة الميناء تمكينا للدفاع البحري عنها.[7]

وبالسيطرة على طرابلس أخلى الصليبيون «أنفة» الواقعة إلى الشرق من جبل

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٤، King. op. cit, P288

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٤٧، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٢١.

(٣) أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٢٣.

(٤) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٩٢.

(٥) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص٨٠.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٤٧-٧٤٨، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢٧٥.

(٧) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص٢٩٤.

صهيون على الساحل، فأمر السلطان بتخريبها، كما أخلى الصليبيون «البترون» جنوبي طرابلس وجميع ما هناك من حصون، فاستلمتها القوات الإسلامية[1]، أما مدينة جبيل فقد ظلت بأيدي الصليبيين بإقرار السلطان المنصور لصاحبها بطرس امبرياكو مقابل جزية يدفعها.[2] كما أعطى السلطان أمانا لصاحب بيروت.[3]

وقد نظم الشاعر شهاب الدين محمود -كاتب الإنشاء- قصيدة مدح فيها السلطان المنصور قلاوون عند فتحه طرابلس -وهي على البحر الطويل- نقتطف منها قوله:-

علينا لمن أولاك نعمته الشكر   لأنك للإسلام يا سيفه ذخر
ومنا لك الإخلاص في صالح الدعا   إلى من له في أمر نصرتك الأمر
فإن تك قد فاتتك بدر فهذه   بما أنزل الرحمن من نصرة بدر
نهضت إلى عليا طرابلس التي   أقل عناها أن خندقها البحر
وقد ضمها كالطوق إلا بقية   كنحر وأنت السيف لاح له نحر
ومن دون سوريها عقاب منيعة   تزلّ اذا مارام أوطاءها الذر
وكانت بدار العلم تعرف قبلها   فمن اجل ذا للسيف في نظمه انثر
ولما غدت لأفخر مثل افتتاحها   أبى الله إلا أن يكون له الفخر
ولا أجر عند الله مثل فكاكها   فبشراك يا من خصه ذلك الاجر
وكم مؤمن دهرا وما مسها أذى   وكم راح من عصر وما راعها حصر
وكم ليث غاب رامها في جيوشه   وراح ولم يبرد له بالمنا صدر
فناجيتها بالجيش كالمرج فانشثت   تميد وقد اربى على بحرها البر
فظلت لدى بحرين أنكا حمالها   وأقتله العذاب الذي جره النصر
وأقسم ما فاجأتها بل تقدمت   اليها سرايا جيشك الرعب والذعر
كأن المجانيق التي أوترت ضحى   عليها لها في شم ابراجها وتر
تحلق في وجه السماء وترتمي   إليهم كما ينقض من حالق نسر
فهاجمتها في أول الجيش فاحتوى   عليها وباقي الجيش خلفك لم يدروا

---

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ١، ص٨١، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٢١-٣٢٢.

(٢) المقريزي، المصدر نفسه، جـ١، ص٧٤٨، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٨٣.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٢.

وأطلقت فيها طاير السيف فاغتذى وليس له إلا رؤوسهم وكر
كأن شعاع الشمس فوق احمراره على زرقة فيه لناظره قمر
ولم ينج إلا من يخبر قومه ليدروا وإلا من تغمده الأسر
وفي هلكم يوم الثلاثا إشارة إلى أن في الدارين تثليثهم خسر
أمدهم جيرانهم بحماتهم ويعجب ذاك المد من دابه الجزر
فلم يغن عنهم ذاك شيئا ولو أتوا إليهم كموج البحر أفناهم البحر
قسمتهم شطرين غير غريقهم فللسيف شطر والقيود لها شطر[1]
محوت شعار الكفر عنها فما عسى يقوم به في وصف أفعالك الشعر؟؟

الاستعداد لفتح عكا:

على أثر تحرير طرابلس أسرع البابا نيقولا الرابع بالدعوة إلى قيام حملة صليبية جديدة لحماية ما تبقى من معاقل للصليبيين في الشرق، ولما كانت البندقيةصاحبة السيادة التجارية في عكا، وتهديدها من قبل المسلمين يعني تهديد مصالحها التجارية الكبرى فى كل بلاد الشام، لذا فقد عجلت باعداد حملة في ألف وستمائة مرتزق- فضلاً عن المتطوعين من بقية المدن الإيطالية لإنقاذ عكا فيما لو حاول السلطان المنصور استعادتها . وأبحرت هذه الحملة باتجاه الشرق ووصلت إلى عكا في صيف سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م.[2]

وعلى الرغم من وجود هدنة معقودة بين السلطان وحكام عكا، إلاّ أن أفراد هذه الحملة لم يحترموا تلك الهدنة، فما أن وصلوا عكا حتى هاجموا التجار المسلمين الذين كانوا قد قصدوها في ظل الأمان المعطى لهم بموجب عقد الهدنة المذكورة، كما هاجموا الفلاحين المسلمين في إقليم المدينه.[3]

وقد أجمع مؤرخو العصر المملوكي على وقوع هذا الاعتداء السافر، بيد ان الشرارة الأولى التي كانت بداية لهذه المذبحة الشنيعة، فقد تعددت الروايات حولها، على أن أقواها تلك التي ذكرها المؤرخ ابن ايبك الدواداري ونقلها عن والده مباشرة،

---

(١) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٢٩٥-٢٩٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٨.

(٣) م.ن، جـ٢، ص١١٧٨.

فقال: «وأصل ذلك ما حكاه والدي، رحمه الله قال: « ورد فقير من المسافرين عكا، ونزل المسجد المجاور لعين البقرة، وهو مكان مبارك، فوجد فيه جماعة فقراء، فلما كان وقت الأذان أذنوا خفية ولم يفتحوا للمسجد طاقات، فانكر عليهم ذلك الفقير، فقالوا انها بلد كفر ونخشى الفرنج، فقال الفقير: الآن كما طاب الجهاد في سبيل الله، يا فقراء أما قرأتم قوله تعالى ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾[1] ثم أن الفقير صبر إلى آذان الظهر وفتح طاقات المسجد وعلى علوه وأعلن بالآذان، وكان قد ورد عكا افرنج من داخل البحر غنم ليس من اهلها، فلما سمعوا الاذان اجهارا، لعب فيهم الشيطان ووثبوا من فورهم، فقتلوا ذلك الفقير وطرطشوا دمه في حيطان المسجد مع ثلاثة فقراء أخر ثم خرجوا، وعادوا لا يلتقوا مسلماً في البلد إلاّ أوقعوا به القتل، فلما بلغ السلطان ذلك تجهز واهتم لأخذها بمعونة الله تعالى».[2]

وقد بلغ من حقدهم على المسلمين أن هاجموا النصارى السريان في عكا واقليمها ظنا منهم أنهم مسلمون بسبب إطالة لحاهم.[3]

وعندما أحضرت ملابس الضحايا المسلمين إلى السلطان المنصور مضرجة بالدماء أقسم على الانتقام وأرسل إلى الصليبيين في عكا يطلب تسليمه المجرمين، وقد راع ذلك أهل عكا، وخشوا عاقبة الأمر، فعقد مقدموهم مجلسا لبحث الموقف، واقترح مقدم الداوية تسليم المجرمين، إلاّ أن اقتراحه قوبل بالرفض.[4]

وللخروج من هذا المأزق اتفق رأيهم على أخذ جماعة من المسلمين وشنقهم على أنهم الفاعلون من الصليبيين، والكتابة إلى السلطان بذلك في محاولة لخداعه وفي ذلك قال المؤرخ شافع بن علي: « فأخذوا جماعة من المسلمين والبسوهم زي الفرنج وشنقوهم وكتبوا للسلطان الملك المنصور بغير هذه الصورة وقالوا إن جماعة من الغرب الفرنج فعلوا ذلك وإنا شنقناهم للوقت حفظا للهدنة.[5]

لم يقنع السلطان المنصورالذي خبر مكرهم وخبثهم بموقفهم هذا، كما رفض بشدة

---

(١) الأحزاب، ٣٧.

(٢) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣٠٠-٣٠١.

(٣) سعيد عاشور، المصدر نفسه، جـ٢، ص١١٧٨.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٨.

(٥) شافع بن علي، حسن المناقب، ص٥٨.

قبول أسفهم واعتذارهم، وشرع من فوره بتعبئة الجيش لاستعادة عكا وتطهيرهامن الصليبيين، وعهد إلى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر بالاستعداد للحرب في بلاد الشام[1]. ولم تلبث اخبار استعدادات السلطان أن تسربت إلى الصليبيين، فأسرع مقدم الداوية في عكا إلى تحذير كافة قوى الصليبيين فيها، ولكنهم لم يأبهوا بالتحذير وظلوا غارقين في خلافاتهم.[2]

وكانت عكا قد اكتظت بمزيج غريب غير متجانس من الصليبيين فيها بعد أن فرت إليها بقايا العناصر المختلفة من انطاكية وطرابلس وغيرهما من المدن والحصون التي استولى عليها المسلمون، فصار في عكا سبع عشرة جالية كل منها تؤلف قومونا مستقلا بشؤونه الخاصة، هذا فضلا عن ممثلي منظمات الفرسان وملوك انجلترا وفرنسا وقبرص والمدن الإيطالية التجارية والبابوية، وكل واحد من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص ويفكربطريقته الخاصة، وينظر إلى الأمور من وجهة نظر المصدر الذي يمثله دون أن يحاول التعاون مع غيره.[3]

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون لم يكد يفرغ من كافة استعداداته الحربية، ويغادر القاهرة على رأس جيشه حتى وافاه الأجل المحتوم بظاهر القاهرة في مخيمه الذي أقامه بمسجد تبر (أول منزلة في الطريق إلى الشام، وموضعه قريب من المطرية) في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ/ ١٠ تشرين ثاني ١٢٩٠م، فتولى عرش السلطنة في اليوم التالي لوفاته ابنه السلطان الأشرف خليل.[4]

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٥٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص١١٨٠.

(٣) م.ن، جـ١، ص١١٨٠.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٦٢-٧٦٣.

الفصل الخامس

مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين

في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

فتح عكا:

تعرض الأشرف خليل في بداية حكمه لمؤامرة دبرت لإقصائه عن العرش قادها الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، بيد أنه سرعان ما أثبت كفاءته بالتخلص منها بقتل مدبرها، ثم تفرغ بعد ذلك لإتمام عزم أبيه على فتح عكا، وإن جاء ذلك الأمر متأخراً بضعة أشهر احتاجها الأشرف لتثبيت دعائم حكمه وإعادة تجهيز الجيش.[1]

حاول الصليبيون ثني السلطان الأشرف عن عزمه بمهاجمة عكا، أو إعاقته على الأقل كي يتسنى لهم الاستعداد لمواجهته، فأرسلوا إليه وفدا لتهنئته بتوليه عرش السلطنة، وطلب العفو، معتذرين له عما جرى، كما التمسوا منه وضع ما يراه من شروط جديدة لاستمرار الهدنة التي كانوا قد عقدوها مع والده السلطان المنصور قلاوون، ولكن رده كان صارما إذ أمر بالقاء القبض على أعضاء هذا الوفد وايداعهم السجن .[2]

ثم شرع في تجهيز قواته للزحف صوب عكا، وأرسل بتجهيز القوات الشامية من كافة نياباتها (دمشق. حلب، حماه، الكرك، صفد، طرابلس) وإعداد المجانيق وآلات الحصار، كما دعا إلى استنفارالأهالي للمشاركة في هذه الحملة العسكرية، وموافاته على أبواب عكا .[3]

وقد تشكلت القوات الإسلامية بعد تكاملها من قوات نظامية وأخرى متطوعة ضمت الغزاة والصناع والحجارين والنجارين وغيرهم، وقد فاقت نسبة المتطوعين القوات النظامية بكثير[4]، وكان مجموع هذه القوات مجتمعة ستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة(الرجّالة) .

---

(١) ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٢٤، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٦٢-٧٦٣

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية ،جـ٢، ص١١٢٤

(٣) ابو الفداء، المختصر،جـ٤، ص٢٤، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٦٣.

(٤) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٥.

وعندما تأكد للصليبيين عزم السلطان الأشرف على مهاجمة عكا، أسرعوا في جمع كل قواتهم في الشام وعكا، فضلاً عن القوات التي أرسلها الملك «هنري الثاني» ملك قبرص الذي عهد إلى أخيه «املريك» بأن يتولى القيادة في عكا ريثما يأتي بمزيد من الإمدادات، وقد تجمع فيها عدد يتراوح بين ثلاثين ألفا وأربعين ألفا، استحكموا بداخل المدينة وعلى أسوارها في أبراج منيعة.(١)

أما استحكامات المدينة فكانت سليمة وقوية إذ كان يمتد على طول جهاتها البرية سوران مزدوجان بينهما خندق، مع وجود خندق آخر خلف السور الخارجي لزيادة الحماية، وكان قد أقيم أكثر من اثني عشر برجا على امتداد السورين الداخلي والخارجي.(٢)

وزحف السلطان الأشرف على رأس قواته صوب عكا ونازلها في ٤ربيع الأخر ٦٩٠هـ/ ٥نيسان ١٢٩١م، وكانت القوات الشامية قد تحركت تباعا لموافاته على أبوابها حاملة معها المجانيق التي تم إعدادها في حصون الشام.

وما أن نازلها الأشرف حتى اتخذ موقفا عسكريا موفقا ضد الصليبيين، فقد وجه الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير على رأس قوة عسكرية إلى صور، -المعقل الثاني بعد عكا في الأهمية-هادفا من وراء ذلك إلى تحقيق غايتين، الأولى: مضايقة صور بحيث لا تستطيع إرسال نجدة إلى عكا أثناء حصارها، والثانية: منع صليبي عكا من التوجه إلى صور عندما تحل بهم الهزيمة، فتنحل عزيمة الصليبيين في صور مما يسهل السيطرة عليها بعد السيطرة على عكا.(٣)

بدأ الأشرف حصار عكا من جهاتها البرية، فنشر قواته على امتداد الأسوار ابتداءً من استحكامات الداوية على الساحل شمالاً إلى برج البطريرك عند خليج عكا جنوبا،(٤) ونصب عليها ٩٢ منجنيقا، ولمّا كانت الأرض التي كان يقف عليها أيضا سهلية مكشوفة فقد أقام الستائر الترابية والصناعية (المصنوعة من اللباد) لحماية

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٦٧، King, op. cit, PP291-292

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٩٦٧.

(٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٥، ٨

(٤) رنسيمان، المصدر نفسه، جـ٣، ص٩٦٨.

الجند والمعدات الحربية[1]، واتخذ مركز قيادته في الجزء الجنوبي من الأسوار قبالة برج المندوب البابوي، في حين كانت قيادة الصليبيين قد تركزت بالقرب من باب القديس أنطوان[2]

وشرع المجاهدون بقصف المدينة وأسوارها قصفا متواصلاً بحجارة المجانيق التي كان منها ما يرمي بقنطار دمشقي وأكبر(١٠٠رطل)، فأحدث ذلك عدة نقوب في تلك الأسوار[3].

وتحت غطاء كثيف من رماة السهام الكامنين وراء السـتائرالترابية والصناعية على الصليبيين المتحصنين فوق الأبراج، كانت وحدات المجاهدين المكلفة بردم الخنادق تتقدم بين الفينة والأخرى وطوال مدة الحصار لردم مواضع يمكن من خلالها الوصول إلى الأسوار مستخدمين مخالي الخيل معبأة بالتراب لإلقائها مع ما تيسر من الأخشاب ومواد أخرى في تلك المواضع المنتخبة، وبذلك تمكنت الوحدات الهندسية الإسلامية من الوصول -عبر تلك المواضع- إلى الأسوار لنقبها وإحداث ثغرات يمكن من خلالها اقتحام المدينة عندما تحين ساعة ذلك[4].

ورد الصليبيون باستخدام ما لديهم من مجانيق داخل المدينة،كماشنواعدة هجمات بحرية خاطفة على رأس ميمنة القوات الإسلامية التي ترابط في القطاع الشمالي للمدينة (وهي قوات حماه، وكان فيها أبو الفداء ملك حماه فيما بعد) بواسطة عدة مراكب مستخدمين النشاب والجروخ (الات حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة)، كما ضربوا هذه القوات بمنجنيق كانوا قد ركّبوه فوق بطسة (نوع من أنواع المراكب الحربية)، غير أنه ما لبث أن تحطم بسبب الأمواج القوية.[5]

ولـمّا لم تجد هذه المحاولات اليائسة نفعا، قام مقدم الداوية «غليوم دي بوجيه» بإرسال وفد إلى السلطان الأشرف للمفاوضة في محاولة منه لإنهاء الحصار، غير أن الأشرف أصر على تسليم المدينه، فعاد مقدم الداوية إلى الخيار العسكري، إذ شن

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٦٤

(٢) رنسيمان، المصدر نفسه، جـ٣، ص٣٩٨

(٣) المقريزي، المصدر نفسه، جـ١، ص٧٦٤، ابو المحاسن، النجوم الزاهره، جـ٨، ص٦

(٤) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ٧١.

(٥) ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥.

هجوماً مباشراً بثلاثمائة فارس على قوات حماة تحت جنح الظلام هادفاً إلى إحراق آلآت الحصار (المجانيق) في القطاع الشمالي للمدينة، وقد استطاع هزيمة مقدمة هذه القوات، معتمدا على عنصر المفاجأة، غير أن تعثر عدد من فرسانه بأطناب الخيام أثناء الهجوم، جعل قوات حماه تتصدى لهم، فارتد مقدم الداوية خائبا بعد أن ترك عدداً من فرسانه صرعى في أرض المعركة.(١)

وفشلت محاولة أخرى للهجوم قام بها الإسبتارية، إذ تنبهت لهم هذه المرة وحدات الرصد من المجاهدين وأسرعت بايقاد المشاعل وإشعال النيران، لتتوقف كل محاولات الصليبيين بعد ذلك، وليكتفوا بالدفاع والتحصن داخل الأسوار(٢).

وقد تجددت آمالهم بوصول هنري الثاني ملك قبرص إلى عكا على رأس مائة فارس وألفي راجل، بيد أن هنري هذا الذي تولى القيادة في عكا قد أدرك استحالة المقاومة، بعد أن شاهد ولمس بنفسه مدى القوة التي يتمتع بها المجاهدون المسلمون، ففضل التفاوض مع السلطان الأشرف على أساس استمرار الهدنة، غير أن الأشرف أصرعلى تسلم مفاتيح المدينة مقابل الإبقاء على حياة الصليبيين إذا استسلموا له، ولمّا لم يكن هنري الثالث قادرا على اتخاذ قرار بهذا الشأن، فقد آثر الانسحاب إلى قبرص -ومعه أخوه املريك- تاركا المدينة لمصيرها المحتوم بعد أن شاهد انحلال الصليبيين وعظم ما دهمهم(٣)

وامام شدة ضربات المجانيق الإسلامية، أخذت بعض أبراج المدينة تتهاوى كبرج الملك هيو والبرج الإنجليزي وبرج كونتيه بلوا، كما انهارت الأسوار القائمة عند باب القديس أنطوان، وبرج القديس نقولا، كما انهار أيضا شطر كبير من السور الخارجي لبرج هيو الثالث(٤).

ومع التخبط في قيادة الصليبيين بعد انسحاب هنري الثاني وانهيار معنوياتهم لم يبق أمام الأشراف إلاّ الهجوم الشامل على المدينة واقتحامها، فحدد توقيت ذلك

---

(١) ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٤٥.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٠٢.

(٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٦، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٠٥

(٤) رنسيمان، المصدر نفسه، جـ٣، ص٧٠٣-٧٠٤.

قبيل شروق شمس يوم الجمعة ١٧جمادي الاولى ٦٩٠هـ/ ١٨ أيار١٢٩١م.[١]

ويعطينا المؤرخ بيبرس الدواداري الذي شارك في هذه المعركة، وكان أميراً على نيابة الكرك صورة من صور الاستعداد للاقتحام فقال: «لمحت برجا من أبراجها قد أثرت فيه المجانيق وأمكن أن يتخذ منه طريق، وبينه وبين السور فسحة مكشوفة ظاهرة لا يمكن السلوك فيها، لأن الجروخ مسلطة عليها، إلاّ باتخاذ ستارة تطولها وتشملها وتقي من يدخلها، فعمدت إلى اللبود فجمعتها ولفقت بعضهامع بعض لفقا فتصور منها سحابة كبيرة طولاً وعرضاً، ونصبت تجاه البدنة المهدومة من البرج صاريين من كلا الجانبين، وجعلت على رؤوسها بكرات كبكرات المراكب وحبالاً، ثم جذبت تلك السحابة المتخذة من اللباد فقامت كأنها سد من الأسداد وأتقنت ذلك في جنح الليل وهم غافلون عنه، فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوه بالمجانيق والنشاب فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخي اللبد تحتها فيبطل زخمها، والجروخ إذا رمتها لا تنفذ سهمها»[٢].

وباقتراب ساعة التنفيذ رتب الأشرف الكوسات (وهي صنوجات من النحاس تشبه الترس الصغير، يدق بأحدهما على الآخر بايقاع مخصوص) على ثلاثمائة جمل كي تضرب دفعة واحدة أثناء الاقتحام ليحدث ذلك فزعا في قلوب أهلها[٣].

وبدأ الهجوم الشامل في الموعد المحدد له، وجرى على طول امتداد الأسوار من باب القديس انطوان إلى برج البطريرك، مع تركز الهجوم الرئيس على البرج الملعون الواقع في زاوية الحصن.

ويلاحظ أن السلطان الأشرف لم يركز في هجومه على الأسوار الممتدة بين استحكامات الداوية شمالاً وحتى باب القديس أنطوان، وهي الأسوار التي كانت تتحصن في أبراجها قوات الداوية والإسبتارية أقوى فرق الصليبيين، ويفهم من هذا أن الأشرف أراد شل حركة هذه القوات بتثبيتها في مكانها مقابل القوات الإسلامية التي استمرت في حصارها ومناوشتها القتال، وبذلك تمكن من تركيز هجومه على قطاع محدود يستطيع من خلاله اقتحام المدينة، دون أن يؤدي ذلك إلى توحيد قوى

---

(١) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٢١، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٦٥، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٦.

(٢) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ١٧٠

(٣) ابن ايبك الدواداري، المصدر نفسه، ص ٣٠٩، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٦

الصليبيين في الدفاع، وفيما لو حاولت قوات الداوية والإسبتارية القيام بهجوم معاكس لاسترداد ما تسيطر عليه القوات الإسلامية، يستطيع الأشرف عند ذلك الإطباق عليها من داخل المدينة-بعد اقتحامها-وخارجها فيحصرها عندئذ في زاوية ضيقة.

وقد نجح الأشرف في اقتحام المدينة من القطاع الذي حدده، إذ اقتحم أولاً البرج الملعون، ثم باب القديس انطوان وباب القديس نقولا[1]، وكان كلما سيطر على برج أو باب رفع فوقه السناجق(الأعلام والروايات)تأكيدا لانتصاره ورفعا لمعنويات القوات الإسلامية وتحطيما لمعنويات العدو.

وعندما حاولت قوات الداوية والإسبتارية القيام بهجوم معاكس لاسترداد البرج الملعون، أطبقت عليها القوات الإسلامية-كما خطط لها الأشرف- فقتل مقدم الداوية «دي بوجيه» واصيب مقدم الإسبتارية «يوحنا فيلييه»، فتراجعت هذه القوات مسرعة إلى الحصون الداخلية للاحتماء بها[2].

واندفعت القوات الإسلامية إلى داخل المدينة وأعملت السيوف في رقاب الصليبيين، فما كان ممن تبقى منهم إلاّ الفرار على المراكب بحراً طلبا للنجاة، فقتل عدد كبير ما بين غريق وقتيل بسبب شدة ازدحامهم[3].

أما الداوية والإسبتارية الذين تحصنوا في الأبراج الداخلية فقد حاصرهم الأشرف لمدة عشرة أيام،أجبروا بعدها على طلب الأمان والاستسلام، وبعد أن أمنهم الأشرف فرقهم على الأمراء، فقتلوا منهم نحو عشرة الآف، أما ما تبقى من رجالهم ونسائهم وأطفالهم فقد أرسلوا أسرى إلى مختلف الحصون الإسلامية[4].

ولم يقتل الأشرف هذه الاعداد منهم إلاّ ردا على أسلوبهم ذاته الذي مارسوه ضد المسلمين عندما سيطروا على عكا سنة٥٨٧هـ/ ١١٩١م.[5]

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٠٥.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨.

(٣) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣١٠.

(٤) بيبرس الدواداري، زبدة الفكر، ورقة ١٧٠ب، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨.

(٥) انظر ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٢١٤-٢١٥.

وكانت مدة حصار المدينة أربعة وأربعين يوما يضاف إليها عشرة أيام أخرى،وهي مدة حصارالحصون الداخلية، وقبل أن يغادرها الأشراف إلى دمشق أمر بها فهدمت إلى الارض[1].

السيطرة على بقية معاقل الصليبيين والتطهير الشامل:

نجحت الخطة العسكرية التي وضعها السلطان الأشرف ضد الصليبيين في صور، فنتيجة لمضايقتها من قبل قوات الأمير علم الدين سنجر الصوابي أدرك صاحبها «آدم دي كغران» صعوبة موقفه، فأسرع منسحبا منها في اليوم الذي دخل فيه المجاهدون عكا، وعندما تقدمت مراكب المنهزمين من عكا إلى ميناء صور -كماتوقع السلطان- سارع الأمير علم الدين بمنعها من دخول الميناء، وكان لهول هذا الموقف أثر كبير على أهل صور، فآثروا عدم المقاومة وطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم مقابل تسليم المدينة،فأجابهم الأمير علم الدين إلى طلبهم وسمح لهم بالرحيل، ودخل بقواته المدينة في اليوم التالي من السيطرة على عكا[2].

وبتطهير صور قوي عزم السلطان على الإجهاز على بقية معاقل الصليبيين في بلاد الشام، فوجه الأمير علم الدين سنجر الشجاعي على رأس قوات عسكرية إلى صيدا، وما أن ظهر الشجاعي أمام المدينة حتى هرع أهلها إلى قلعة لهم في البحر وتحصنوا بها، ولما رأى «ثيبالدجودين» مقدم الداوية بها (هرب إليها من عكا وتولى قيادة الداوية في صيدا)استحالة المقاومة انسحب منها إلى قبرص على أمل أن يعود بنجدة من هناك، وطال انتظار الصليبيين له دون جدوى، في الوقت الذي أخذ فيه الشجاعي يقيم رصيفا بين البحر والقلعة للوصول اليهم . وعندئذيئس الصليبيون من قدوم أي مدد، فركبوا سفنهم إلى قبرص تاركين المدينة يستولي عليها الشجاعي في ١٥رجب/١٤تموز من السنة ذاتها.[3]

ثم توجه الشجاعي بأمر من السلطان إلى بيروت، وكانت داخلة في طاعة السلطان لأن صاحبها كان قد أرسل إلى السلطان الأشرف لمّا كان محاصرا لعكا يطلب منه

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٦٥.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨.

(٣) عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، ص١٥٦-١٥٧.

الأمان فأعطاه أمانا[1] وعن السيطرة على هذه المدينة يحدثنا صالح بن يحي بقوله: «فلما وصل سنجر الشجاعي إلى بيروت تلقاه صاحبها وخيالته أحسن ملتقى ونزل في القلعتوأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلى القلعة ففعلوا وظنوه شفقة عليهم فلما صاروا بالقلعة قبض على الرجال وقيدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الأحد الثالث والعشرين من رجب سنة تسعين وستمائة، ثم جهز سنجر الشجاعي، علم الدين الداوداري والجاكي إلى جبيل فاخربا سورها وقلعتها وأبقيا على أهلها، وكانوا جنوية، ثم شرع سنجر الشجاعي في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء، ثم جهز سنجر الشجاعي أهل بيروت إلى دمشق ومنها أنفذهم إلى مصر بأجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء، ولما حملوا إلى مصر أطلقهم السلطان وقال أماني باقي عليكم، وخيرهم بين العود إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص، فتوجهوا إلى قبرص بأجمعهم، فكان مدة استيلاء الفرنج على بيروت فى هذه النوبة خمساً وتسعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوما»[2].

وأخذت بقية المعاقل تتساقط تباعا بيد المجاهدين، فسقطت حيفا[3] وجبيل-كما ذكر صالح بن يحيى عند دخول الشجاعي بيروت-[4]«فلما رأى أهل حصن عثليث خلو الساحل من عباد الصليب أحرقوا حواصلهم فهربوا في البحر وكذلك فعل أهل طرطوس»[5]، وقد تم ذلك في فترة لم تتجاوز منتصف شعبان/منتصف آب من السنة المذكورة[6].

وبالسيطرة على هذه المعاقل أمر السلطان الأشرف خليل بهدمها جميعا كي لا يعود الصليبيون إليها مرة أخرى فيتحصنون بها [7].

وقد علق أبو الفداء على نتائج هذا التطهير فقال: «واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب،

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٣.

(٢) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٣-٢٤.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٦٥.

(٤) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٣.

(٥) اليافعي، مراة الجنان، ج٤، ص٢٠٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٢١.

(٧) المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٦٦.

وأمر بها فخربت عن أخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام».[1]

ولقد عبر الشعراء المسلمون عن فرحهم الغامر بهذا النصر العظيم الذي أحرزه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، بقصائد كثيرة، ومن ذلك ما نظمه الشاعر محمد بن سباع، في قصيدة طويلة-على البحر الكامل-ومن جملة ما نظمه قوله:-

يا أشرف الدنيا تهن فإنه ... فتح سواك بمثله لم يحلم
أشبهت معتصم الخلايف همة ... با لروم فيك ديارها لم تعصم
فأريت عكا ما بعمورية ... رأت الفوارس بالزمان الأقدم
قابلت بلق جيوشه بسوابق ... غر عليها الرمح لم يتقدم
ولاقت من صبح دليل لم تزل ... تردى الكماة بأشهب وبأدهم
كم رعتها بسواد ليل أليل ... فصدمتها ببياض يوم أيوم
وأعدتها للمسلمين ولم يكن ... منهم يرى القطمير إلاّ بالدم
ولئن صلاح الدين بكرا نالها ... فالبكر في التجريب دون الأيم
فالجمعة الغراء كان صباحها ... وجه الزمان بمثله لم يرقم
لم تمل خندقها وقد داروا به ... طعنا بغير شظا القنا المتحكم
فغدت ومن فيها بما أوليتها ... خبراً يقص لمنجد أو متهم[2]

ومما نظمه الشاعرشهاب الدين محمودقوله-على البحر الوسيط:

الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... في البحر للترك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت ... في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتنا ... شاب الوليد بها هولاً ولم تشب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والأدب

---

(١) ابو الفداء، المختصر،ج٤، ص٢٥.

(٢) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣١٥.

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم لله أي رضى في ذلك الغضب
وأشرف الهادي المصطفى البشير على ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عيناً لهذا الفتح وابتهجت ببشره الكعبة الغراء في الحجب[1]
وسار في الأرض مسرى الريح سمعته فالبر في طلب والبحر في هرب
لقيتها يا صلاح الدين معتقداً بأن ظن صلاح الدين لم يخب
وتمت النعمة العظمى وقد ملكت بفتح صور بلا حصر «ولا نصبي»
فالله أعطاك فلك البر وابتدأت لك السعادة ملك البحر «فارتقبي»[2]

تطور هيمنة المماليك على مملكة أرمينية الصغرى حتى إسقاطها:

لقد بينا في وقت سابق أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد عقد هدنة مع «هيثوم الأول» ملك أرمينية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، وكان من أهم شروطها مقابل اطلاق سراح الأمير «ليو» من الأسر تنازل هيثوم عن مناطق: بهسنا والدربساك ومرزبان ورعبان والزرب وشيح الحديد، وقد سلمت هذه المناطق للدوله الإسلامية المملوكية باستثناء بهسنا التي ظل الملك يماطل في تسليمها، وعندما عقدت الهدنة الثانية بين السلطان المنصور قلاوون والملك ليو-الذي كان مأسورا في السابق، وتولى الحكم بعد تنازل ابيه-تعهد الملك ليو هذا بدفع جزية للسلطان المنصور، بيد أنه ماطل في تسليم بهسنا، ثم ما لبث أن تنصل من دفع الجزية المقررة عليه، وظل الأمر معلقاً إلى أن تولى سدة الحكم في مصر السلطان الأشرف بن قلاوون، فعمل على وضع حد لصلف الملك ليو، فأرسل له كتابا في أعقاب فتح عكا المؤزر يبشره فيه وينذره في الوقت نفسه، إذ دعاه إلى إرسال ما عليه من جزية مقررة (قطيعة) والحضور بنفسه إلى الأبواب السلطانية لتقديم فروض الطاعة والولاء.[3]

غير أن الملك ليو لم يستجب في بداية الأمر لتلك المطالب، وازاء ذلك قاد السلطان الأشرف قواته من مصر إلى دمشق سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م تمهيدا لمهاجمة مملكة أرمينية وفتح بهسنا -طالما أن ليو يماطل في تسليمها- وعندما وصل إلى دمشق

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٢٣

(٢) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠.

(٣) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣٢٠ (انظر نص الكتاب في الملحق).

استكمل تجهيزاته العسكرية وتهيأ للتحرك، وما أن علم ليو بذلك حتى أنفذ رسله إلى السلطان طالبا العفو[1]، لعلمه بمقدرة السلطان على تدمير بلاده، وبخاصة بعد آن سيطر السلطان على قلعة الروم القريبة من بلاده في السنة السابقة فلم يمكنه إلاّ المصانعة على نفسه وبلاده.

على أن السلطان هذه المرة لم يكتف بالمطالبة بحصن بهسنا بل طالب أيضا بحصني مرعش وتل حمدون، فضلاً عن مطالبته بمضاعفة الجزية المقررة على الملك ليو، فانصاع صاغراً لمطالب السلطان «ثم إن صاحب سيس ضاعف أيضا الجزية والحمل،وكثير من الهدايا والتحف من كل شيء»[2].

أما بهسنا هذه فهي قلعة حصينة، لها ضياع كثيرة وهي فم الدربند وباب حلب، وكانت في زمان الملك الناصر يوسف صاحب الشام داخله في ديوانه، فلما ملك المغول حلب كان في بهسنا نائباً عنه يقال له سيف الدين العقرب، فباعها لصاحب سيس بمائة ألف درهم، فاعطاه ستين الفا وتسلم القلعة، ومنعه الباقي، واستمرت في أيدي الأرمن إلى أن استعادها السلطان الأشرف خليل[3].

أما ملوك أرمينية الصغرى -بعد الملك ليو- فلم يلتزموا بما عاهدوا به، بل أخذوا يخلون بعهودهم بعد ذلك، فقد حاول الملك «سمباد بن ليو» استعادة بعض المدن التي سبق التنازل عنها للدولة الإسلامية، وقد رد السلطان حسام الدين لاجين بارسال حملة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بكتاش الفخري وعدد من الأمراء سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م هاجمت مدينة سيس العاصمة ، «فضاقت على الارمن البلاد بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل وغنم منهم المسلمون، فنسبوا ذلك إلى سوء تدبير سنباط(سمباد) وعدم مصانعته للمسلمين، فكرهوه واتفقوا على إقامة أخيه»[4]قسطنطين[5]، والقوات الإسلامية كانت ولا تزال حتى ذلك الحين تقيم في بلاد سيس وتحاصر بعض مدن المملكة، فلم يسع الملك قسطنطين إلاّ أن بذل الطاعة لأمير

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٢٢، المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٨٤.
(٢) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣٤٠.
(٣) ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية،ص٣٤٠-٣٤١.
(٤) ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص٣٥-٣٦، ابن الوردي، تتمة المختصر،ج٢، ص٣٤٦-٣٤٧.
(٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢١٧

القوات الإسلامية، كما أعلن «أنه نائب السلطان بهذه البلاد»، فتم الاتفاق معه على أن يتنازل عن البلاد والحصون الواقعة إلى الجنوب من نهر جيحان إلى دولة المماليك الإسلامية[1]، غير أن الأرمن ما لبثوا أن تنكروا لتلك الاتفاقية، وقد شجعهم على تغيير موقفهم هذا غزوغازان محمود زعيم المغول بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، وعندئذ اضطر المماليك إلى الانسحاب من المدن الارمنية التي كانت في حوزتهم.

كما لجأ ملوك أرمينية إلى فتح موانئهم أمام السفن الغربية في محاولة منهم لإحكام الحصار الاقتصادي على دولة المماليك وإضعاف مركزها التجاري[2]. وإزاء ذلك أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م حملة عسكرية على رأسها الأمير بكتاش الفخري لمهاجمة سيس العاصمة، وقد شارك فيها أبو الفداء في عسكر حماه وتحدث عنها بقوله «وانتشرت العساكر في بلاد سيس فحرقت الزروع ونهبت ما وجدت، ونزلنا على سيس وزحفنا عليها، وأخذنا من سفح قلعتها شيئا كثيرا من جفال الأرمن»[3].

وقد انتقم الأرمن من المماليك بالانضمام إلى المغول في حملتهم على بلاد الشام سنة٧٠٢هـ/١٣٠٣م، غير أن المماليك كانوا حريصين على ضرب مملكة أرمينية كلما حاولت أن تقوم لها قائمة، حتى لا تشكل خطراً على حدود دولتهم في شمال الشام، ولذلك وجه السلطان الناصر محمد حملة كبرى ضدها في أعقاب فراغه من أمر المغول سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م[4]. وقد دخل المسلمون «بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان وارتجعوها من الأرمن وهدموها إلى الارض»[5] ثم عادوا يسوقون عددا كبيرا من الأسرى وقدرا ضخما من الغنائم[6]. وفي سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٤م، ونتيجة لتأخر الملك الأرميني عن إرسال ما عليه من قطيعة، حرك نائب حلب بأمر من السلطان الناصر محمد حملة عسكرية إلى سيس، عدتها ثلاثون ألف مجاهد على رأسها الأمير سيف

---

(١) ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص٣٦-٣٧، ابن الوردي، تتمة المختصر، ق٢، ص٣٤٧.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢١٧-١٢١٨.

(٣) ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص٤٦-٤٧، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٥٧.

(٤) ابن ايبك الدواداري، الدر الفاخر، ص١١٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢١٨.

(٥) ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص٥١، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٦٢.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١، ص٩٤٩.

الدين قشتمر الشمسي المنصوري «فشنوا الغارات على بلاد سيس ونهبوا وحرقواكثيرا من الضياع وشتتوا النساء والاطفال»، وكان أن صادف في ذلك الحين وصول طائفة من المغول إلى سيس، فشاركوا الأرمن في الهجوم على القوات الإسلامية حتى هزموها وقتلوا وأسروا غالب أفرادها، وكانت ردة الفعل سريعة عند السلطان الناصر محمد فقد وجه الأمير بكتاش الفخري على رأس أربعة الآف فارس من القاهرة لمهاجمة سيس، لكن الأرميني خشي عاقبة الأمر، فارسل ما كان عليه من قطيعة «واعتذر بأن القتال لم يكن منه وانما كان من التتر، ووعد -نائب حلب- بالتحيل في إحضار الأمراء المأسورين، فرجع الأمير بكتاش بمن معه من غزة»[1].

واذا كان السلطان الناصر محمد قد عدل مؤقتاً عن إرسال حملة عسكرية ضد مملكة أرمينية إلاّ أنه طلب من ملكها ضرورة تسليم البلاد والقلاع التي تم الاتفاق على تسليمها في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين، وعندما امتنع الملك الأرميني(أوشين) عن ذلك[2]، حرك السلطان حملة عسكرية على رأسها عدد من الأمراء منهم شهاب الدين قرطاي والأمير العلائي الطنبغا سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م لمهاجمة أرمينية «فدخلوا إلى بلاد سيس في منتصف ربيع الآخر من هذه السنة الموافق للرابع والعشرين من أيار وساروا حتى وصلوا إلى نهر جيحان وكان زائدا فاقتحموه ودخلوا فيه فغرق من العساكر جماعة كثيرة، وكان غالب من غرق من التركمين (التركمان)الذين من عساكر الساحل، وبعد أن قطعوا جيحان المذكور وساروا ونازلوا قلعة سيس وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور وغنموا منها وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشي وكانت شيئا كثيرا واقاموا ينهبون ويخربون ثم عادوا....»[3].

وعندما تولى الحكم في أرمينية الملك «ليو الخامس» بعد وفاة والده أوشين بعيد تلك الحملة، أرسل إلى البابا حنا الثاني والعشرين يطلب المعونة ضد المسلمين فاستجاب البابا لاستغاثته وأصدر مرسوما يحظر التعامل التجاري مع الدولة المملوكية سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، ثم اتبعه بمرسوم آخر في العام التالي للغرض نفسه، وقد الحق ذلك

---

(١) ابن ايبك الدواداري، الدر الفاخر، ص١٣١، المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٧

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢١٩

(٣) ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص٨٨، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٨٤

ضررا بالغا بتجارة الدولة المملوكية، ولم يستطع السلطان الناصر محمد السكوت على ما قام به الأرمن، فحرك حملة عسكرية للإغارة على مدنهم سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م على رأسها الأمير علاء الدين الطنبغا نائب حلب، فاحتلت مدينة إياس ثم عادت، ولم يستطع البابا عمل شيء سوى إرسال بعض الأموال لمساعدة الأرمن، إلى جانب اتصاله بمغول فارس طالبا منهم الإسراع بنجدة أرمينية[١].

ولـمّا لم يحصل الملك «ليو الخامس» على المساعدة التي كان يرجوها من البابا أو من مغول فارس، فقد أسرع بارسال بطرق الأرمن محملاً بالهدايا الثمينة إلى السلطان الناصر محمد طالبا الصفح والصلح «واعتذر الرسول مما كان من متملك سيس واستأذن في عمارة أياس، على أن يحمل في كل سنة مائة ألف درهم، فأجيب إلى ذلك» وعقد الصلح معه سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م لمدة خمسة عشر عاما[٢].

وزادت هيمنة الدولة المملوكية على مملكة أرمينية وذلك عندما تخلص الملك ليو الخامس من الوصي عليه صاحب الكرك (وهي قليعة قريب البحر في أطراف بلد سيس من جهة الغرب، وكان صاحب الكرك هذا قد استولى على مملكة صاحب سيس بحكم صغر سن صاحبها ليو الخامس)، وأرسل رأسه بعد أن قتله إلى السلطان الناصر محمد «فارسل السلطان تشريفا وسيفا وفرسا بسرجه ولجامه مع الأمير شهاب الدين أحمد المهمندار بالأبواب الشريفة، فتوجه شهاب الدين المهمندار بذلك إلى الصبي صاحب سيس، فلبس صاحب سيس الخلعة وشدّ السيف وقبل الأرض ركب الفرس المتصدق به عليه وقويت نفسه بذلك»[٣].

على أن الملك ليو الخامس عاد وانقلب على الدولة المملوكية، وذلك عندما علم باستعداد الملك فيليب ملك فرنسا للقيام بحملة صليبية جديدة على الشرق، فخرق الاتفاقية وأغار على بعض البلدان الإسلامية في بلاد الشام[٤]، فرد السلطان الناصر ردا سريعا، إذا أرسل حملة عسكرية سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م على رأسها الأمير علاء الدين الطبنغا نائب حلب لمهاجمة أرمينية، ولم تعد هذه الحملة إلاّ بعد أن تم الاتفاق على

---

(١) ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص٩١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٠.

(٢) ابن ايبك الدواداري، الدر الفاخر، ص٣٠٨، المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٤٦.

(٣) ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص٩٩.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٠.

تنازل الملك الأرميني «ليو السادس» عن البلاد والقلاع التي تقع إلى الشرق من نهر جيحان إلى الدولة المملوكية منها: المصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكارد واياس ودباناس وبخيمة والنقير[1].

وقد استمر سلاطين الدولة المملوكية في مهاجمة مملكة أرمينية الصغرى إلى أن يسر الله القضاء عليها نهائيا سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م على يد السلطان الأشرف شعبان الذي وجه في تلك السنة حملة عسكرية كبرى إلى سيس على رأسها الأمير اشقتمر المارديني نائب حلب، فحاصرتها الحملة لمدة شهرين، إلى أن طلب صاحبها الأمان وسلم القلعة للمسلمين "فعلت كلمة أهل التوحيد بتلك البقعة بعد دهر طويل، وجهز اشقتمر صاحب سيس وجنده إلى القاهرة، ودقت البشائر بسبب ذلك" وفوض السلطان الأشرف شعبان نيابة سيس ليعقوب شاه وهو أول من حكم من ملوك الترك(المماليك)[2]. أما ملك أرمينية فظل في الأسر لبضع سنين إلى أن جمع البابا كلمنت السادس -بالاشتراك مع ملوك أوروبا- المال اللازم لفدائه، وعندئذ أطلق سراحه، فقضى بقية حياته في ايطاليا[3].

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٤٤٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر بابناء العمر، ج١، ص٩٧-٩٨.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢١ .

الباب الثاني

تجدد الحروب الصليبية ورد المماليك

الفصل الأول: اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط على سواحل مصر وبلاد الشام.

الفصل الثاني: غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة المماليك.

الفصل الثالث: غزو جزيرة رودس ومحاولات السيطرة عليها.

الفصل الرابع: اعتداءات البرتغال على سواحل شبة الجزيرة العربية ورد المماليك.

الفصل الأول

اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط

على سواحل مصر وبلاد الشام

لقد جاء تحرير بلاد الشام من براثن الاحتلال الصليبي على يد المماليك نهاية للمطامع الأوروبية في الشرق الإسلامي بعد قرنين من تأسيس دولتهم اللاتينية في بيت المقدس، ولذلك فقد صعقت أوروبا وعلى رأسها البابوية لفقدان مكتسباتها في هذه المنطقة الحيوية، فحاولت تجديد هذه الحروب بصورة أو بأخرى، وكان من الطبيعي أن تتزعم البابوية في أعقاب ذلك الانهيار الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية جديدة وإرسالها إلى الشرق لإعادة احتلال الأراضي المقدسة وإحياء وجودها فيها، ولا يخفى علينا أن دعوة البابوية هذه لم تكن لأسباب دينية -كما كانت تدعي على الدوام -بل كانت فرصة منها كي تتمكن من استعادة هيمنتها على ملوك وأمراء الغرب الأوروبي، تلك الهيمنة التي فقدتها منذ زمن طويل، فلعل حملة صليبية جديدة ترسل نحو الشرق تعمل على توحيد ملوك وأمراء المغرب الأوروبي في ظل ردائها البابوي.

وقد ساعدت البابوية في دعوتها، تلك التقارير التي كانت تتلقاها من دعاة تجديد الحروب الصليبية، فمنها على سبيل المثال لا الحصر، تقرير تقدم به «فد نزيو» احد الرهبان الفرنسيسكان سنة ١٢٩١م إلى البابا نيقولا الرابع شرح فيه تاريخ الأراضي المقدسة، ونوع الجيش الذي يلزم لإعادة احتلالها من أيدي المسلمين، والطريق المفضل الذي يسلكه ذلك الجيش للوصول إلى الشرق. وفي العام التالي تقدم داعي آخر ويدعى «ثاديوس» بتقرير شرح فيه كيفية سقوط عكا بيد المسلمين، وامتاز التقرير بالشدة والعنف، إذ أراد ثاديوس من خلاله استثارة الغرب الأوروبي من أجل إرسال حملة صليبية جديدة، واختتمه بنداء إلى البابا والملوك ليقوموا بعمل فعال لاستخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين .(١)

أما موقف البابوية العملي، فقد دعا البابا نقولا الرابع الى عقد المجالس

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٩٣.

الكنسية للمداولة في أنجع الوسائل وأفضل الطرق لتحقيق الهدف الذي كان يصبو إليه، كما طلب من فرقتي الداوية والإسبتارية توحيد نظاميهما والعمل بيد واحدة. ولكي يضفي على دعوته دعما دينيا فقد أصدر مرسوما حرم بموجبه الاتجار مع دولة المماليك، وهدد بتوقيع قرار الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أوامره من تجار الغرب، وكانت حجته في ذلك إلى أن مجرد الامتناع عن المتاجرة مع دولة المماليك سيؤدي حتما إلى حرمانها من المورد الرئيسي لثرائها وقوتها، مما يسهل القضاء عليها عسكريا وعندئذ يمكن للغرب الأوروبي أن يعيد احتلال الأراضي المقدسة مرة أخرى.[1]

كما حاول البابا اتخاذ اجراءات عسكرية سريعة لنجدة مملكة أرمينية بناء على استغاثة ملكها ضد دولة المماليك، فقد أرسل إليها الجيش الذي كان قد أعده لإعادة احتلال عكا، كما أرسل اسطوله البحري إلى مملكة قبرص لمشاركتها في تهديد مدينة الاسكندرية، واستمرت اتصالاته التي كان قد بدأها سابقا مع المغول للاشتراك معاً في الهجوم على بلاد الشام.[2]

غير أن دعوة البابا في استثارة الغرب الأوروبي لإرسال حملة صليبية إلى الشرق قد باءت بالفشل، إذ أن الملوك والأمراء الذين دعاهم لم يلبوا الدعوة وأداروا ظهورهم له.[3] كما أن دعوته إلى فرض حصار اقتصادي على دولة المماليك وحرمان الاتجار معها لم يلاق النجاح الكافي -نجح نسبيا في مملكة أرمينية لفترة وجيزة- فقد عاد التجار الأوروبيون وبخاصة تجار المدن الإيطالية للمتاجرة مع المماليك[4] فمات البابا نيقولا كاسف البال سنة ١٢٩٢م.[5]

على أن الدولة التي شكلت خطراً على دولة المماليك هي مملكة قبرص التي أصبحت بعد تحرير عكا الملجأ الذي لجأ اليه بقية الصليبيين المنهزمين من بلاد الشام،

---

(١) سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص٦٤٢، أحمد دراج، المماليك والفرنج، ص٧.

(٢) سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٦٤٢-٦٤٣.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٩٢.

(٤) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي، ص٢٥.

(٥) سعيد عاشور،المصدر نفسه، جـ٢، ص١١٩٢.

وقد وجد فيهم الملك هنري الثاني أداة صالحة لتنفيذ سياسته العدوانية ضد دولة المماليك.[1]

وقد بدأ هنري الثاني أولى اعتداءاته على سواحل بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م بالاتفاق مع غازان محمود زعيم المغول الذي هاجم بدوره بلاد الشام واحتل دمشق لبضعة أشهر، وقد أرسل هنري الثاني قطعا بحرية وصلت مقدمتها إلى البترون ونزلت في مياهها بانتظار الجيش الملكي الذي كان في طريقه إليها، ولكن قبل وصول هذا الجيش انضمت إليها وحدات نصرانية مارونية انحدرت من جبل لبنان، واتجهوا جميعا لمهاجمة مدينة طرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها تصدت لهم ودحرتهم وقتلت قادتهم، كما أوقعت الوحدات النصرانية المارونية في الأسر.

وكان أسطول جنوي في الوقت ذاته يقتحم جبيل ويستولي عليها ثم يتركها دون أن يبقى له أثرا فيها.

وفي السنة التالية ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م شن هجوما على سواحل مصر، فقد أرسل اسطولا بحريا بقيادة «بودوان دي بيكيني»، الذي أبحر من مرفأ فماجوستا القبرصي إلى مدينة الرشيد، حيث رسا هناك، ثم أقدم مائة فارس من قواته على اقتحام المدينة وتخليص الأسرى المغول والصليبيين الذين كانوا فيها منذ تحرير عكا، ثم دخل الأسطول مياه الإسكندرية بقصد إرهاب أهاليها، وغادرها مبحرا صوب الساحل الشامي وقد نزلت قواته في عكا وطرطوس حيث اشتبكت هذه القوات مع الوحدات الإسلامية المرابطة فيهما، ثم عادت الحملة إلى قبرص دون الحصول على نتيجة تذكر.[2]

وفي السنة ذاتها وتنفيذا للتحالف بين الصليبيين والمغول أرسل ملك قبرص حملة أخرى تألفت من عدة سفن حملت على متنها ثلاثمائة فارس قبرصي ومثلهم ايضا من فرقتي الداوية والاسبتارية، وقد كمنت هذه الحملة بالقرب من ساحل طرابلس واتخذت من جزيرة أرواد نقطة تجمع وانطلاق، وفي اثناء انتظارهم لقوات المغول التي كانت تهاجم ضواحي حلب في ذلك الحين، احتل الصليبيون مدينة طرطوس، غير ان

---

(١) سعيد عاشور، المصدر نفسه، جـ٢، ص١٢٢٣، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص٧١.

(٢) سعيد برجاوي، الحروب الصليبية، ص٦٤٤-٦٤٥.

اقتراب القوات الإسلامية من المدينة جعلهم ينسحبون منها.[1] أما جزيرة أرواد فقد تجمع فيها عدد كبير من الصليبيين وشيدوا فيها سورا وجعلوها مركزا لتحصنهم، ومن هناك أخذوا يشنون عمليات القرصنة البحرية على المسلمين المترددين على الساحل.
أزاء ذلك أمر السلطان الناصر محمد بإنشاء أربع سفن حربية بدار الصناعة في مصر سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م لفتح هذه الجزيرة، وبتكامل إنشائها شحنها بالمقاتلين والآت الحرب، ثم أبحرت بقيادة الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري باتجاه طرابلس حيث أردفها الأمير أسندمر الكرجي بقوات اخرى من جيش طرابلس، ثم ابحرت الحملة صوب الجزيرة، فهاجمتها وقتلت وأسرت جميع الصليبيين فيها وخربت أسوارها، وكان عدد من قتل من الصليبيين فيها يقارب الألفين، أما الأسرى فكانوا في نحو خمسمائة أسير، ثم عادت الحملة بالأسرى والغنائم.[2]

على أن الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية جديدة وإرسالها نحو المشرق الإسلامي ظلت فكرتها تتسع في الغرب الأوروبي في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، فقد وضع «ريموند لول» مشروعا سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م دعا فيه إلى كسب المسلمين وطوائف النصارى الشرقيين إلى جانب معسكر الكنيسة الغربية (البابوية) عن طريق التبشير، وفي ذات الوقت إرسال حملة صليبية إلى الشرق يرأسها أحد ملوك الغرب الأوروبي وتشترك فيها جميع هيئات الفرسان من داوية وإسبتارية وتيوتون وغيرهم، كما وضع ريموند لول في مشروعه ذاك تصوره في كيفية سير هذه الحملة وخططها مستفيدا من درايته بطبيعة البلاد الإسلامية ومعرفته باللغةالعربية من خلال رحلاته المتعددة فيها، وكان تصوره أن تبدأ الحملة من اسبانيا حيث يقوم الصليبيون بطرد المسلمين منها، ثم ينتقلون إلى شمال افريقية ويزحفون بحذاء الساحل إلى تونس ثم مصر، في الوقت الذي يتخذ الأسطول الصليبي من جزيرتي مالطة وردوس قاعدتين لمساعدة الحملة البرية في محاربة المسلمين، كما دعا في سبيل إنجاح مشروعه إلى استيلاء الصليبيين الغربيين على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت على علاقات

---

(١) سعيد برجاوي، الحروب الصليبية، ٦٤٨.

(٢) ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص٤٧، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص٢١، ابن ايبك الدواداري، الدر الفاخر، ص ٣٣٨.

ودية مع دولة المماليك.

كما خرج الملك هنري الثاني ملك قبرص بمشروع آخر رفعه إلى البابا «كلمنت الخامس» دعا فيه إلى ضرب حصار بحري على سواحل مصر وبلاد الشام لمدة عامين أو ثلاثة بشرط أن يكون الأسطول الصليبي المكلف بالحصار مستقلا تمام الاستقلال عن الجمهوريات الايطالية التجارية التي تشكك هنري الثاني في اخلاصها للغرض الصليبي، وكان تصور هنري الثاني أن ذلك الحصار سيضعف دولة المماليك إلى درجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بارض مصر نفسها، حتى إذا ما تم ذلك أصبح احتلال بلاد الشام والاستيلاء على الأراضي المقدسة أمراً يسيراً ما دامت قبرص تتولى امداد القوات الصليبية بالرجال والمؤن إلى أن تحقق الهدف.[1]

وبلغ من تحمس هنري الثاني أن شرع في تجهيز حملة صليبية، واتفق مع بعض ملوك أوروبا على بناء ستين قطعة حربية لغزو دمياط، ولمّا كانت الدولة المملوكية تراقب الموقف عن كثب فقد أمر السلطان بيبرس الجاشنكير ببناء جسر يمتد من القاهرة إلى دمياط خشية نزول الصليبيين وقت فيضان نهر النيل، وأمر ببناء جسر آخر بطريق الإسكندرية، على أن حملة الصليبيين لم تتم آنذاك.

وفي زخم تلك المحاولات لتشكيل حملة صليبية استغلّ الملك الفرنسي «فيليب الرابع» الموقف وأعلن عن عزمه على قيادة حملة جديدة، وتحت ستار الاستعداد لها، أخذ يحصل أموال الكنيسة ويصادر أموال فرقة فرسان الداوية وذلك سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م. وعندما اكتشفت البابوية عدم جديته فقد سعت إلى استشارة اصحاب الخبرة في قتال المسلمين من ملوك النصارى وغيرهم، ومن اولئك الملك هيثوم الأول ملك أرمينية السابق -الذي كان قد اعتزل في أحد أديرة فرنسا- فأوصى بإعداد حملتين. الأولى بحرية بحيث تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدة لها، والثانية برية بحيث تتحالف مع الأرمن والمغول، واستشارت البابوية أيضا أحد رجالاتها ويدعى «وليم آدم»، والذي أشار بضرورة احتفاظ الصليبيين بأسطول في المحيط الهندي لقطع تجارة المماليك مع الشرق الأقصى، كما أشار إلى ضرورة الاستيلاء على القسطنطينية.[2]

وعندما تولى فيليب السادس عرش فرنسا أراد أن يجرب أقصر الطرق وأسهلها

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢،ص١١٩٣-١١٩٤، ١٢٠٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢،ص١١٩٤-١١٩٥.

-كما توهم- لعله يحقق ما يصبوا إليه من مجد في السيطرة على الأراضي المقدسة، ولكن دون أن يخرج على رأس حملة صليبية لقتال المسلمين، فبلغت به السذاجة أن أرسل سفارة إلى السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م. طالبا منه تسليم بيت المقدس والساحل اليه، غير أن سفارته عادت إليه مهانة ومطرودة.[١] وإذ فطن فيليب إلى ما كان عليه من سذاجة أخذ يعمل على تجهيز حملة عسكرية، وفي سبيل ذلك أباح له البابا «حنا الثاني والعشرون» سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م. جمع ضريبة العشور لمدة سنتين فقط. كما أباح له في السنة التالية بيع صكوك الغفران للغرض نفسه.

ولقد لجأ الملك فيليب إلى استشارة الخبراء الذين لهم دراية بشؤون الشرق، فقدم له «بركارد» أحد دعاة الحروب الصليبية مشروعا سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م،يقضي بالاستيلاء على بيت المقدس عن طريق البر عبر القسطنطينية، بيد أن مستشاري الملك استبعدوا مشروع بركارد وفضلوا الطريق البحري، ولمّا مال فيليب إلى رأي مستشاريه، فقد عقد اجتماعا مع ملك قبرص وممثلي الاسبتارية والبندقية في حضرة البابا حنا الثاني والعشرين وتم الاتفاق بينهم على تسيير الحملة، ولمّا لم يبق إلاّ التنفيذ، حدث في أوروبا ما لم يكن في الحسبان، فقد تجددت في ذلك الوقت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا فتحطم المشروع وفشلت الحملة.[٢]

غير أن فشلها لم يكن يعني توقف الاعتداءات الصليبية على الموانىء الإسلامية، فقد استمرت مملكة قبرص وحلفاؤها في حوض البحر المتوسط في شن الغارات على الموانىء الإسلامية في مصر وبلاد الشام بين الفينة والأخرى، ومن أشهرها تلك التي حدثت سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م. فقد قدمت لهم حملة بحرية في أواخر جمادى الأولى/ نيسان من تلك السنة مؤلفة من سبعة مراكب جازت أولا على بيروت ثم توجهت إلى صيدا، وقد فاجأ الصليبيون الناس في صيدا فجر يوم الجمعة، حيث دخلوا المدينة وقتلوا طائفة من أهلها، وأسروا طائفة أخرى، ونهبوا شيئا كثيرا، غير أن تلك المفاجأة لم تربك المسلمين بالقدر الذي أراده الصليبيون، فقد تصدوا لهم وقتلوا منهم بضعاً وثلاثين رجلاً، أرسلت رؤوسهم بعد انتهاء الحملة إلى دمشق لتعلق على القلعة هناك، وحضر إلى صيدا الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفد، وسبق العسكر

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٣١٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٩٥-١١٩٨.

الشامي، ولحق بالمراكب الصليبية على جزيرة تلقاء صيدا ولكن بعد فوات الأوان، فقد تحصن الصليبيون في الجزيرة، وعندئذ راسلهم المسلمون في انفكاك الأسرى من أيديهم فتم الاتفاق على دفع مبلغ للصليبيين قدره خمسمائة درهم عن كل أسير، فَدُفِع ثلاثون ألف درهم، ثم رحل الصليبيون بما حصلوه من الغنائم.(١)

الحملة الصليبية على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م :

منذ أن اعتلى «بطرس لوزجنان» عرش قبرص سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م. صمم على أن يجعل من نفسه البطل الذي سيجدد الحروب الصليبية ضد الإسلام وأهله ويعيد احتلال الأراضي المقدسة من جديد، ولذلك لم يقنع بالغارات المحلية الصغيرة التي كانت تشنها مملكة قبرص، وحلفاؤها على بعض الموانيء الإسلامية، وانما تطلع إلى قيادة حملة صليبية ضخمة يستطيع من خلالها ضرب الدولة المملوكية ضربة قاسمة لعله ينفذ بعدها عبر البوابة المصرية إلى الأراضي المقدسة، وفي سبيل ذلك قام برحلة طويلة في غرب أوروبا بين سنتي(١٣٦٢-١٣٦٥). للدعاية لحملته والحصول على المساعدات التي تمكنه من تنفيذ مأربه. وبتأييد من البابوية ودعمها حصل على كثير من المساعدات من ملوك وأمراء الغرب الأوروبي.(٢)

واستطاع بطرس لوزجنان إعداد حملة صليبية كبيرة جعل نقطة تجمعها في جزيرة رودس، وكانت عدتها بعد اكتمال تجهيزها ما بين سبعين إلى ثمانين سفينة، كان للبندقية منها أربع وعشرون سفينة، ولجنوا سفينتان، ولرودس عشر سفن، ولفرنسا خمس سفن، اما بقيتها فكانت لقبرص.(٣)

وكانت أخبار استعداداته تصل تباعا إلى الإسكندرية، مما جعل نائبها الأمير زين الدين خالد يهتم بتحصينها، ويرسل إلى الأمير يلبغاالخاصكي مقدم الجيوش في القاهرة والوصي على السلطان الأشرف شعبان -بسبب صغر سنه- طالبا منه الإعانة لمواجهة الموقف، غير أن الأمير يلبغا لم يكترث للأمر ورد على الأمير زين الدين بقوله:

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٩.

(٢) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، جـ٢،ص١١٠، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص٥٦.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٠٧.

«إنّ القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية. »[1]

أما الملك القبرصي بطرس لوزنجان، فقد اختار الإسكندرية كنقطة مهاجمة بعد أن أشار عليه خواصه بذلك.[2] إلاّ أنه حرص على كتمان جهته هذه لعدم اطمئنانه إلى إخلاص الجمهوريات الإيطالية له، وخشية من أن تذيع سر حملته وتحذر السلطان المملوكي منها، فاتجه أولاً إلى جزيرة كرامبوسا (إحدى جزر آسيا الصغرى) وهناك أعلن عن وجهته، فوصل إلى الإسكندرية يوم الأربعاء ٢٠ محرم ٦٦٧هـ/٨ تشرين أول ١٣٦٥م.[3] وعندما رأى أهل الاسكندرية طلائع تلك السفن ظنوها سفنا تجارية للتجار البنادقة إذ كانوا ينتظرونها على جاري عادتهم في كل سنة، ثم ما لبثوا أن اكتشفوا حقيقة الأمر عندما لم تدخل تلك السفن الميناء في يوم وصولها، بل ظلت تستعرض قوتها إلى أن رست في صبيحة اليوم التالي، ببحر السلسلة وهو الميناء المحذور على السفن النصرانية دخوله.[4]

وعندئذ حشد الأمير جنغرا -الذي كان ينوب عن الأمير صلاح الدين خليل بن عرام في نيابة الإسكندرية بسبب ذهابه لأداء مناسك الحج آنذاك- كل ما لديه من قوات على حافة الشاطىء في الربط وأمام الأسوار في شبه جزيرة الميناء لصد الصليبيين في حين خرج الباعة للتكسب في منطقة الشاطيء «وهم معلنون بلعن كل راهب و قسيس..ثم انهم ما فزعوا من الإفرنج باجتماع أفروطتهم (الأسطول) يوم الخميس، بل صاروا يلعنون القبرصي كلعنهم لإبليس» .[5]

أما بطرس لوزجنان فقد اهتم بالكيفية التي تمكنه من الاستيلاء على المدينة، ولذلك أنفذ جواسيسه إليها ليحيطوه علما بأحوالها وحصونها ونقاط القوة و الضعف

---

(١) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، جـ٢، ص١١١.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢،ص١٢٢٥.

(٣) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، جـ٢، ص١٣٦، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر،ص٢٤٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢،ص١٢٢٥

(٤) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، جـ٢، ص١٣٦-١٣٧، المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٠٥ .

(٥) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، جـ٢،ص١٣٩-١٤٠ .

فيها، وعلى ما روى النويري السكندري، فان بطرس لوزجنان قد دخل بنفسه إلى الإسكندرية في زي أحد التجار ونزل عند كاتب الديوان بها شمس الدين ابن غراب الذي تواطأ معه مما اتاح له فرصة التعرف على احوال المدنية ويبدو أن واليها بن عرام قد عرف عن خيانة ابن غراب بعد ان عاد من الحجاز في أعقاب الحملة، فأمر بقتله.(١)

وبعد أن تعرف بطرس لوزجنان على احوال المدينة، حدد يوم الجمعة ٢٢محرم/ ١٠ تشرين أول واثناء وجود المسلمين في المساجد موعدا لشن الهجوم، وأرسل في ليلتها مجموعة من فرسانه إلى البر، لإحداث الفزع بين صفوف المسلمين ومهاجمتهم من الخلف اثناء انشغالهم بالتصدي للصليبيين قبالة الشاطيء،فكمن الفرسان في المقابر بظاهر المدينة، ريثما يحين موعد الهجوم.(٢)

وكانت جموع من العربان قد وصلت إلى الإسكندرية قبل شمس يوم الجمعة، وقد شد ذلك من أزر أهلها، غير أن تلك الجموع على الرغم من كثرتها لم يكن لها أي تأثير عسكري بحيث تستطيع تغيير مجرى المعركة المنتظرة نظرا لافتقارها إلى التنظيم والسلاح، فضلاً عن غياب الوازع الديني لديها -لما احدثته من سلب فيما بعد- وإن كانت قد نجحت في استعراضها أمام أهل الإسكندرية وبخاصة النساء «فزرغتت النسوان لتلك العربان، وقلن: قد أتت الشجعان، يقتلون عباد الصلبان، فصاروا يتطاردون على خيولهم تحت الكيمان، وقد أرخو لها الأعنة عند سماعهم الزرغته، وتلك العربان من كثرتهم كالمطر، خارجين من الباب الأخضر(أحد أبواب الإسكندرية) فصاروا في الجزيرة كالجراد المنتشر وكل من سرابيل الحرب منقشر، ليس مع كل واحد منهم غير سيفه الأجرب ورمحه قاصدا إما لقتله أو لجرحه».(٣)

---

(١) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، جـ٢، ص١٤١-١٤٢، ١٥٨، ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٥٦، العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية، ص٣١٢.

(٢) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، جـ٢، ص١٤٦، المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٠٥، سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، جـ٦٢-٦٣، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٥، سعاد ماهر، البحرية في مصر الاسلامية، ص١٢٠ .

(٣) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، ج٢، ص١٤٢-١٤٣.

ولـمّا استـشـعـر بعض المغـارية -الذين كـانوا يـرابطون في المدينة مع المـاليك- الخطر يحدق بالمدينة عرضـوا على الأمـيـر جنغـرا رأيهم القـاضي بـوجـوب دخـول المدينة والتحصن بأسوارها، غير أن الأمير جنغرا لم يقبل برأيهم نزولاً عند رغبة الكثير من المرابطين الذين رفضوا ذلك الرأي.[1]

وفي الموعـد المحدد ضحى نهار يوم الجـمـعـة ٢٢مـحـرم/ ١٠تشرين اول بدأ الملك بطرس لوزجنان بشن هجومه البحري على المدينة واستطاع اقتحامها بعد صلاة الجمعة، على الرغم من المقـاومـة الشـديدة التي ابداها المجـاهدون في الدفـاع عنهـا،[2] وكـان الصليبيون اكثر عدة وعددا من المسلمين، وقد نقل لنا السكندري صورة الموقف بقوله: «فنزلت الفرنج سريعـا من مراكبهـا بخيلها ورجلها وقت ضحى نهار يوم الجمعة إلى البـر، فرمت الخـيالة المسلمون بالسـهام، تقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام،...وكانت الفرنج مسربلة بالزرد النضيد، متجلببة بصفائح الحديد على رؤوسهم الخوذ اللامعة، وبايديهم السيوف القاطعة، قد تنكبوا القسي الموتورة ورفعوا أعلام الصلبان المنشورة، وصاروا يرمون على المسلمين. فارتشقت سهامهم في أهل الإيمان وفي خيـول العـربان، فـهـجّت بهم تلك الخـيـول في كل جـهـة و مكان، فـانـهـزمـوا إلى نـاحـيـة السور، فصار جيش المسلمين بهزيمة العرب مكسوراً، ولا عادوا قابلوا الفرنج الكلاب، بل دخلوا البلد غائرين من الأبواب، وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم. والمسلمون كلحم على وضم، فكيف يقاتل اللحم الحديد، وكيف يبرز العاري لمن كسى الزرد النضيد، فانهزم المسلمون وولوا، ومن الكفار فروا».[3]

ودخل بطرس لوزجنان المدينة راكبا، بينما«استلم الفرنج الناس بالسيف ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق وأسروا وسبوا خلائق كثيرة واحرقوا عدة اماكن، وهلك في الزحام بباب رشيد (أحد أبواب الإسكندرية) مـا لا يقع عليه الحصر، فأعلن الفرنج بدينهم، وانضم اليهم ما كان بالثغر من النصارى، ودلوهم على دور الأغنياء فأخذوا ما فيها واستمروا كذلك يقتلون ويأسرون ويسبون وينهبون ويحرقون من ضحوة نهار الجمعة إلى بكرة نهار الأحد، فرفعوا السيف وخرجوا بالأسرى والغنائم إلى مراكبهم،

(١) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، جـ٢، ص١٤٣-١٤٥.

(٢) م.ن، جـ٢، ص١١٣، عـ١٤٦-١٤٧.

(٣) م.ن، ج٢، ص١٤٧-١٤٨.

وأقاموا بها إلى يوم الخميس...ثم اقلعوا ومعهم خمسة الآف أسير فكانت اقامتهم ثمانية أيام.»[1]

ومما زاد الأمر سوءا على أهل الإسكندرية أن العربان الذين قدموا لنجدتها قد اقتنصوا الفرصة وأخذوا في النهب والسلب، فوقع السكندريون بين نارين وتشتتوا في الحقول والقرى المجاورة للإسكندرية حيث ساءت حالتهم بسبب نقص الطعام وعدوان العربان.[2]

أما الأمير جنغرا فكان قد خرج من الإسكندرية بعد أن أخذ معه ما كان في بيت المال من أموال، كما اقتاد خمسين تاجرا من التجار الأوروبيين كانوا في المدينة واتجه إلى دمنهور.[3]

ولمّا سقطت الإسكندرية في يد بطرس لوزجنان عقد اجتماعا حربيا مع قادته للتشاور في المرقف الجديد، وكان من رأيه أن يبقى الصليبيون في المدينة ويقومون بالدفاع عنها فيما إذا حاول المماليك استعادتها، غير أن أغلبية قادته فضلوا الاكتفاء بما حققته الحملة والانسحاب من الإسكندرية، عندئذ غادرها بطرس لوزجنان على رأس حملته عائدا إلى قبرص، في الوقت الذي قدم فيه الأمير يلبغا الخاصكي على راس جيشه،ولكن بعد فوات الأوان.[4]

وقد علق المقريزي على ما حل بالإسكندرية جراء حملة بطرس لوزجنان بقوله: «فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مرّ بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت احوالها واتضع أهلها وقلت أموالهم وزالت نعمهم ».[5]

وقبل بيان ما تمخضت عنه الحملة من نتائج، يجدر بنا الوقوف عند مجمل الأسباب التي أدت إلى تلك الفاجعة الكبيرة، فقد كانت الظروف التي تعيشها الدولة

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، جـ٢ ، ص١٦٢ ، سعيد عاشور الحركة الصليبية جـ٢، ص١٢٢٥، سعد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢٠ .

(٣) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، جـ٢ ، ص١٥٦، المقريزي، السلوك، جـ٣، ص ١٠٨.

(٤) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٤٩.
Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. P364.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٠٨ .

المملوكية آنذاك غير مستقرة، فالسلطان الأشرف شعبان كان صغير السن لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ولم يكن له من السلطة إلاّ الإسم، أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير يلبغا الخاصكي الذي استأثر بالنفوذ وتحكم في أمر البلاد والعباد، كما لم تكن حامية الإسكندرية من القدرة عدة وعدداً بحيث تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين، ولم تتمكن القاهرة من إرسال نجدة سريعة إلى الإسكندرية بسبب فيضان نهر النيل وما نتج عنه من غمر الدلتا بالمياه في ذلك الوقت.[1] أما السبب المباشر كما يراه النويري السكندري فهو عدم تمتع جنغرا بالكفاءة العسكرية، فقد ارتكب خطأ عسكرية فادحا عندما أبقى الحامية العسكرية متمركزة في الربط المقامة على حافة الشاطيء، في شبه جزيرة الميناء، ولم يقم بنقلها إلى داخل المدينة لكي تقاتل خلف الأسوار بناء على ما أشار به المغاربة.

وقال في ذلك: «ولو كان المسلمون تركوا للقبرصي الجزيرة وتحصنوا بالسور وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور، لكان المسلمون بتحصينهم بالثغر سلموا من القتل والنهب والأسر».[2]

أما الملك القبرصي فقد اقيمت له الاحتفالات العظيمة بعد أن عاد إلى مقر ملكه، هذا في الوقت الذي أخذ يرسل فيه الرسائل إلى البابا وملوك الغرب الأوروبي يخبرهم بما أحرزه من انتصار، ويوضح لهم الأسباب التي دفعته إلى الجلاء عن الإسكندرية مع التأكيد لهم بعزمه على معاودة الكرة مرة أخرى إذا وجد عونا منهم.[3] كما قام بتقسيم الأسرى المسلمين والغنائم التي حازها بين أولئك الملوك.

وقد أحدثت هذه الحملة دوياً شديداً في الغرب الأوروبي، فأرسل البابا إلى بطرس لوزجنان مهنئاً، كما أرسل إلى ملوك الغرب وأمرائه يناشدهم أن يسرعوا في تقديم المساعدة إلى ملك قبرص، ولم تلبث أن دبت الحماسة في شارل الخامس ملك فرنسا فأرسل إلى الملك بطرس يخبره بأنه سوف يبعث إليه بجيش عظيم يحطم به المسلمين. كذلك سمع كثير من المغامرين من فرسان أوروبا بوفرة الغنائم التي غنمها الصليبيون من الإسكندرية فنزحوا إلى قبرص للدخول في خدمة بطرس لوزجنان، وطلبوا غداة

---

(١) Atiya, op. cit, PP 351-352.

(٢) النويري السكندري، الالمام بالاعلام، جـ٢، ص١٤٤-١٤٥

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢٢٦.

وصولهم القيام بهجوم صليبي فوري على المسلمين، غير أن الأمر لم يتعد ذلك، فلم يلب أحد من ملوك أوروبا وأمرائها نداء البابا بل إنهم لاموا بطرس لوزجنان لتخليه عن الإسكندرية.

على أن حملته تلك تعتبر فاشلة من الناحية العسكرية بالنظر إلى الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه وهو الاستيلاء على الإسكندرية والاحتفاظ بها لكي تكون قاعدة للانطلاق منها نحو بيت المقدس، وكل ما فعله بطرس لوزجنان هو السلب والنهب والقتل، ثم أسرع فارا من المدينة قبل أن يدهمه المسلمون.[1]

وقد احدثت هذه الحملة وما تلاها من حملات انفعالاً شديداً لدى المماليك ظل يتفاعل إلى أن ترجم عسكريا بالسيطرة على جزيرة قبرص واخضاعها لنفوذهم.

أما ردور فعل المماليك الفورية فقد تمثلت في ثلاثة مواقف.

الموقف الاول: وهو الاستعداد لغزو الصليبيين في عقر دارهم. فقد اهتم الأمير يلبغا الخاصكي بصناعة السفن البحرية في موانيء مصر وبلاد الشام، غير أن وفاة الخاصكي في أواخر سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م، وما أصاب الدولة من ظروف داخلية حال دون تسيير حملة بحرية صوب جزيرة قبرص في ذلك الحين.[2]

أما الموقف الثاني: فكان أن أصدر الأمير يلبغا الخاصكي، في أثناء استعداده لغزو قبرص-مرسوما يقضي بالزام النصارى في كافة أرجاء مصر وبلاد الشام بحمل أموالهم إلى الدولة لفكاك أسرى المسلمين من أيدي الصليبيين -.[3]

واما الموقف الثالث: فكان أن اتخذت الدولة المملوكية خطوة ذات مغزى سياسي وديني وهي إغلاق كنيسة القيامة في بيت المقدس، في محاولة للضغط على النصارى الأوروبيين لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من ناحية، ولكي يكفوا عن المشاركة في حملات جديدة.

وقد أحدث ذلك رداً سريعا لدى البنادقة بشكل خاص، فقد أرسلوا وفداً إلى السلطان الأشرف شعبان مطالبين بالصلح، وفتح كنيسة القيامة وتمكين تجارهم من

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢٢٦-١٢٢٧ .

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١١٣ .

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص٣١٤-٣١٥، المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٠٧

انظر نص المرسوم في الملحق.

القدوم إلى مصر مقابل أن يعملوا على إطلاق سراح الأسرى المسلمين، غير أن السلطان الأشرف والأمير يلبغا -قبل وفاته- أرادا إحداث مزيد من الضغط على الأوروبيين فرفضا مطلبهم واجابا: «بانه لا بد من غزو قبرص وتخريبها».[1] ويلاحظ أن هذا الرد قد جاء في أوج استعداد المماليك لغزو قبرص .

أما ملك جنوا فاراد التنصل من مشاركته في الهجوم على الإسكندرية. فقد انفذ الى السلطان الأشرف شعبان نصيبه من الأسرى المسلمين الذين أرسلهم إليه الملك بطرس لوزجنان، وكان عددهم ستين أسيرا، كما أرسل هدية للسلطان وللأمير يلبغا«وذكر أن هذه الأسرى كانت نصيبه، واعتذر بأنه لم يعلم بواقعة الإسكندرية إلا بعد وقوعها وأنه مستمر على الصلح ومتى قدر على أخذ متملك قبرص قبضه وقتله، فقبلت هديته وأثنى الأسرى عليه خيراً».[2]

وكان لهذا الاعتداء السافر صدى كبير في العالم الإسلامي شرقا وغربا، ففي الأندلس غربا، لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى بالإغارة على النصارى الإسبان في مدينة جيان التابعة لملك قشتالة، ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين الخطيب على لسان سلطانه ابي عبدالله محمد الخامس الغني بالله إلى سلطان بني مرين بفاس يصف له فيها حملته على جيان ودوافعها بقوله:

«سلام كريم بفتح الفتوح المؤيد بالملائكة والروح...فنوينا أن ترفع بها هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد ونقصنا اطراف البلاد عن أولي الجلادة والجلاد في المحرم سنة ٧٦٨هـ/(١٣٦٦م)، بعد سنة كاملة من حادث الإسكندرية، ونادى منادي الحمية: يا لثارات أهل الإسنكدرية».

أما المشرق الإسلامي، فان الخان المغولي أويس بن الشيخ حسن برزج (العظيم) سلطان الدولة الجلائرية المغولية بالعراق وفارس حينما بلغه خبر تلك المذبحة تألم الما كبيرا وتصادف أن جماعة من تجار الفرنج دخلوا بلاده لبيع اقمشة ومنسوجات في مدينة تبريز، فقبض عليهم وأحضرهم وقال لهم:

«هذا قماش الإسكندرية نهبتموه منها وجئتم تبيعونه ببلدي» فقالوا: لا

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١١٩ .محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥١.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٢٢-١٢٣، وقد اشار المقريزي الى ان جنوا قد شاركت في الحملة على الاسكندرية بسفينتين، ولعل ذلك لم يكن من قبل ملك جنوا- اذا صدق- بل من قبل متطوعين .

والمسيح ما نهبناه ولكن اشتريناه ممن نهبه، فقال كذبتم بل افسدتم بلد المسلمين يا كلاب واتيتم تبيعون اقمشتهم ببلدي، فعند ذلك أمر بالحوطة على اموالهم وقتلهم عن آخرهم قيل كان عدتهم ثمانمائة علج، هكذا اخبرت عنهم تجار البغاددة الواردين إلى الإسكندرية ببضائعهم».

وعندما ورد على السلطان أويس، رسل ملوك الفرنج يطلبون منه السماح لتجارهم بدخول بلاده. فقال لهم السلطان أويس:

«انا اسمي أويس بن حسن بن حسين، مسلم ابن مسلم، وانتم تعتدون على بلاد المسلمين وتأتون بلادي بمتاجركم تبتغون الفضل؟ لا والله لن أرضى بذلك ولو سبقني ملك إلى قتل الرسل لقتلكم، ولكن ارجعوا من حيث أتيتم واجتهدوا في صلحكم مع سلطان مصر، واستدركوا ما افسدتم من الحال الذي فعلتم بالاسكندرية فان اتيتموني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته، مكنتكم حينئذ تبيعون ببلدي وتبتاعون منه ما تختارون، وان لم تفعلوا ذلك وعدتم إلى بلدي فليس لكم عندي إلاّ السيف»، فرجعوا بالخيبة من حيث أتوا مردود عليهم هداياهم»[1].

ولقد أنشد الشعراء في رثاء الإسكندرية قصائد كثيرة، ومما نظمه الشيخ شهاب الدين أحمد بن ابي حجلة التلمساني قوله-على البحر الطويل-:

إلا في سبيل الله ما حل بالثغر	على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتاها من الفرنج سبعون مركبا	فصاحت بها الغربان في البر والبحر
فما فاز منها غيرهم بدخولها	ولا فتحت من بعد فاتحها عمرو
ولا نبعت منها القنا من دمائهم	إلى أن أسالوا الدم في البحر كالنهر
وصير منها ازرق البحر أسودا	بنوا الأصفر الباغون بالبيض والسمر
أقاموا على التثليث فيها ثلاثة	كمعبودهم في النهب والقتل والأسر
لئن نهب الإفرنج جانب بحرها	فقد نهب العريان جانبها البر
فكم من فقير عاش فيها من الغنى	وكم من غني مات فيها من الفقر

(١) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣١٦-٣١٩.

وكم قتلوا فيها كبيرا ونصّروا صغيرا من الأسرى ولا سيما البكر
فيالك من هول عظيم وفتنة اضر على الإنسان من فتنة القبر
وقد اخذوا في أخذها الطالع الذي به أخبر الكهان في سالف الدهر
فلو كان فيها مثل ما كان عسكر يصول بذات الحرب فيها مع الصقر
لما ظفر الغربان فيها بنقرة ولا نابها خطب بناب ولا ظفر
وقد أسرت قلبي الأسارى بأسرهم فواعجبا من أسر من هو في الأسر
وصارت ذوات الحلى بالأسر عندهم وليس لها حلى سوى المدمع الدر
خلا ربعهم من أنسبهم وتفرقوا أيادي سبايا السبي في آخر الشهر[1]

استمرار الاعتداءات الصليبية:

عندما تلقى البنادقة رداً حازماً من السلطان والأمير يلبغا، عملوا على إقناع بطرس لوزجنان ملك قبرص لكي يدخل في مفاوضات مع السلطات المملوكية، ولما كان بطرس لوزجنان يشعر بانفضاض الصليبيين من حوله ويتنكرهم مما قام به من اعتداء، على الإسكندرية، فقد استجاب لطلب البنادقة وأرسل وفداً إلى السلطان محملاً بالهدايا في محاولة للوصول معه إلى اتفاق ودي،فاشترط السلطان مقابل ذلك اطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد وقعوا في قبضته، فوافق لوزجنان وأطلق من بقي لديه من الأسرى وأرسلهم إلى مصر على مركب خاص أعده لهم[2]

واستمرت المفاوضات بين مصر وقبرص بعد ذلك الاتفاق الأولي مدة أربع سنوات لتحقيق صلح نهائي، وعلى ما يبدو فان المماليك لم يكونوا جادين في عقد صلح مع القبارصة- إذ كان هدفهم الإستيلاء على قبرص لاجتثاث بؤرة الصليبيين الذين اتخذوها قاعدة للهجوم على الموانئ الإسلامية، ولا شك في أن بطرس لوزجنان قد أدرك ما كان يصبوا اليه المماليك، فاخذ بشن هجمات جديدة على سواحل مصر وبلاد

---

(١) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، صفحات متفرقة من المجلد ٢.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥٢.
Atiya. op, cit, PP 371-372

الشام في أثناء مفاوضاته مع المماليك في محاولة منه لاجبارهم على قبول الصلح، ففي أوائل المحرم سنة ٧٦٨هـ/تشرين ثاني ١٣٦٦م جهز اسطولاً حربيا عدته مائة وست عشرة سفينة للإغارة على طرابلس الشام، غير أن عاصفة شديدة فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى خمس عشرة سفينة، أطلق رجالها يد النهب في المدينة، ثم عادوا إلى قبرص[١] وعلى الرغم من هذه الغارة فقد تجددت محاولات بطرس لطلب الصلح في أواخر سنة ٧٦٨هـ/اواسط سنة ١٣٦٧م ولكن سفارته عادت دون نتيجة فعاد إلى سيرته الأولى إذ جهز اسطولاً ضخما في مطلع سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م تألف من مائة وثلاثين سفينة وضم الأسطول ستة عشر الف مقاتل من القبارصة والبنادقة والجنوية والكريتيين والروادسة والفرنسيين والهنغاريين، وكان للبنادقة ثلاثون سفينة، وللجنوية عشرون وللروادسة عشر سفن، وللأغراب خمس عشرة سفينة والبقية من قبرص[٢].

وقاد بطرس لوزجنان الأسطول بنفسه وشاركه صاحب جزيرة رودس، ورئيس الفرسان الاسبتارية. واتجه به إلى ميناء طرابلس، وكان نائبها ومعظم عسكرها غائبين عنها في ذلك اليوم الذي وصل فيه بطرس لوزجنان، فاغتنم هذا الفرصة وانزل قواته إلى ساحل البلدة، ويبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الصليبيين لكثرة طرق القبارصة لمدينتهم وعيشهم على سواحل الشام «فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا حتى اقتحم العدو المدينة،ونهبوا من أسواقها، فتحامل المسلمون عليهم، واشتدوا في قتالهم حتى أخرجوهم بعدما قتلوا منهم الألف، واستشهد من المسلمين نحو الأربعين رجلاً، فركبوا سفنهم وانقلبوا خايبين»[٣].

وكان بطرس لوزجنان قبل انسحابه منهزما من طرابلس قد انفذ قاربا من قواربه يحمل رسالة إلى الأمير جرجي الإدريسي نائب طرابلس-بعد أن كان قد عاد اليها في وقت سابق أثناء الهجوم الصليبي-وجاء فيها:

«أما بعد، فان مراسيمنا الشريفة برزت بعدم اطراق طرابلس ولو اقتضت

---

(١) Atiya, op, cit, P 373.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥٢ المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٥٠، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام ص٣٤٨, Atiya, op, cit, P 373.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٤٩-١٥٠ .

مراسيمنا الشريفة ذلك لفعلناه، ولكن البلاد بلادنا والقدس قدسنا فان مكنتمونا من بلادنا فنحن واياكم على العهد والصلح، وان لم تمكنونا بيننا وبينكم السيف ومع ذلك يعطي الله النصر لمن يشاء من عباده»، فبعث الأمير جرجي إلى لوزجنان رسالة جاء فيها:

«أما قولكم برزت مراسيمنا الشريفة، فهذا الكلام لا يصدر إلاّ عن سلطان ذي رأي، وأما انت فلص من لصوص النصارى ولست بسلطان، فلو كنت سلطانا لأقمت بالإسكندرية وناضلت عنها حين ظفرت بها، بل هربت بسرية والهروب من شأن اللصوص، وأما قولك البلاد بلادنا، فالأمر غير ذلك لأن البلاد بلاد الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وأما قولك القدس قدسنا، فما شاء الله أن يكون القدس لك لأنك رجس نجس، والقدس طاهر مطهر، وما ينبغي للرجس النجس الكافر المشرك أن يكون مجاورا للطاهر المطهر، وأما قولك السيف بيننا وبينكم، فتفقد عسكرك كم خرج منه من قتيل وجريح ورهين، ولم يكن بطرابلس مقاتل لك غيري، وأنا أقل مماليك السلطان، فانزل وقاتلني بما معك ومعي».[1]

وفي أثناء انسحاب لوزجنان حاول الإغارة على جبلة إلاّ أن ريحا عاصفة فرقت سفنه ومنعته من النزول على أرضها، فاتجه إلى اللاذقية للإغارة عليها، لكن المدينة استعصت عليه بسبب مناعة تحصيناتها، ووجود سلسلة في الميناء كسرت عددا من سفنه، فضلاً عن الريح الشديدة التي أغرقت ثلاثا من سفنه، وساقت رابعة إلى طرابلس، كان بها كثير من المعدات الحربية والمؤن التي غنموها من المدينة فعادت لأصحابها المسلمين[2].

وعندما فشل لوزجنان في الإستيلاء على اللاذقية اتجه إلى بانياس، فاحرقها وأحرق ما كان بها من السفن الراسية[3].

ثم اتجه للإغارة على ميناء اياس[4]، فلما بلغ المسلمين نبأ قدومه اجتمعوا مع

---

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر،ص٢٥٥، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام،ص٣٤٩-٣٥٠، Atiya, op. cit, P 373

(٣) النويري السكندري، الالمام بالاعلام، ج٣، ورقة ٥٩-٦٠ عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص٣٥٠

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٥٠ .

نصارى الأرمن المقيمين معهم بالمدينة وشاوروهم فيما يعملون لتلافي خطره، فأشاروا عليهم بأن يتحالفوا معهم على محاربته، وأن يرسلوا إلى المعاقل الإسلامية القريبة منهم لترسل اليهم النجدات، فطلب المسلمون من الأرمن أن يتقدموهم في مقابلة القبرصي وتحايلوا عليه بالمكائد والحيل حتى تصل اليهم النجدات، فلما رسا الأسطول الصليبي بميناء اياس، تقدم نائب ملك أرمينية بمن معه من النصارى الأرمن، وركبوا القوارب حتى وصلوا إلى الملك لوزجنان، فقالوا له: «أيها الملك المظفر، نسألك حقن دمائنا لتستريح من غضب السيد المسيح، واسمع كلامنا ففيه لنا ولك النجاح والرشد والصلاح، فقال لهم: وما تريدون وبأي شيء تقولون؟ قالوا اهبط ايها الملك من المراكب فأنت وحق المسيح الظافر الغالب، وتسلم البلاد، واطرد عنا هؤلاء المسلمين الذين تركونا ببلدنا ذليلين بما نسمع لهم من التسبيح على منابر مساجدهم، فقال الملك: إني أعذركم بما يفعله المسلمون بكم، لكن أريد أن أسمع كلام المسلمين الذين عندكم لئلا يكون كلامكم حيلة ومكيدة منكم، فقالوا: وكيف نواجهك بالحيل ! اعلم بيقين أن المسلمين منك الآن خائفون فقال: احضرو لي أميرهم لأسمع كلامه واعلم خطابه ونظامه»، فبعث الأرمن في طلب أمير المسلمين، فركب قاربا وأتى اليه في زي الفقراء ثم قبل الأرض بين يدي الملك وأظهر المودة والمحبة. وقال: «إن والدك السلطان ريوك (هنري الثاني) -نيّح الله روحه- كان في أيام دولته يهادي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، وهو الآخر يهاديه لما كان بينهما من المودة والصحبة، وكان من هدية الملك الناصر مراكب القمح»، فلما سمع ملك قبرص بمراكب القمح ابتسم وقال: «ما مراكب القمح، قال الأمير «هي التي أرسلها (السلطان) لما وقع الغلاء بجزيرة قبرص إعانة للملك ولأهل جزيرته»[1] فقال الملك: صدقت، اخبرني بذلك والدي، انها أتت له موسوقة بالقمح

(١) كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أصدر أوامره عندما وقع الغلاء بالشام أن يرسل اليها بعض المراكب محملة بالقمح لتباع بها، غيرأن ريحا عاصفة هبت عليها فدفعتها إلى قبرص، فخشي ربانها ومن معه من البحارة أن يقعوا أسرى في يد صاحبها، فلما استدعى الربان لمقابلة الملك، قال: «أتيت من مصر من عند الناصر إلى مولانا الملك وانه يسلم عليك، وقد بلغه ان ببلدك الغلاء، فارسل لك القمح ترتفق به إلى أن يمن الله تعالى على عباده بالرخاء»، فسر ملك قبرص بتلك الهدية التي كان

من عنده قبل أن اخلق»، ثم شاور ملك قبرص أمير المسلمين فيما يفعله بإياس، فقال الأمير: «إن هذا البلد كان فيما مضى لأبيك وجدك، وصار نصفه الآن لصاحب مصر، والنصف الاخر لملك أرمينية، وأنت أولى به منهما لأنك وارث آبائك، وأجدادك» فطمع ملك قبرص في إياس وأنزل جنده ومعداته بها، غير أن قواته ما لبثت أن اطلقت يدها في نهبها، وبينما هم في ذلك إذ قدم الأمير منكلي بغا نائب حلب على رأس القوات الإسلامية التي اندفعت على ملك قبرص وجنوده كالسيل ووضعت فيهم السيف، فلم ينج منهم إلاّ من ولّى هاربا إلى المراكب، وكان ملك قبرص من الناجين، فعاد إلى بلاده وهو يجر أذيال الهزيمة.[1]

ثم لم يلبث أن قتل على أيدي جماعة من النبلاء سنة(٧٧١هـ/١٣٦٩)، غير أن ذلك لم يؤثر في تغيير السياسة العدائية التي انتهجها الصليبيون القبارصة وحلفاؤهم في حوض البحر المتوسط ضد المسلمين ودولة المماليك. فقد واصل الملك بطرس الثاني الذي تولى عرش قبرص شن الغارات على سواحل مصر وبلاد الشام، إذ أرسل حملة بحرية في السنة الأولى من حكمه(٧٧١هـ/١٣٦٩م) تألفت من أربع سفن وأغارت على سواحل صيدا والبترون وانطرطوس واللاذقية، وبعد أن أوقعت الدمار بهذه الموانيء أبحرت باتجاه الإسكندرية، وعندما وصلتها ورست في مياهها أرسل قائدها إلى نائب الإسكندرية يسأله فيما إذا كان السلطان يرغب في الاتفاق أم لا، فأجابه بالنفي في الوقت الذي وجه فيه القوات الإسلامية لمحاربتهم، فقتلت منهم نحو المائة وغنمت منهم مركبا، فانسحب الصليبيون باتجاه ميناء رشيد، وعبثا حاولوا النزول إلى بر المدينة، بسبب الرياح العاتية، فارتدوا إلى الساحل الشامي حيث أغاروا على صيدا، إلاّ أن

=

في أشد الاحتياج إليها في ذلك الحين، وجهز للسلطان هدية عوضا عن القمح، ولما علم الناصر أن مراكب القمح عادت إلى ساحل دمياط وفيها هدية صاحب قبرص، دهش لذلك وبعث في طلب الريان، فلما مثل بين يديه حدث السلطان بما وقع له، فأعجب السلطان بحيلته التي احتال بها حتى انقذ نفسه، وبحارته من الأسر ونجّى مراكبه من المصادرة»، سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٥٦ .

(١) سرور، دولة بني قلاوون في مصرص٢٥٧، المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٥٠، Atiya, op. cit, P 375

القوات الإسلامية المرابطة فيها كانت لهم بالمرصاد، مما جعلهم يعودون أدراجهم خائبين في مسعاهم[1].

وازاء استمرار تلك الهجمات من قبل مملكة قبرص وحلفائها في حوض البحر المتوسط، فضلاً عما أصاب الدولة المملوكية من فقر في إيراداتها بسبب تعطيل تجارتها مع الأوروبيين ولما حل بها من وباء ومجاعة، رأى السلطان أن من المصلحة عقد صلح مع ملك قبرص هنري الثاني، فتم عقد هذا الصلح سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، وبموجبه تم إطلاق سراح من بقي من أسرى المسلمين لدى الصليبيين، كما تم فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس[2].

على أن الصليبيين في حوض المتوسط عادوا بعد فترة وجيزة إلى شن الهجمات على سواحل مصر وبلاد الشام مرة اخرى. وقد ساعد على ذلك احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجاري في حوض المتوسط على حساب الجنوية الذين رفضوا بدورهم ذلك الواقع، وتعبيرا عن رفضهم اخذوا يغيرون على سواحل مصر والشام، واشترك معهم في هذه الغارات بعض القراصنة من الكتلان والروادسة والقبارصة، ففي سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م أغار الجنوية على ساحل طرابلس إلاّ أن نائبها الأمير يلبغا الناصري تصدى لهم على رأس قواته وقتل عدداً منهم، ففروا منهزمين.[3]

وفي سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م أغار الجنوية على صيدا ونجحوا في احتلالها وعاثوا فيها فسادا، ثم توجهوا إلى بيروت، غير أن الأمير بيدمر نائب دمشق كان قد نزلها بقواته قبل وصولهم إليها، فتراجع الجنوية ثم ارتدوا إلى قبرص، وفي طريق عودتهم قصدوا الإسكندرية وهناك استولوا على سفينة إسلامية موسوقة بالبضائع، كانت مستعدة للسفر إلى طرابلس الغرب.

وبعد عدة أيام عاد الجنوية وأغاروا على بيروت، وكان في مينائها سفينتان للبنادقة، فاستولوا عليهما وشحنوهما بالرجال وجعلوهما في مقدمة سفنهم واخذوا

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٧٣-١٧٦، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص٣٥٠-٣٥٢، سرور، دولة بني قلاوون، ص ٢٥٥-٢٥٧.Atiya, op. cit, P 375.

(٢) المقريزي السلوك، ج٣، ١٩١. Atiya, op. cit, P 375.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٣٥، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون، ص ٢٥٩، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٤٩؛ حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٤٩.

يطلقون الجروخ (السهام الكبيرة) والحجارة من منجنيقاتهم المنصوبة على السفن على أحد أبراج بيروت مما اضطر المسلمين إلى التراجع والتحصن بالأسوار، فاعطى ذلك فرصة التقدم للجنويين والنزول إلى البر، وما لبثوا أن سيطروا على المنطقة ورفعوا عليها (علما) غير أن القوات الإسلامية بقيادة الأمير سيف الدين يحيى من آل حتر(والد المؤرخ صالح بن يحيى) تمكنت من قهرهم واسقاط علمهم، فانهزم الجنوية وقتل منهم عدد كبير(١).

وفي سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م توجهت حملة جنوية للإغارة على السواحل المصرية، فتصدت لها السفن المملوكية واشتبكت مع سفينة انفردت باتجاه ساحل دمياط، فقتل من الجنوية عشرة اشخاص وأسر ما يزيد على الثلاثين منهم، عرضوا على السلطان، فبذل ثلاثة منهم ما قيمته خمسة عشر الف دينار حتى فك أسرهم(٢).

وعلى الرغم من الهجمات الجنوية هذه إلا أن بعض تجارهم حصل على ارتباطات تجارية وقنصلية مع الدولة المملوكية، ومن خلال هذه الارتباطات وحرصا عليها عمل بعضهم على مصالحة السلطان برقوق، والتقرب إليه بالهدايا، ولما كان السلطان حريصا على مصالحه التجارية في حوض المتوسط، فلم يتأخر في قبول هداياهم(٣).

على ان هذا التقرب من بعضهم لم يكن ليغير في السياسة العدائية التي انتهجتها جنوا ضد الدولة المملوكية، فما لبثت أن عادت إلى أعمال القرصنة من جديد، ففي سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م شن الجنوية هجوما على طرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها والتي خبرت خططهم واساليبهم القتالية تمكنت من هزيمتهم وقتلت منهم الكثير، كما غنمت منهم ثلاثة مراكب(٤).

وفي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م اعتدت طائفة من الجنوية على جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة في المياه الشامية في مراكب مشحونة بالجراكسة جلبوا من بلادهم. وكان من بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان وبعض أقاربه، وقد أسروا جميعهم

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٣٠-٣١ .

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر بابناء العمر، ج١، ١٨٧، حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٥٠ .

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٦٣، حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٥٠

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٥٦٢ .

من قبل الجنوية فأمر السلطان بالقبض على من بالإسكندرية من الجنوية وختم حواصلهم، الأمر الذي أجبر الجنوية على اطلاق من أسروهم، فأفرج السلطان عن الجنوية وفك الختم عن حواصلهم.[1]

وفي سنة ٧٩٥هـ/١٣٦٧م شن الجنوية هجوما على ناحية نشراوة(غربي بحيرة البرلس على الساحل الرملي الفاصل بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس في مصر) في أربع سفن فسبوا ونهبوا، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ثم انسحبوا[2].

وفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م شنوا هجوما على ساحل طرابلس واستولوا على سفينتين موسوقتين بالبضائع، كانتا تتهيأن للإقلاع إلى مصر. ثم حاولوا التوغل في إحدى القرى الداخلية، إلا أن الأهالي في تلك المنطقة تمكنوا من التصدي لهم وأسر عدد منهم[3].

وفي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م تحالف الجنوية والروادسة والقبارصة في الهجوم على سواحل مصر والشام، فقد تحرك أسطول جنوي مؤلف من ثماني عشرة سفينة إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها، وفي محاولة للتضليل على السلطان فرج، أعلن قائد الأسطول الجنوي أن غرضه شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا، غير أن غرضه كان ضرب الإسكندرية، فعقد صلحا مع حنا لوزجنان ملك قبرص ثم أخذ يستعد لشن هجومه، إلا أن محاولته هذه لم تنطل على السلطان، فقد عرف بمهمة الأسطول الجنوي منذ أن وصل إلى رودس، وأخذ أهبته لصد الهجوم. فيما استمر قائد الأسطول الجنوي في سياسته، إذ اعتقد بأن الأمر لم يكن مكشوفا للسلطان، فأرسل سفيرين إلى الإسكندرية، أعلنا أنهما جاءا لعقد الصلح، وعندما طالت المفاوضات دون الوصول إلى نتيجة، ولما لم يتمكن الأسطول الجنوي من تحقيق غرضه نظرا للاستعدادات التي أبداها السلطان، فقد أبحر الجنوية إلى سواحل آسيا الصغرى وهاجموا مدينة العلايا، ثم عادوا إلى قبرص، ليوهموا السلطان بأنهم ابتعدوا عن السواحل المصرية، فيقوم بإنهاء استعداداته، وبهذه الفرضية أرسلوا عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية من جديد، غير أن هذه السفن فوجئت باستمرار استعدادات السلطان في

---

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٩، ص١، ص٢٣، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٢، ص٢٨٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٧٨٧ .

(٣) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٢٦٩، حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٥١.

المدينة ومياهها، فعادت ادراجها إلى قبرص دون أن تتمكن من احتلال المدينة، ولم تجن جنوا من وراء هذه الحملة سوى ما نشب من قتال في شوارع المدينة مع تجار الفرنج، وكذلك فشلها في إعادة تجارتها بصفة رسمية مع دولة المماليك[1].

وعلى الرغم من ذلك كله فقد استمرت جنوا في شن هجماتها على السواحل المملوكية، فقد هاجمت طرابلس بأسطول مؤلف من أربعين مركبا، وقد نزل افراده إلى بر المدينة «فأقاموا عليها ثلاثة أيام، فبلغ ذلك نائب الشام، فنهض اليهم مسرعا، فانهزموا وأوقع بهم»[2] وتوجه الأسطول بعد ذلك إلى بيروت، ولمّا لم يكن فيها ما يكفي من قوات عسكرية للدفاع عنها، فقد غادرها أهلها عند اقتراب الجنوية، مما سهل على قوات الأسطول اقتحام المدينة، فقد نزلت هذه القوات أولاً في مكان يسمى الصنبطية، ثم ملكوا البلد ونهبوها، وقال صالح بن يحيى: «واحرقوا الدار التي لنا على البحر والسوق القريب من الميناء»[3].

واستمر الجنوية مقيمين في المدينة ذلك اليوم إلى أن قدم أمير المدينة دمرداش بمن معه من الجند والمطوعة، فواقعهم «وقُتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير»، وعندما وصل نائب الشام بعساكره، كان الجنوية قد غادروا المدينة وتوجهوا إلى صيدا «فأمر النائب بإحراق قتلى الفرنج ثم توجه إلى صيدا ومعه العساكر فوصل إليها»، وكان الجنوية قد نزلوا إلى برها، «فوجدهم في القتال مع أهل صيدا، ولم يتقدمه أحد بل كان معه عشرة أنفس لا غير، فحمل على الفرنج فكسرهم وفروا إلى مراكبهم»[4].

ويبدوا ان فشل جنوا الأخير جعلها تفكر جديا في السعي لعقد صلح مع السلطان فرج، وبعد سلسلة من المفاوضات تم عقد الصلح سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م، وتعهدت فيه جنوا بدفع مبلغ ثلاثين الف دينار تعويضا عما آحدثته من خسائر في السواحل الإسلامية، كما نص الصلح على أنه إذا تكررت اعتداءاتهم، فان الجنوية المقيمين في مصر سيقبض عليهم جميعا[5].

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٣٣، حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥١-١٥٢ احمد دراج، المماليك والفرنج، ص٢٢، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص٣٥٣ .

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٥، ص١٣٣ . (٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٣٣

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٥، ص١٣٣ .

(٥) حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٥٣ .

وحذت البندقية حذو جنوا فأسرعت بعقد صلح مع السلطان فرج سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م وقد شرط عليها السلطان شروطا قاسية، وأخذ منها الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثها[1].

أما مملكة قبرص التي ظلت على عدائها للمماليك واستمرت تشن هجماتها على سواحل مصر وبلاد الشام، فقد قررت الدولة المملوكية اتخاذ موقف حازم تجاهها، ولن يكون ذلك بأقل من غزوها في عقر دارها، وهكذا كان.

(١) حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٥٣ .

الفصل الثاني

غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة المماليك

استمرت اعتداءات الصليبيين المنطلقة من جزيرة قبرص على سواحل الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام، ففي سنة٨١٣هـ/ ١٤١٠م هاجمت أربع سفن صليبية وعلى متنها سبعمائة من الفرنج ميناء يافا، «فاسروا جماعة من المسلمين، واخذوا مركبا فيه خام للسلطان قدم من مصر»[1] وفي سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م هاجمت سفينتان صليبيتان ميناء الإسكندرية واحرقتا مركباً إسلامياً كان موسوقا بالبضائع[2] وازاء هذه الاعتداءات وما سبقها، أمر السلطان الأشرف برسباى بإغلاق كنيسة القيامة في مدينة بيت المقدس لعل ذلك يجعلهم يكفون عن اعتداءاتهم. كما حدث في أعقاب هجومهم على الإسكندرية سنة٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م[3] غير أن الصليبيين استمروا في انتهاج سياستهم العدائية ضد الدولة المملوكية، فهاجموا في سنة٨٢٧هـ/١٤٢٣م ميناء دمياط واستولوا على مركبين من مراكب المسلمين بما فيهما من بضائع، واسروا ما يزيد على مائة رجل،[4] وزاد من صلف «جانوس» ملك قبرص أنه قد استولى على سفينة محملة بالهدايا كان السلطان برسباي قد أرسلها إلى السلطان العثماني «مراد»،[5] فثارت ثائرة السلطان برسباي وأمر «بايقاع الحوطة على أموال التجار (الأوروبيين) التي ببلاد الشام والإسكندرية ودمياط والختم عليها، وتعويقهم عن السفر إلى بلادهم»[6].

وأتبع السلطان تلك الخطوة بخطوة على درجة عظيمة من الأهمية وبعد النظر

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص١٤٣.

(٢) م.ن، جـ٤، ص٦١٧.

(٣) م.ن، جـ٤، ص ٦١٩.

(٤) م.ن جـ٤، ص٦٦٥.

(٥) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٨.

(٦) المقريزي،السلوك، جـ٤، ص٦٦٥-٦٦٦ .

وهي غزو جزيرة قبرص لجعلها دار سلام بدلاً من أن تستمر للهمجية والاعتداء على سواحل بلاد المسلمين، والواقع أن التفكير في غزو قبرص بدأ جديا في أعقاب هجوم بطرس لوزجنان على الإسكندرة -الوقعة الاولى- إذ أمر يلبغا الخاصكي الذي كان وصيا على السلطان الأشرف شعبان، ببناء المراكب والسفن، كما ارسل إلى بلاد الشام يأمر بتشغيل كل من يعرف أن يمسك منشارا في قطع الأخشاب وبناء السفن «برسم غزو قبرص»[1].

غير أن الظروف في ذلك الحين لم تكن مواتية لتحقيق هذا الهدف، إلى أن تهيأت الفرصة في عهد السلطان برسباي، فوجه اليها ثلاث حملات متتالية، وهذه الحملات في حقيقة أمرها تمثل مرحلة جديدة في تطور البحرية المملوكية، كما أنها توضح لنا مراحل التخطيط الحربي البحري في عصر السلاطين المماليك[2]، إذ انتقلت الدولة في سياستها الحربية والبحرية من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وليس الهجوم الخاطف المبني على الردع فقط، بل الهجوم الذي يؤدي إلى هيمنة الدولة على حوض البحر المتوسط بأكمله من الناحيتين الحربية والاقتصادية.

الحملة الاولى: سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م:

وجه السلطان الأشرف برسباي حملته الأولى لغزو جزيرة قبرص، كي تكون حملة استطلاعية يقف من خلالها على«من يتجرم في البحر من الفرنج»[3] لذلك لم يكن عدد السفن والرجال الذين اشتركوا فيها كبيرا، فقد تحركت أولاً ثلاث سفن من ميناء دمياط، واتجهت إلى بيروت حيث انضمت اليها سفينة رابعة، ثم ابحرت جميعها صوب طرابلس، وهناك انضمت اليها سفينة خامسة، وبلغ عدد المجاهدين الذين اشتركوا فيها ستمائة مجاهد، وبصحبتهم ثلاثمائة فرس[4]. وبعد أن تكاملت تجهيزات الحملة أبحرت من ميناء طرابلس في أواخر رمضان ٨٢٧هـ/اواخر آب ١٤٢٤م. واتجهت صوب قبرص، وفي أثناء إبحارها هبت عليها ريح عاصفة فرقتها وردتها إلى السواحل الشامية، إلاَّ

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢،ص ١٢٢٨، سعاد ماهر، البحرية في مصر الاسلامية، ص١٢١

(٢) ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٥٨.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٦٦٨، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٥٨٠ .

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ٤٨ .

أن الحملة ما لبثت أن تجمعت من جديد وأبحرت في أوائل شوال/ أيلول من السنة ذاتها[1]. ووصلت إلى رأس ألياق من الجزيرة، وكان به مركب تجاري للصليبيين محمل بالبضائع، فلما رأى بحارته السفن الإسلامية هربوا منه، فاستولى المجاهدون على ما به من البضائع ثم أحرقوه، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى ميناء ليماسول، وهناك فاجأ المجاهدون ثلاث سفن كانت مجهزة للاغارة على السواحل الإسلامية، فاستولوا على ما فيها ثم أحرقوها[2]وفاجأوا ثلاث سفن أخرى فأغرقوها[3].

وقد حاول قائد القوات الصليبية في المدينة صد الهجوم الإسلامي في سبعين فارسا وثلاثمائة راجل، غير أن القوات الإسلامية احتوت هجومه وأردته قتيلاً مع عدد كبير من أفراد قواته في أرض المعركة[4]. وبذلك اصبحت ليماسول مشرعة الأبواب أمام المجاهدين فدخلوها وسيطروا عليها، فقال احد الشعراء في ذلك:

دخلنا ديار الكافرين وأرضهم ... فولوا فرارا من أليم نصالنا

وصلنا عليهم صولة الأسد في الفلا ... فولّت خيول الكل خوف رجالنا

ضربنا ديارهم ومات أميرهم ... وسوف ترى سلطانهم ما نوى لنا

ثم حاصر المجاهدون حصن ليماسول، ولما وجدوه «منيعا تطول محاصرته»، اكتفوا بما حققوه وعادوا بسفنهم إلى ميناء دمياط وهم يحملون الغنائم والأسرى[5]، «وكان عدد الأسرى ألفا وستمائة نفس»[6].

وفي اعقاب هذه الحملة اتخذ السلطان الأشرف برسباي موقفا دبلوماسيا فطنا الا وهو فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس كي يخفف من حدة عداء الصليبيين، وليحول دون اجتماع كلمتهم بسبب الحملة وما احدثته من تدمير، وتحسبا من أي هجوم صليبي

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٨ .

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٦٧٢ .

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٦٧٢

(٥) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٨

(٦) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ٤٨ .

قام بتحصين سواحل مصر والشام[1].

أما ردة فعل الملك جانوس ملك قبرص، فقد ارسل سفينتين مشحونتين بالرجال والعدة إلى سواحل مصر والشام«ليأخذوا من وجدوه من المسلمين»[2] وشنوا هجوما على صور وجبلة وطرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها تمكنت من صدهم[3].

«فصاروا كلما وصلوا إلى ساحل وجدوا عليه حرسية، فجاءوا إلى مكان يقال (له) نهر الكلب ليأخذوا منه ماء، فأطلقوا مدفعا لينظروا أن كان به أحد، فأكمن المسلمون إلى أن طلعت الفرنج البر، ودقوا عليهم فمسكوا منهم جماعة واحضروهم إلى السلطان بعد أن هربت الأغربة (السفن) ومن بها مجرحين»[4].

الحملة الثانية: سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م:

كانت نتائج الحملة الأولى مشجعة للسلطان الأشرف برسباي لكي يبدأ بإعداد حملة جديدة، فقد دلت النتائج على ضعف مملكة قبرص وانحلال أمرها وعجزها عن المقاومة، على الرغم من المحاولة الفاشلة التي قام بها «جانوس» ملك قبرص في الاعتداء على السواحل الإسلامية، كما دلت على انفراط عقد التحالف الصليبي في الغرب الأوروبي وحوض المتوسط، لذلك ما أن عادت الحملة الأولى منتصرة حتى أمر السلطان ببناء سفن جديدة لتشكيل حملة ثانية، فتم بناء عدة سفن في موانيء الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس[5].

وعندما علم «جانوس» ملك قبرص بهذا الاستعداد، حرك حملة بحرية مؤلفة من تسع سفن ومشحونة بالرجال والعدة إلى دمياط لمحاصرتها ومنع السفن الإسلامية من الانطلاق منها، غير أن السفن التي كان قد تم بناؤها في الإسكندرية تحركت في ذلك الوقت باتجاه دمياط، الأمر الذي جعل السفن القبرصية تنسحب بغير قتال[6].

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٦٧٢، ٦٨٣، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩ .

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٦٨٣-٦٨٦ .

(٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩ .

(٥) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

(٦) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ٧١-٧٢ .

اما الحملة الإسلامية فبعد أن اكتملت تجهيزاتها أبحرت من ميناء دمياط في أواخر رجب سنة ٨٢٨هـ/ أوائل تموز ١٤٢٥م واتجهت أولاً إلى بيروت حيث انضمت إليها السفن التي تم بناؤها هناك ثم اتجهت إلى طرابلس وهناك تكاملت أعداد السفن التي تشكلت منها، وبلغت عدتها ثلاثاً وأربعين سفينة متنوعة الأحجام والأغراض[1].

واقلعت الحملة من ميناء طرابلس في ١٤ رمضان/١٩ تموز بقيادة الأمير جرباش الكريمي قاشوق حاجب الحجاب يعاونه عدد من الأمراء، على كل سفينة أمير[2]، وكان مقدماً على إحدى هذه السفن المؤرخ المعاصر الأمير صالح بن يحيى، إذ ذكر ذلك بقوله: «فتوجهت معهم مقدماً على الغراب العتيق وهو غراب عمل ببيروت متقدما على هذه الأيام الذي (توجه الشاميون) فيه إلى قبرص...وكان معي قريب من ماية رجل بحرية ومقاتلة، وكان الغراب المذكور أحسن الأغربة مشيا»[3].

وخاطب احد الشعراء المجاهدين غداة انطلاقهم بقوله لهم:

سيروا على اسم الله ذي الجلال ... ثم ابتغوا طريقة الحلال

واجتنبوا جلال كل سوء ... فانها قبيحة الخلال[4]

وكان الأمير جرباش في أثناء اعداده للحملة وهو في بيروت، قد أرسل بأمر من السلطان برسباي رسولاً إلى الملك «جانوس» يطلب منه الدخول في طاعة السلطان منعا للقتال، إلاّ أنه أخذته العزة بالاثم، فأبى ذلك[5].

وابحرت الحملة صوب ميناء قرباص على الشاطيء الشمالي الشرقي للجزيرة، ثم تحركت باتجاه الماغوصة (فاما جوستا) فوصلتها في يوم الأحد العشرين من رمضان، وعلى الفور نزل المجاهدون من مشاة وخيالة إلى البر وضربوا خيامهم هناك[6]. ولـمّا

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٣٩-١٤٠، سعاد ماهر، البحرية في مصر الاسلامية ص ١٢١.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٠ .

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٤ .

(٤) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٤٠

(٥) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ٧٢ .

(٦) م.ن، جـ٨، ص ٧٢ .

رأى حاكم المدينة ضخامة القوات الإسلامية، أرسل إلى الأمير جرباش رسولاً يطلب الأمان ويعلن أنه داخل في الطاعة ويقول: «أنا مملوك السلطان، والمدينة مدينته، والرعية رعيته» فأعطاه الأمير أمانا وأرسل إليه راية سلطانية رفعها على القلعة في المدينة[1].

ومكث المجاهدون في المدينة أربعة أيام شنوا خلالها غارات عديدة على الضياع المجاورة وأوسعوها تخريباً وتحريقاً، «واوقع الله الرعب في قلوب الذين كفروا حتى كان الثلاثة من المسلمين يدخلون الضيعة وفيها ما بين المائة والخمسين فلا يمتنع عليهم أحد»[2]

ثم أقلعت الحملة بعد ذلك باتجاه الملأحة (لارنكا)، وقد وضع قادة الحملة مخططا حربيا لمسح المنطقة والإطباق على الصليبيين فيها براً وبحراً، فعندما وصلت الحملة إلى مكان يسمى رأس العجوز أنزلت هناك ليلاً سرية في نحو أربعمائة مجاهد إلى البر، هاجمت الصليبيين في المنطقة، فقتلت وأسرت وأحرقت، وكانت في سيرها تحاذي سفن الحملة التي أستمرت تبحر باتجاه الملأحة [3] إلى أن ظهر أسطول قبرصي مؤلف من ثلاث عشرة سفينة وأخذ يقترب من السفن الإسلامية، فأسرعت السرية بالعودة إلى السفن لمواجهة الأسطول القبرصي[4].

وكان الملك جانوس قد وضع خطة حربية أراد من خلالها احتواء الحملة الإسلامية عن طريق تشتيتها بين البر والبحر، ففي الوقت الذي أرسل فيه أسطوله لاستدراج السفن الإسلامية إلى عرض البحر لإبعادها عن القوات البرية، قام بإرسال أخيه الأمير هنري على رأس جيش عدته سبعمائة فارس وثمانية الآف راجل لقتال المسلمين براً وبحراً، واصطحب معه «خمس عجلات تجرها البقر عليها مدافع وسلاح احضروها ليقاتلوا بها مراكب المسلمين»[5].

أما السفن الإسلامية فقد لاحقت الأسطول القبرصي إلى عرض البحر، ولمّا لم

---

(١) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٤٠ .

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ٧٢

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٦٩٥، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٦٩٥، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٥ .

(٥) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

تستطع اللحاق به بسبب عجزها عن مجاراته في سرعته، عادت تبحر بمحاذاة الساحل، وأنزل قادة الحملة سرية إلى البر لتعاود مسح المنطقة من جديد، وذلك قبل اكتشاف أمر القوات العسكرية التي كان يقودها الأمير هنري، وكان هذا الأمير قد انطلق على رأس فرسانه وألف من مشاته إلى جهة البحر، أما بقية قواته فقد جعلها تختفي في المناطق القريبة، وشرع في مهاجمة السرية الإسلامية التي انزلت على الساحل، وكاد أن يحيط بها لولا سرعة نزول ما يقارب من الف مقاتل من السفن الإسلامية إلى البر بواسطة قوارب صغيرة وشخاتير، وقد نزلوا مشاة لصعوبة إنزال الخيل في تلك اللحظات العصيبة، واستطاع مشاة المسلمين التغلب على فرسان ومشاة الأمير هنري وهزيمتهم «وقتلوا منهم خلق وقطعوا رؤوسهم، وجعلوها على أسنة الرماح». وكانت السفن الإسلامية تخوض في الوقت ذاته معركة بحرية مع الأسطول القبرصي، وجرى تبادل إطلاق المدافع بين الطرفين، وأمام شدة نيران المدافع الإسلامية، انسحب الأسطول القبرصي ووقعت إحدى سفنه في أيدي المسلمين[1].

وبعد أن تجمعت القوات الإسلامية على السفن، أبحر الأمير جرباش باتجاه الملاحة، وعندما وصلها أنزل قواته بالخيول إلى البر، وضرب خيامه هناك، ثم وجه بعض قطاعات الجيش لشن الغارات على الضياع المجاورة، فأخذ المسلمون «يقتلون ويأسرون ويحرقون القرى، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم»[2] وتمكن المسلمون من قتل أحد خواص الملك جانوس ويدعى الأمير عين غزال[3].

ثم أبحرت الحملة إلى أن وصلت إلى ليماسول في آخر رمضان ٨٢٨هـ/ أوائل آب ١٤٢٥م، وفي صبيحة يوم عيد الفطر هاجم المسلمون حصن المدينة واقتحموه عنوة بالسيف، «ونهبو وأسروا من كان فيه بعدما قتلوا منه جماعة»[4]، وكان هذا الحصن

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٦ - ٢٤٧، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤١، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ٧٣ .

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٦٩٥ .

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ٧٣ .

(٤) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٧ .

من أعظم حصون جزيرة قبرص مناعة وحصانة[1]، وبالسيطرة على هذا الحصن ملك المسلمون المدينة ورفعوا عليها الراية السلطانية[2].

وأراد الأمير جرباش الإبحار إلى بلدة الباف (بافوس) لمهاجمتها، إلاّ أن الرياح لم تساعده على ذلك، فرأى أنه من الأنسب العودة إلى مصر، وبخاصة بعد أن وصلته الأخبار عن إرسال البندقية لجدة قوية إلى قبرص، وعن جمع الملك جانوس لقواته واستعداده لشن الهجوم على القوات الإسلامية، فأقلع بالحملة عائدا إلى مصر مزهوا بالنصر، ودخل القاهرة بالقوات الإسلامية الظافرة في ٢ ذي القعدة ٨٢٨هـ/ ١٥ تشرين أول ١٤٢٥م، وقام السلطان برسباي باستعراض الغنائم والأسرى، وأنعم على أفراد الحملة انعامات كثيرة[3].

وكان عدد من قتل من الصليبيين في هذه الحملة نحو خمسة الآف. في حين استشهد من المسلمين ثلاثة عشر مقاتلاً[4]، وعلى الرغم من المبالغة في عدد الصليبيين والقلة في عدد المسلمين الذين قتلوا في هذه الوقعة إلاّ أن الأمر يدل على أن المسلمين قد نجحوا في مباغتة الصليبيين وإحداث خسائر كبيرة بين صفوفهم.

أما عدد الأسرى الذين جلبوا من قبرص فكانوا في نحو ألف وستين أسيراً وأما الغنائم، فكانت من الكثرة بحيث حملت إلى قلعة القاهرة على «مائة وسبعين حمالاً وأربعين بغلاً وعشرة جمال، ما بين خرج وصناديق وحديد والآت حربية وأواني»[5].

وأصدر السلطان برسباي أمره ببيع الأسرى على أن يراعى عند البيع عدم التفرقة بين الأولاد وآبائهم، ولا بين القريب وقريبه، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم من أمراء وتجار وعوام على شرائهم[6] أما الغنائم فقد أمر السلطان بتقويم

---

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤١ ، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٥٩٣

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص ١٢٢٩ .

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٦٩٥، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٤٧ .

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص٧٣ .

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٩٦ .

(٦) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٥٩٣، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص١٠٢

اصنافها[1].

الحملة الثالثة : ٨٢٩هـ/١٤٢٦م :

على الرغم من النتائج التي حققتها الحملة الثانية، إلاّ أنها لم تكن بالمستوى الكبير الذي كان السلطان الأشرف برسباي يتطلع إلى تحقيقه، فلم يكن الهدف مجرد السلب والنهب والتحريق والعودة بأسرى وغنائم، بل كان الهدف الأساسي هو الإستيلاء على الجزيرة واخضاعها لنفوذ وسيادة الدولة المملوكية، لذلك لم يلبث السلطان برسباي أن شرع في التجهيز لإرسال حملة ثالثة إلى قبرص، وزاد من عزيمته في الإسراع بإعدادها ما بلغه من أخبار عن استعداد ملك قبرص واستنجاده بملوك أوروبا للهجوم على ثغور الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس وغيرها[2]، هذا فضلاً عن تحريض الجنوية للسلطان ضد جانوس ملك قبرص بسبب عدائهم له، وكذلك استنجاد أمير العلايا به للوقوف في وجه أطماع آل لوزجنان في إمارته[3].

وقد تم إعداد السفن في موانيء مصر والشام، وكان تجميعها في ميناء الإسكندرية وبلغت عدتها ما يقرب من مائة وثمانين سفينة[4]، وجاء اندفاع الناس للمشاركة في هذه الحملة بأعداد غفيرة جدا لدرجة أن السلطان الأشرف برسباي اعتذر للكثيرين منهم بعدم اتساع السفن لحملهم[4]، ولما انتهى إعداد الحملة استعرض السلطان الأشرف برسباي العساكر والمجاهدين بحوش القلعة في القاهرة ليقف على مدى استعدادهم وتسليحهم وليوزع عليهم نفقة السفر، وكان ممن شارك في هذه الحملة عدد من الأعيان والفقهاء[5].

وندب السلطان الأميرين اينال الجكمي، وتغري بردى المحمودي، ليكونا قائدين للحملة، وجعل أمرة قوات البحر للأمير اينال الجكمي، بينما جعل أمرة قوات البر للأمير تغري بردى المحمودي، ووزع الصلاحيات بينهما بحيث لا يعارض أحدهما

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٦٩٦ .

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٢ .

(٣) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص١٠٤.

(٤) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٢، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٥٠ .

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٢٠، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٦٠٢ .

للأمير تغري بردى المحمودي، ووزع الصلاحيات بينهما بحيث لا يعارض أحدهما الآخر [1].

وأبحرت الحملة من ميناء الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٨٢٩هـ/ اوائل تموز ١٤٢٦م، وفي ذلك الحين كانت عدة سفن صليبية أرسلها ملك قبرص تقترب من السواحل المصرية بين رشيد والإسكندرية، وقد صادف خروج قوة من المجاهدين في عدة سفن من ميناء رشيد باتجاه الإسكندرية، فلما شاهد المجاهدون السفن الصليبية أرسلوا بطلب النجدة من مدينة رشيد، ثم دخلوا في قتال مع الصليبيين إلى أن قدمت النجدة من رشيد، فولى الصليبيون الأدبار [2].

أما الحملة الإسلامية فقد وصلت إلى ميناء رشيد أولاً ثم أبحرت باتجاه قبرص، فوصلتها في ٢٧ شعبان/ أوائل تموز، ورست عند «ليفادن» على شاطىء «افذيمة» على بعد بضعة أميال من ليماسول [3]، وعلى الفور قامت القوات البرية بالنزول إلى البر وتمركزت على أرض الجزيرة، بينما أقامت القوات البحرية في المراكب وهي في أهبة الاستعداد، ثم تقدمت قوة على رأسها الأمير يشبك قرقش إلى حصن ليماسول الذي كان القبارصة قد أعادوا عمارته وشحنه بالمقاتلين، وحفروا حوله خندقاً عميقاً [4]، واستطاعت القوة الإسلامية الصعود إلى الحصن على سلم من خشب نصبته عليه «فهرب الفرنج الذين في الحصن بعد أن كانوا أوقدوا قدور الزفت تغلي ناراً ليصبوها على من يصعد إليهم من المسلمين، فهزمهم الله تعالى وملكوا البرج الأول» وبعد هذا الفتح توجهت قوة إسلامية أخرى إلى قرية قريبة من ليماسول تدعى «اسكتية»، وكانت تحت حكم البنادقة وخارجة عن حكم جانوس ملك قبرص، فطلب أهلها الأمان من المسلمين فأمنوهم، وقد أخبروا قادة القوة الإسلامية عن الحشد الذي كان يعده الملك جانوس، إذ كان مستعداً «في خمسة الآف فارس وسبعة الآف راجل»، وفي محاولة من قادة الحملة الإسلامية لحسم الموقف سلمياً، فقد أنفذوا رسولاً إلى الملك جانوس يعرضون عليه «بأن يدخل تحت الطاعة ليؤمنوه على نفسه وجنده وبلده وإلاّ مشوا عليه وخربوا

---

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص٩٩ .

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر جـ٨، ص ٩٨ .

(٣) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣٣٤ .

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، جـ٣، ص٨٧.

قصره وأسروه وقتلوه»،[1] إلاّ أن الملك جانوس رفض ذلك وإمعانا في صلفه قام بقتل الرسول وإحراقه[2]، وشرع من فوره بحشد المزيد من قواته حتى بلغت عدتها ثلاثة وعشرين ألف فارس، فضلاً عن الراجلة، كما جهز أربع عشرة سفينة، «حتى إذا ظهر عسكر الإسلام للقائه يحطمونه على المراكب ويأخذونها، وقطع وجزم أنه هو الغالب»[3].

فلما بلغت أخباره قادة الحملة الإسلامية انقسموا في زحفهم إليه إلى قسمين قسم بري بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي، وقسم بحري بقيادة الأمير اينال الجكمي -كما خطط السلطان الأشرف برسباي-[4].

وفي أثناء زحف الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية، ظهر له الملك جانوس على رأس قواته عند «خيروكيتا» فيما بين ليماسول والملاحة، وهناك دارت بين الطرفين معركة شديدة في يوم الأحد مستهل شهر رمضان/٧ تموز. وقت الظهر، وانجلت بانتصار المسلمين وانهزام القبارصة، «وقيل إن جملة من قتل منهم في ذلك اليوم ستة الآف»[5] ووقع الملك جانوس أسيراً مع أعداد كبيرة من أفراد قواته في أيدي المسلمين، بينما قتل أخوه في أتون المعركة.[6]

وبعد مسح المنطقة عسكريا «توجه الأمير يشبك الشاد ومن معه إلى جبل الصليب فخرّبه وما حوله من الديارات واحضروا الصليب الذي كان به، وكانوا يعظمونه حتى سموه صليب الصلبان».

ثم توجه الأمير تغرى بردى على رأس قواته البرية إلى العاصمة «الأفقسية» (نيقوسيا)، فيما استمر الأمير اينال الجكمي على رأس السفن بالملاحة لحفظ جانب

---

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص٩٩ - ١٠٠ .

(٢) م.ن، ج ٨، ص ١٠٠، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٢ .

(٣) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٢.

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص١٠٠ .

(٥) م.ن، جـ٨، ص ١٠١، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٣.

(٦) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ١٠١، ١٠٢، سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص١٠٨ .

البحر، وبينما هو كذلك إذا بالأسطول القبرصي يقترب منه، فأرسل من فوره إلى الأمير تغري بردي يعلمه بالأمر «فأعاد عليه أكثر العسكر»، ودارت معركة بحرية بين السفن الإسلامية والأسطول القبرصي، واستمر القتال نهار وليل يوم الأربعاء ٤ رمضان ١٠ تموز، وثبت القبارصة ثباتاً قوياً «وكان سبب ثباتهم في القتال أنهم لم يعلموا ما اتفق لملكهم من الأسر ولعسكره من الهزيمة»[١] أما القوات البحرية الإسلامية فقد أظهرت براعة حربية كبيرة لدرجة أن بعض المجاهدين كان يلقي بنفسه على مراكب القبارصة على الرغم من «تكاثر المدافع والسهام»[٢] وانفصلت المعركة بانتصار المسلمين وتم أسر إحدى السفن القبرصية بينما فرت باقي سفنهم إلى عرض البحر، بعد أن قتل من بحارتها ما يزيد على مائة وسبعين نفساً[٣].

ويروي بعض المؤرخين أن سبب تراجع السفن القبرصية هو أن المسلمين اجبروا الملك جانوس المأسور لديهم على كتابة خطاب إلى قائد أسطوله يأمره فيه بالرجوع فرجع[٤].

أما الأمير تغري بردي المحمودي فقد وصل على رأس قواته إلى العاصمة نيقوسيا «فلما أقبل إليها وصحبه فرقة من العسكر وإذا بأكابرها وأساقفتها وقسيسها ورهبانها معهم الإنجيل وهم داعون للمسلمين، وطلبوا الأمان، فأمنهم الأمير ثم فتحوا المدينة»،[٥] فدخلها في يوم الجمعة، وأمر أن ينادى في أنحاء البلاد بالأمان وبأن الجزيرة «صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباى»، ثم دخل تغري بردي القصر الملكي فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، وأذّن المسلمون لصلاة الجمعة على صوامع

---

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، ج٣، ص٩ ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٥ .

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، جـ٣، ص٩١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ج٢، ص١٢٣.

(٤) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص١١٣.

(٥) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٣ .

الكنائس، ثم أقاموا بها الصلاة.[1]

واتفق أعيان نقيوسيا وتجارها على أن يجمعوا مالاً للسلطان نظير الأمان الذي منح لهم، فقدموا للأمير تغري بردي ما جمعوه وتعهدوا بدفع الباقي[2].

وغادر المسلمون نيقوسيا يوم السبت «ومعهم الغنائم الكثيرة والأسرى فكان ثلاثة الآف وسبعمائة نفس»[3] وفي اثناء مقامهم أرسل أهل الماغوصة (فاماجوستا) يطلبون الأمان، من قادة المسلمين، فأمنوهم[4].

وبعد أن أقام المسلمون في الملاحة مدة سبعة أيام «أراحوا فيها أبدانهم وأقاموا شعائر الإسلام من الصلاة والأذان» تحركوا عائدين إلى مصر ومعهم الغنائم والأسرى وعلى رأسهم الملك جانوس مكبلاً بالحديد.

ووصلت الحملة الإسلامية إلى ساحل بولاق في مصر في٧ شوال/ منتصف آب. وفي اليوم التالي سارت القوات الإسلامية بالأسرى والغنائم إلى القلعة في القاهرة في موكب حافل «وقد اجتمع لرؤيتهم من الرجال والنساء خلائق لا يحصي عددها إلاّ الله الذي خلقها»[5].

«وطلعت الغنائم على رؤوس ثلاثة الآف حمّال وأحمال محزومة على جمال»[6] أما الملك جانوس فقد أركب «بغلاً أعوجاً» وسير في ذيل الأسرى مع خواصه وأعلامه منكسة[7]، «فلما وصلوا به إلى القلعة كشف رأسه وكب على وجهه حتى قبل الأرض عند الباب» ثم أحضر بين يدي السلطان فقبل الأرض مراراً وسقط مغشيا عليه، فلما أفاق ردّوه إلى مكان أعد له»[8].

---

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٣-١٤٤، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص١٠٣.

(٢) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ١١٦ .

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ١٠٣

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٧٣، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٦٠٨.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٢٤ .

(٦) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٤.

(٧) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٢٤، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٦١٢ - ٤١٤.

(٨) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص١٠٣ .

ثم أن السلطان الأشرف برسباي عفا عنه وقرر عليه مبلغ مائتي ألف دينار، يدفع نصفها وهو بمصر ويرسل النصف الآخر عند عودته إلى قبرص، كما تم الاتفاق معه على أن يكون نائبا عن السلطان في قبرص وما معها[1]، مع دفع جزية سنوية لدولة المماليك قدرها عشرون ألف دينار[2].

ولـمّا لم يكن جانوس يملك من المبلغ المقرر عليه شيئا في ذلك الحين، فقد طلب من الفرنج المقيمين بالإسكندرية اقراضه المبلغ المطلوب منه، فلما أقرضوه المبلغ دفعه للسلطان، فأذن له بالمغادرة وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب، فغادر مصر عن طريق الإسكندرية[3]، «واستقر نائبا عن السلطان بالجزائر القبرصية».

وأنشد احد الشعراء في ذلك:

عفونا ومن شأن الملوك أولى النهي ... بأن يتركوا الذنب العظيم عن الجاني

فلا خير في شخص يرى العفو بدعة ... عن المخطيء الجاني وإن كان نصراني[4]

وظلت قبرص تتبع لسلطان المماليك وتدفع الجزية بانتظام، وعندما آل حكم قبرص للبنادقة سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م حرص هؤلاء على عدم استفزاز السلطات المملوكية، فأرسلوا سفارة إلى مصر للاتفاق مع المماليك بشأن قبرص، كما استمروا في دفع الجزية المفروضة على قبرص وإرسالها إلى القاهرة حتى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م حين استولى العثمانيون على مصر، وعندئذ حول البنادقة الجزية إلى السلطان العثماني، إلى أن تمكن العثمانيون من فتح قبرص، فحكموها حكماً مباشراً[5].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص١٠٤ .

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٧٢٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص ١٠٥.

(٤) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١٤٥.

(٥) العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ٣٣٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية جـ٢، ص١٢٣١ - ١٢٣٢ .

الفصل الثالث

غزو جزيرة رودس ومحاولات الاستيلاء عليها

اتخذ الصليبيون في أعقاب طردهم من بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م جزيرة قبرص مركزاً جديداً لهم بتشجيع من الملك القبرصي هنري الثاني الذى وجد فيهم أداة صالحة لتنفيذ سياسته العدوانية ضد دولة المماليك -كما أسلفنا من قبل- وكان من بين الصليبيين فرسان الإسبتارية، وقد اعتبر هؤلاء أن إقامتهم في قبرص هي إقامة مؤقتة ريثما يتمكنوا من إيجاد مركز دائم لهم لا ينضون فيه تحت قيادة ملك قبرص وإنما شركاء له، ليمارسوا من خلاله أعمال القرصنة البحرية ضد السواحل الإسلامية في حوض البحر المتوسط، وفي سبيل ذلك دخلوا في مفاوضات مع الامبراطورية البيزنطية لنقل حقوق ملكية جزيرة رودس إليهم، غير أن القسطنطينية لم ترغب في التخلي عن الجزيرة، ولمّا لم يتمكن الإسبتارية من تحقيق هدفهم بالطرق الدبلوماسية فقد أخذوا يتحينون الفرصة لاحتلال الجزيرة عسكرياً[1]، ولم يطل انتظارهم فقد قصدهم سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م أحد كبار القراصنة الجنويين -واسمه «فيجنولو»- الذى استولى من الامبراطور البيزنطي «أندرونيق» على جزيرتي كوس وليروس في حوض المتوسط، وكان أن عرض ذلك القرصان الجنوي على مقدم الإسبتارية «فولك فيلارت»، مشروعاً ضخماً خلاصته أن يتعاون الطرفان في غزو جميع جزر الدوديكانيز -في بحر الأرخبيل- على أن يكون للإسبتارية ثلثا الغنيمة وللقرصان الثلث.

وبموافقة من البابوية ومباركتها، شرع الإسبتارية في غزو جزيرة رودس بمساعدة بعض السفن الجنوية، ولم تلبث أن أخذت حصون الجزيرة تتساقط في أيديهم وأحداً بعد الآخر، حتى سقطت مدينة رودس نفسها سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وبذلك فقدت الدولة البيزنطية جزيرة كبرى من جزرها في حوض المتوسط، وغدت رودس حصناً حصيناً للإسبتارية[2].

---

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٤٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢٣٣ - ١٢٣٤.

ولم تلبث رودس أن شكلت قاعدة حربية مركزية لتجمع الصليبيين وانطلاقهم لمهاجمة السواحل الإسلامية، مثلما فعل الملك القبرصي بطرس لوزجنان عند مهاجمته مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م وظلت كذلك بعد استيلاء السلطان برسباي على جزيرة قبرص، مما دفع برسباي نفسه إلى محاولة الاستيلاء عليها لولا توتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة لها بالشرق الإسلامي من تيموريين (مغول) وعثمانيين (أتراك) وإمارات التركمان بآسيا الصغرى في ذلك الحين، هذا فضلاً عما حلّ بالبلاد المصرية في آخر عهد برسباي من جملة الطواعين والمجاعات والقلاقل المملوكية وارتفاع الأسعار، فاضطر برسباي إلى إرجاء فتح رودس ريثما تحين فرصة ذلك[1].

وعلى الرغم من إرجاء برسباي هذا إلاّ أن الإسبتارية في رودس شعروا بالخطر يحدق بهم بعد النجاح الكبير الذى حققه برسباي في قبرص، فأسرعوا بإنفاذ رسول إلى السلطان سنة ٨٣٠/١٤٢٧م لطلب الصلح والكف عن القتال، وفي ذلك قال المقريزى «وقدم رسول صاحب رودس يسأل الأمان، وأن يعفى من تجهيز العسكر إليه وأنه يقوم بما يطلب منه، فأركب فرساً، وفي صدره صليب من ذهب وطلع القلعة، وقبل الأرض بين يدى السلطان، وأدى رسالته ثم نزل إلى القاهرة »[2].

غير أن الإسبتارية لم يلتزموا بما أخذوه على أنفسهم تجاه الدولة المملوكية، فما لبثوا أن عادوا إلى سيرتهم الأولى في القرصنة والاعتداء، ويبدو أن عدم تمكن السلطان برسباي ومن بعده ابنه السلطان الملك العزيز جمال الدين يوسف من توجيه حملة بحرية لوقفهم عند حدهم، بسبب الظروف الداخلية والخارجية، قد جعلهم يستمرون في الاعتداء على السواحل الإسلامية، وعندما تولّى السلطنة المملوكية السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، [3] استمر الإسبتارية في خططهم العدواني ومن ذلك أن

---

(١) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص٥٨، محمد زيادة، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص١١، ١٠٧ - ١٠٩، ١٩٦، ابراهيم حسن، البحرية في عصر السلاطين المماليك، ص٢٦٨. Atiya. op. cit, PP 341-342.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٤١.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٨، ص١٦ - ١٨.

أربع سفن لهم أغارت على رشيد سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م وأخذت منها أبقاراً وغيرها[١].

إزاء ذلك كان لابد للسلطان الظاهر جقمق من أن يواجه الموقف بمحاولة اجتثاث الإسبتارية من جذورهم، ولا يكون ذلك إلاّ بغزو جزيرة رودس حصنهم الحصين، ويقال إن من الأسباب التي شجعته على غزو الجزيرة أن السلطان العثماني مراد الثاني قد حرضّه على ذلك، وكان السلطان مراد يهدف إلى صرف الفرسان الإسبتارية كي يجعلهم ينشغلون بالدفاع عن جزيرتهم بدلاً من الانضمام إلى الحلف المسيحي الذى أوشك أن يتكون في أوروبا أنذاك لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين في منطقة البلقان.

على أن أخبار استعدادات السلطان الظاهر جقمق الأولية وصلت إلى فرسان الإسبتارية عن طريق الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم، فأرسل «لاستيك» رئيس الإسبتارية سفينتين إلى السواحل المصرية بغية الوقوف على ما يحدث هناك، وتمكن الإسبتارية من معرفة كل ما يدور من استعداد لغزو رودس بواسطة أحد النصارى من أهل دمياط[٢]، فأخذوا يستعدون في سرعة، كما أرسلوا إلى القوى النصرانية في أوروبا يستنجدون بها خوفاً من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرص، وإلى هذه الاستعدادات يرجع السبب في فشل السلطان الظاهر جقمق في إخضاع رودس وجعلها تابعة لسلطنة المماليك في مصر تبعية كاملة مثلما حدث لجزيرة قبرص[٣].

أما الحملات التي أرسلها السلطان جقمق ضد رودس فكانت ثلاث حملات وهي:

الحملة الأولى: سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م

بعد أن أتم الأسطول الإسلامي المملوكي استعداداته الحربية أبحر من ساحل بولاق في ٩ربيع الأول ٨٤٤هـ/٨آب ١٤٤٠م وكان مؤلفا من خمس عشرة سفينة، وعلى متنها مائتان من الجند بقيادة الأميرين تغري برمش الزردكاش السلحدار ويونس المحمودي أمير آخور، وقد انضم إلى الحملة عددٌ كبير من المتطوعين من

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص١١٦٥، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٠٦.

(٢) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص١١٢.

(٣) سعيد عاشور، مصر والشام، ص٢٤٢.

أهالي القاهرة ودمياط حتى بلغ مجموع المقاتلين قرابة ألألف مقاتل[1].

واتجهت الحمله أولاً إلى جزيرة قبرص حيث زودها الملك حنا الثاني بما تحتاجه من مؤن، ثم تابعت ابحارها باتجاه العلايا شمالاً حيث انضمت إليها سفينتان مشحونتان بالمقاتلين[2].

ووصلت الحملة إلى جزيرة رودس في أواخر ربيع الآخر، أواخر أيلول من السنة ذاتها، ورست بالقرب من الرأس الرملية بأقصى شمال الجزيرة[3]، وأرسل قادتها من هناك كتاباً موجهاً من السلطان جقمق إلى صاحبها[4]، غير أن الحملة فشلت في تحقيق هدفها، إذ كان الصليبيون مستعدين للمواجهة، كما تبين ذلك لعيون الحملة، وقد انقضّت عشر سفن للروادسة على السفن الإسلامية، وبسبب عنصر المبادأة بالهجوم، اضطرت السفن الإسلامية إلى الإبحار في وسط الليل والروادسة يتعقبونها[5].

وما لبثت أن وقعت في صبيحة اليوم التالي معركة حربية بين الفريقين، على مقربة من ساحل آسيا الصغرى، ولم تكن نتيجتها حاسمة، فتراجعت الحملة بعد أن استطاعت الخلاص من قتال الروادسة[6]، وفي طريق العودة إلى مصر، هاجمت الحملة احدى القرى وخربتها «فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها» [7] وقد علق ابن حجر العسقلاني على أحداث هذه الحملة ونتائجها بقوله: «وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين منه (جمادى الأولى) قدم المجاهدون من بحر الفرنج وكانوا أرسوا على رودس وراسلوا صاحبها بكتاب من السلطان، فجاءهم من أنذرهم أن الفرنج أرادوا أن يبيتوهم، فخرجوا من الساحل فأحاطوا بهم فقاتلوهم إلى الليل، فهبت ريح شديدة ومطر، فأفرجت لهم، فساروا كما هم إلى أن مروا على بعض سواحل البلد،

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص١٢٠٥ - ١٢٠٦.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١١٤، ابراهيم حسن، البحرية، ص٢٧٠

(٣) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص١١٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٩، ص١٢٧.

(٥) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص١١٣.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص١٢١٠، ابو المحاسن، النجوم الزواهرة، جـ٧، ص١١٤.

(٧) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص١٢١٠، ابو المحاسن، النجوم الزواهرة، جـ٧، ص١١٤.

فرأوا في طرفها معصرة قصب سكر، فنزلوا عليها فنهبوا ما فيها وأسروا من وجدوه من المزارعين وغيرهم، ورضوا بهذه الغنيمة التافهة، ونجوا بأنفسهم بعد أن قتل منهم نحو الأربعين وجرح جماعة، ولم يظفروا بما خرجوا بسببه- ولله الإرادة يفعل ما يشاء وينصر من يشاء»[1].

الحملة الثانية: سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م

لم يضعف فشل الحملة الأولى من عزم السلطان الظاهر جقمق على مواصلة سعيه للاستيلاء على الجزيرة، فشرع يستعد لإرسال حملة أخرى، ولكنه هذه المرة قام بإرسال قوة بحرية استطلاعية إلى رودس مؤلفة من خمس سفن لكشف أخبار الجزيرة ومعرفة مدى استعداد أهلها في أعقاب الحملة الأولى[2]، كما شدد الحراسة في الموانئ المصرية لمنع الفرنج من تسقط الأخبار كما حصل في المرة الأولى، وقد نجح هذا الاحتراز عندما ألقي القبض على جماعة من الفرنج في ناحية رشيد قدموا لتسقط الأخبار، فحملوا إلى القاهرة[3].

أما إسبتارية رودس فكانوا قد شنوا غارة بحرية على ساحل بيروت في أعقاب الحملة الأولى، بقوة بحرية قوامها عشر سفن، وأخذوا من هناك مركباً مشحوناً بالبضائع وباعوا ممن أسروه من المسلمين أربعين رجلاً، وأقلعوا من غير أن يقاتلهم أحد[4].

وكانت هذه الإغارة قد قوت عزم السلطان جقمق على الإسراع بتجهيز حملته الثانية، وعندما أدرك إسبتارية رودس خطورة الموقف أسرعوا بانفاذ وفد إلى السلطان في أواخر سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٣م «لطلب المهادنة ومعهم تقدمة وأسرى من المسلمين»، غير أن السلطان الذى خبر مكرهم وخبثهم خشي من أن يكون ذلك مجرد مخادعة لكي يبطل غزو الجزيرة، فيعودون بعد فترة إلى شن الإغارات من جديد على السواحل الإسلامية، فأمر بحبس وفدهم، وفي ذلك يقول السخاوي: لأنه «فهم منهم المخادعة

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٩، ص١٢٧ - ١٢٨.

(٢) السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص٤٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٩، ص١٥٦.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص١٢٢٧.

لكونهم أحسوا بالتجهيز إليهم»[1].

وبعد أن تم إعداد سفن الأسطول الإسلامي في موانئ مصر والشام، اتفق قادة الحملة على أن يتم اجتماع العسكرين الشامي والمصرى، في ساحل قبرص بين الملاحة (لارنكا) واللمسون (ليماسول) للتزود بالمؤن ثم مهاجمة رودس من هناك، فأبحرت السفن المصرية في شهر ربيع الآخر سنة ٨٤٧هـ/آب١٤٤٣م من ميناء دمياط بقيادة الأمير اينال الأجرود والأمير تمرباي، ووزع السلطان جقمق الصلاحيات العسكرية بينهما بحيث يكون الأمير اينال «باش العسكر المتحدث في أمره والنظر فيه براً وبحراً» ويكون الأمير تمرباي «أمير البحر»[2].

وفي أثناء ابحار السفن المصرية هبت عليها ريح عاصفة فرقت شملها فاتجه بعضها إلى بيروت واتجه البعض الآخر إلى طرابلس، وكان العسكر الشامي قد أبحر في وقت سابق إلى قبرص في خمسة عشر مركب، ثم تجمعت سفن الحملة بأكملها بين الملاحة وليماسول حسب الخطة الموضوعة في أوائل جمادى الأولى/أيلول، وبلغت عدتها ثمانين سفينة «ما بين أغربة وحمالات ومربعات وزوارق وسلالير سوى ما يتبعها من القوارب»،[3] أما عدد القوات فوصل إلى ألف وخمسمائة مقاتل من المماليك السلطانية فضلاً عن «جمع كثير من المطوعة المستعدين بالأسلحة والعدد الكاملة».

ثم أبحرت الحملة بعد أن مكثت في قبرص بعض الوقت إلى العلايا على ساحل آسيا الصغرى، واتجهت بعد ذلك إلى «أنطاليا فاغو»، ثم أبحرت صوب رودس ووصلت إلى جزيرة صغيرة فرست هناك، وعلى الفور حاصرت القوات الإسلامية حصن الجزيرة المعروف بحصن «قشيل الروج» «وهو حصن منيع على جبل رفيع في طرفها»[4]

وبعد قتال عنيف مع الصليبيين الذين كانوا يتحصنون به تمكن المسلمون من إحداث ثغرة في سوره، مما دفع الصليبيين إلى طلب الأمان، مقابل عدم تعرضهم للقتل فتم الاتفاق على ذلك، «وبادر المسلمون إلى الحصن فصعدوا إليه وعلوا عليه ونكست

---

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص٦١ - ٦٢.

(٢) م.ن، ص٦٣.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٩، ص٢٠١.

(٤) السخاوي، التبر المسبوك.، ص٦٣.

تلك الأعلام، وانتصبت رايات الإسلام وكسرت الصلبان وعلت كلمة الإيمان وزعق هناك الزمر السلطاني وحمدوا الله لحمد الأمر الشيطاني، وكان يوماً على المسلمين مطيراً وعلى الكافرين عبوساً قمطريراً، وساوت جدران الحصن الأرض... وتقسم أمراء السرية الأبراج فهدمت» وكان ذلك في ١٧جمادى الآخر/١٢ تشرين أول من السنة ذاتها[١].

وعلى الرغم من هذا الانتصار الأولي الذي حققه المسلمون، إلا أنهم لم يواصلوا حملتهم على رودس بسبب شدة هطول الأمطار، فأتفق رأي الأمراء، على أن يمضوا فصل الشتاء في بلدة من بلاد الروم يقال لها «مكرى»، ثم ما لبثوا أن غيروا رأيهم بالعودة إلى مصر، بسبب اشتداد الريح العاصفة، وفي أثناء عودتهم هبت الريح في وجه سفنهم ففرقت شملها، فمنها ما وصل إلى دمياط ومنها ما وصل إلى الإسكندرية ومنها ما وصل إلى ساحل رشيد، ولم يجتمع شمل الحملة إلا على ساحل بولاق في ١١شعبان/ ٢١ كانون أول من السنة ذاتها[٢] وقد علق السخاوي على نتائج هذه الحملة بقوله: «وبالجملة فلم يبلغوا ما كان المسير لأجله لكن على كل حال هي أحسن من السفرة الأولى ولذلك كانت الغزاة الثالثة»[٣].

الحملة الثالثة: سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٤م.

لم يفت فشل الحملة الثانية في عضد السلطان الظاهر جقمق، ولم يؤثر في عزيمته على مواصلة جهوده للاستيلاء على جزيرة رودس، إذ كان يطمح إلى تجديد عهد السلطان برسباي الذي أخضع جزيرة قبرص بعد حملات متتالية، ولذلك شرع في إعداد حملة بحرية جديدة، وبعد أن اكتملت تجهيزاتها عهد بقيادتها للأميرين اينال الأجرود وتمرباي، وأناط بهما المهمات والصلاحيات كما في الحملة السابقة، إلا أنه أضاف إليها قائداً جديداً وهو الأمير يلخجا الناصري، وأناط به مهمة محددة إذ «رسم له يكون في البحر وقت الحصار لحفظ المراكب»، وقد شارك في هذه الحملة أكثر من ألف وخمسمائة

---

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص٦٤، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٩، ص٢٠٩ - ٢١٠.
Lane-Poole, op. cit. P339

(٢) السخاوي، التبر المسبوك، ص٦٤ - ٦٥، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر جـ٩، ص٢١٠ - ٢١٣.

(٣) السخاوي، التبر المسبوك، ص٦٥.

من المماليك السلطانية، «سوى من سافر معهم من المطوعة الفقهاء والفقراء وغيرهم»[1].

وبعد أن استعرض السلطان الظاهر جقمق وحدات الحملة، أقلعت من بولاق في ٢٢محرم ٨٤٨هـ/٣ تموز ١٤٤٤م إلى الإسكندرية، فدمياط، ثم أبحرت صوب طرابلس حيث انضمت إليها بعض القوات الشامية، ومن هناك أبحرت باتجاه رودس[2]، وفور الوصول إلى برها نزل المسلمون بالقرب من عاصمتها رودس: «فوجدوا أهلها خزاهم الله قد حصنوا أبراجهم بالالآت والسلاح والمقاتلة بحيث صارت في غاية من الحصانة، فأخذ المسلمون في حصار أسوارها ونصبوا المجانيق والمكاحل على أبراجها وصار القتال بين الفريقين أياما، وقتل من كليهما بالرمي جماعة كثيرين» وفي الوقت ذاته قامت قوة إسلامية بمهاجمة القرى والبساتين والضياع المحيطة بالعاصمة فسبوا ونهبوا وأحرقوا، وأقامت قوة عسكرية إسلامية في كنيسة تجاه مدينة رودس لحفظ الطريق، غير أن قوات كبيرة من الصليبيين طرقتهم على حين غفلة، فاستشهد من المسلمين ما يزيد على عشرين مقاتلاً فيما نجا من تبقى منها والتحق بالسفن[3].

وحاول الإسبتارية بعد أن وصلتهم النجدات البحرية من غرب أوروبا مهاجمة السفن الإسلامية في البحر على حين غرة ظناً منهم بعدم وجود من يحفظها، إلاّ أن الأمير يلخجا الناصري المكلف بحماية السفن تصدى لهم بمن معه من القوات واستطاع دحرهم بعد معركة بحرية عنيفة بالرغم من خسارته لثلاث سفن[4].

ومع اشتداد مقاومة الإسبتارية لحصار القوات الإسلامية، ولما لاقاه المسلمون من الضيق بسبب كثرة ما أصيب منهم، فقد أرسل قادة الحمله إلى السلطان جقمق يطلبون منه المدد، فأمدهم بقوة قوامها خمسمائة مملوك على رأسهم ثلاثة من الأمراء الصغار، وكان أن خاض المسلمون آخر معركة كبرى مع الإسبتارية على أمل تحقيق نصر حاسم، غير أن النتيجة كانت على المسلمين فقد خسروا ثلاثمائة مقاتل وجرح خمسمائة، هذا

---

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص٨٧ - ٨٨.

(٢) محمد مصطفى زياد، المحاولات الحربية، ص٢٠١ - ٢٠٢، ابراهيم حسن، البحرية، ص٢٧٢. Atiya. op. cit, P475

(٣) السخاوي، التبر المسبوك، ص٨٨.

(٤) السخاوي، التبر المسبوك، ص٨٨، محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص٢٠١.

فضلاً عمن فرّ من المماليك إلى الكفار ارتداداً، بعد اليأس الذي لا قوة لضعف ايمانهم ولفقدان حس الجهاد ومعنى الاستشهاد عندهم.[1]

أمام ذلك كله اتفق قادة المحلة على فك الحصار عن العاصمة وإيثار السلامة بالعودة إلى مصر، فعادوا أرسالاً، وكان آخر من وصل كبيرهم الأمير اينال[2].

ويبدو أن هذه الحملة قد أثرت في نفسية المماليك لدرجة أن السلطان جقمق لم يحاول بعدها إرسال حملة اخرى، وقد علق السخاوي على ذلك بقوله: «وبالجملة فلم يتم للعسكر قصد ولا رجعوا بطايل، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة، ولله عاقبة الأمور»[3].

وعلى الرغم من توقف الحملات الإسلامية المملوكية على جزيرة رودس إلاّ أن الصليبيين وعلى رأسهم البابا، تخوفوا من معاودة الهجمات الإسلامية، فأرسل البابا إلى فرسان الإسبتارية يحثهم على ايجاد حل مع المماليك يكون مقبولاً للطرفين، فاختار الإسبتارية وسيطاً على صلة بالسلطان جقمق وهو التاجر الفرنسي «جاك كير» فقام بمهمة الوساطة بينهما، وأرسل مبعوثاً من قبله إلى السلطان وبصحبته مسؤول إسبتاري، وبعد مفاوضات مع السلطان تم الاتفاق على عقد صلح مع الإسبتارية، تعهدوا فيه بعدم الاعتداء على السفن والمتاجر الإسلامية أو التعرض لها[4].

وعلى الرغم من ذلك الصلح إلاّ أن العلاقات ظلت تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحياناً أخرى بقية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ولم يحجم الإسبتارية في كثير من الأحيان عن الإغارة على سفن المسلمين، ولـمّا كانت الدولة المملوكية لا تقوى على القيام بعمل حربي كبير ضدهم بسبب ما أصابها من إعياء اقتصادي بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إليه، فضلاً عن الخطر العثماني الذى أخذ يهدد حدودها الشمالية، فقد كانت تكتفي بالقاء القبض على التجار الأوروبيين وبعض رجال الدين -النصارى- مثلما حدث ذلك سنة ٩١٣هـ/ ١٥١٠

---

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص٨٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، جـ٩، ص٢٢٤.

(٣) السخاوي، التبر المسبوك، ص٨٩.

(٤) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص٢٠٢، ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٧٤ - ٢٧٥.

فقد رد السلطان قونصوه الغوري على اعتداء الإسبتارية في تلك السنة بالقاء القبض على جميع رجال الدين في القدس والأوروبيين في الإسكندرية ودمياط، وأغلق كنيسة القيامة في السنة التالية، ولم يلبث ميزان القوى أن تغير في حوض المتوسط عندما تمكنت الدولة العثمانية من اسقاط الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م وما أن أتت سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م إلا وكانت الدولة العثمانية تستولي على رودس فأضحت دار إسلام بعد أن كانت قاعدة حربية كبيرة للإسبتارية.[١]

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢٣٦ طرخان، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، ص١١٠ - ١١٤.

الفصل الرابع

اعتداءات البرتغال على سواحل

شبه الجزيرة العربية ورد المماليك

تميز القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري، بتطورات كبيرة أدت إلى قلب موازين القوى في قلب العالم القديم (آسيا وإفريقيا وأوروبا) فقد تمكن الأوروبيون من التوصل إلى نتائج هامة في مجال الكشف الجغرافي وفي تاريخ العالم، وقد جاءت هذه الكشوف مدفوعة بدوافع عديدة كان أهمها دافعين اثنين.

أولهما دافع ديني صليبي، إذ سعت أوروبا وعلى رأسها البابوية إلى تطويق العالم الإسلامي في محاولة للقضاء عليه، وذلك بعد النجاح الكبير الذي أحرزته الدولة المملوكية في تحرير بلاد الشام من براثن الاحتلال الصليبي، ونقل المعركة إلى مداخل أوروبا في حوض البحر المتوسط عندما سيطرت على جزيرة قبرص، وحاولت ذلك مع جزيرة رودس، كل ذلك في تعبئة جهادية إسلامية رائدة، كان المسلمون قد تاقوا إليها كرد فعل للعدوان الصليبي، وإحياء لفريضة الجهاد.

ويضاف إلى ذلك تلك الفتوحات الإسلامية الكبيرة التي حققتها الدولة العثمانية الفتية في منطقة البلقان -في قلب أوروبا- ثم التربع على عرش الامبراطورية البيزنطية التى طوى صفحتها السلطان العثماني محمد الفاتح-وانعم به من فاتح- بفتحه القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م.

وكانت نتيجة ذلك أن حظيت حركة الكشوف الجغرافية باهتمام كبير من قبل البابوات، أملاً في تحقيق سعيهم إلى تطويق العالم الإسلامي وتحطيمه، فأصدر بعضهم عدة مراسيم تخول ملوك اسبانيا والبرتغال -رواد الكشوف الأولى- الحق في ملكية كل إقليم جديد، وتورط بعضهم في هذه المراسيم، فوصفوا الإسلام بأنه طاعون، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التي كشفت أو سوف تكتشف، والحيلولة بينهم وبين دخولهم الإسلام، كما أن البابوات أخذوا يعدون المشتركين في الرحلات الكشفية بالعفو عند الحساب في اليوم الآخر.

وأرسل البابا نيقولا الخامس سنة ١٤٥٤م مرسوما إلى الملك هنري ملك

البرتغال، اشتمل على ما أطلق عليه اسم «خطة الهند» وهي تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية على الإسلام وأهله للقضاء عليه.

أما الدافع الثاني، فكان دافعا اقتصاديا، وقد جاء منبثقا من الدافع الأول وخادما له، إذ سعى الغرب الأوروبي إلى ايجاد طريق تجاري لا يمر عبر أراضي الدولة المملوكية ومياهها، كي يكون مقدمة لإنهاكها اقتصاديا.[1]

وقد ساعدت سياسة الاحتكار التجاري التي اتبعها بعض سلاطين الدولة المملوكية على تدعيم ذلك الاتجاه، وان اختلفت أسباب هذه السياسة. فمن السلاطين من سعى للتعويض عن الخسائر التي لحقت بالدولة نتيجة لاختلال نظامها الاقطاعي، ومنهم من سعى للحصول على المال من أيسر الطرق، مدفوعا بدافع الجشع والطمع، فاتخذ من سياسة الاحتكار وسيلة لذلك.

وبلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي، وسك الدينار الأشرفي ليكون أساسا للتعامل مع التجار الأوروبيين. مما أثار أولئك التجار وجعلهم يجدون في البحث عن طريق آخر يمكنهم من الحصول عل حاصلات الشرق من التوابل والبخور وغيرها مباشرة.[2] دون وسيط تجاري وهو الدور الذي كانت تقوم به الدولة المملوكية بحكم موقعها الجغرافي المتحكم بطريق المحيط الهندي -البحر الأحمر- برزخ السويس- البحر المتوسط.

على أنه يجب ألاّ يفهم بأن الكشوف الجغرافية التي قامت بها أوروبا قد انحسرت في هذا الدافع أو ذاك، وانما جاءت هذه الكشوف بطبيعتها نتيجة عملية للنهضة العلمية الأوروبية.

وقد تزعمت البرتغال الجهود الأولى لحركة الكشوف الجغرافية، بهدف التجارة والاستعمار أولاً، وللنزعة الصليبية التي كانت تسيطر على روح أميرها هنري الملاح ثانيا، ويظهر هذا الأمر الأخير من خلال المرسوم الذي بعث به إليه البابا نقولا الخامس سنة ١٤٥٤م وجاء فيه أن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه جون بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح ليقضي على أعداء

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، ص٥٩ -٦٢ .

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام، ص٢٦٨ - ٢٦٩، حسن ابراهيم، البحرية، ص١٨٠ - ١٨١ .

الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة مع سخافة هذا القول طبعا الذي ينم عن مدى الحقد الدفين ضد الإسلام وأهله، ثم أنها السياسة الأسهل لتحقيق الهدف.

وكانت الخطوات الأولى للكشوفات الجغرافية قد بدأت في عهد الأمير هنري الملاح، فقد وصل البرتغاليون إلى ماديرا ثم جزر الازورا ثم مصب نهر السنغال والرأس الأخضر وذلك حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م، ثم واصل البرتغالي بارثلميو ديازنهج الأمير هنري، فوصل إلى طرف افريقية الجنوبي واجتاز رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م. ثم تبعه فاسكودي جاما الذي وصل سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م إلى موانىء شرق إفريقية وكان منها موزمبيق وممبسة وماليندي، وكانت هذه الثغور غاصة بالتجار العرب، ومن ثغر ماليندي اتجه إلى الهند بمساعدة الملاح العربي «أحمد ابن ماجد» فوصل إلى كاليكوت (قاليقوط) على الساحل الغربي للهند المسمى ساحل ملبار.

وبذلك تحقق أمل الغرب الأوروبي والبابوية في كشف طريق جديد لا يمر عبر أراضي ومياه الدولة المملوكية، ومن ثم بدأت البرتغال في إقامة مراكز تجارية مسلحة لها في إفريقية الشرقية وفي الساحل الغربي للهند، وفي جزر المحيط الهندي والخليج العربي، وعملت على بسط سيطرتها العسكرية والتجارية على هذه المنطقة ابتغاء احتكار تجارة الشرق ونقلها إلى أوروبا عبر الطريق الجديد -المحيط الأطلسي- رأس الرجاء الصالح- الهند -. وبذلك استطاعت البرتغال تحويل التجارة عن البحر الأحمر الذي تسيطر عليه الدولة المملوكية، فغدت بذلك الوسيط التجاري الجديد بين الشرق والغرب بدلاً من الدولة المملوكية.[1]

وفي ذلك قال المؤرخ اسماعيل سرهنك وفي مدته (السلطان قونصوه الغوري) كان أهل البرتغال اكتشفوا طريق الهند من جهة رأس عشم الخير (رأس الرجاء الصالح)، واستولوا على عدة ثغور بحرية، وقطعوا تجارة الهند عن مصر.[2]

وقد أدى ذلك إلى حرمان دولة المماليك من الأرباح التى كانت تحصل عليها من بضائع الشرق الأقصى المتجهة إلى جدة أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا.[3] فغدت الدولة المملوكية منهكة من الناحية الإقتصادية بسبب هذا الأمر، وكان

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا، ص٦٣ - ٦٥.

(٢) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ص ١٨٨.

(٣) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص٢٦٦، ابراهيم حسن، البحرية، ص١٨٨.

ذلك بداية نهايتها، إلاّ أنها لم تستسلم بسهولة، بل قاومت ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

ولم يكتف البرتغاليون بما حققوه من الانتصارات، بل عملوا على الاستحواذ على مراكز المسلمين في الشاطئين الإفريقي والعربي وفي مضيقي هرمز وعدن، كي يتمكنوا من مهاجمة الملاحة الإسلامية في جميع وجوه نشاطها.[1]

وأخذوا في مهاجمة السفن الهندية المحملة بالبهار والتوابل والمتجهة إلى ميناء جدة، كما هددوا بغزو بلاد الحجاز وتخريبها بقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويل متاجر الشرق الأقصى بالقوة إلى أسواق عاصمتهم لشبونة.[2]

وحاول السلطان المملوكي قونصوه الغوري منعهم من تنفيذ مأربهم وذلك باللجوء إلى الوسائل السلمية تارة وإلى التهديد تارة أخرى، ذلك أنه أرسل إلى ملوك أوروبا يحذرهم بأنه سيقوم مكرها بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجاراً ورهباناً، وبإغلاق كنيسة القيامة في القدس فيما إذا استمر البرتغاليون في موقفهم العدواني في مياه المحيط الهندي، غير أن هذه التهديدات لم تجد نفعاً لدى الدول الأوروبية، وتمادى البرتغاليون في طغيانهم.[3]

وبلغ خطرهم مداه عندما دخلوا بأساطيلهم إلى مياه البحر الأحمر، أزاء ذلك وخوفا على طريق مكة المكرمة فقد شيد السلطان الغوري قلعة في جدة -لأنها فرضة الكعبة المشرفة- وشحنها بالعدد والعساكر، ولم تمض أيام من إتمامها حتى وصلت أساطيل البرتغال أمام جدة واطلقت عليها المدافع، فقابلتها حامية القلعة بالمثل، فخاف البرتغاليون سوء المنقلب، فاقلعوا بسفنهم عنها.[4]

ونتيجة لهذه الغارة رأى السلطان الغوري ضرورة إنشاء أسطول يكون قادرا على ردع الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، فشرع بإنشاء سفن حربية في مياه السويس وذلك سنة ٩١١/ ١٥٠٥م[5] كما قام في الوقت ذاته بالاتصال

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا، ص ٦٥.

(٢) إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٢، العبادي تاريخ البحرية ص، ٢٦٦.

(٣) إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٢.

(٤) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٥) م.ن.، ص ١٨٩، إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٣.

بالبندقية وبالسامري ملك كاليكوت، للوقوف معاً ضد البرتغال.

وكانت البندقية تواقة إلى التعاون مع المماليك، غير أنها حرصت في بداية الأمر على عدم التورط في القيام علانية بالمساعدة، ولكنها ابدت بعض الوسائل التي يستطيع السلطان الاعتماد عليها في بناء الأسطول دون أن يؤدي ذلك إلى إظهارها أمام الدول الأوروبية بمظهر الدولة التي تساعد دولة المماليك علانية.[1]

غير أن التضرر الشديد الذي لحق بالبندقية جعلها تغير من موقفها فقد اشتركت بأسطولها مع الأسطول المملوكي في مطاردة البرتغال بالبحر الأحمر، وأقامت عند عيون موسى مجاري من البناء لتوصيل المياه العذبة إلى حوض عملته هناك -على ساحل البحر الأحمر- لتنتفع به سفنها، وفي ذلك قال المؤرخ اسماعيل سرهنك: «وذكر...أن مراكب البنادقة اشتركت مع الأسطول المصري المذكور في مطاردة البرتغال بالبحر الأحمر لإعادة التجارة الشرقية إلى طريقها الأصلي لأن انتقالها إلى طريق عشم الخير (رأس الرجاء الصالح) أضر بالبنادقة جداً لما كانوا ينالونه من فائدة نقلها على سفنهم في البحر الأحمر ونقلها ثانية من ثغور مصر الشمالية إلى أوروبا... وفعل البندقانيون عند عيون موسى مجاري من البناء لتوصيل مائها إلى حوض عملوه على ساحل البحر الأحمر لتنتفع به مراكبهم».[2]

وما أن أتمت دولة المماليك صناعة السفن في ميناء السويس حتى أمر السلطان الغوري بإنزالها إلى البحر الأحمر وشحنها بالمقاتلين، وأسند رئاسة الأسطول (مسؤولية الإشراف على السفن) إلى أحد رؤساء البحر ويدعى سلمان، فيما أسند قيادة المقاتلين على سفن الأسطول إلى الأمير حسين الكردي، وكان قوام الأسطول ثلاث عشرة سفينة.[3]

واتجه الأسطول المملوكي لطرد الأسطول البرتغالي عن طريق الهند، وكان هذا قد تراجع إلى سواحل الهند عندما علم بوجود الأسطول المملوكي في جدة. وسار الأسطول المملوكي في أثره وهناك انضمت إليه سفن ملك إياس حاكم الجزيرة، ثم التقى بالأسطول البرتغالي في بندر شول ٩١٤هـ/١٥٠٨م وانتهت المعركة البحرية بهزيمة الأسطول

---

(١) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٢

(٢) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار، ص ١٨٩

(٣) المعبري، تحفة المجاهدين، ص ١٠٧ .

البرتغالي ومقتل قائده «لورنزو دي الميدا» وأسر إحدى سفنه، فيما فرت بقية السفن[1] وبهذا النصر سيطر الأسطول المملوكي على الموقف العسكري في المحيط الهندي وأرسل السامري ملك كاليكوت أربعين سفينة إلى الأمير حسين الكردي لتكون في خدمته وفي ذلك قال ابن إياس: «ورجع الأمير حسين تخفق على هامته وعلى سواري أسطوله المصري رايات الظفر وأعلام النصر، فاقام بميناء ديو عدة شهور حتى انقضى فصل الأمطار وأرسل إليه السامري أربعين غرابا لتكون في خدمته».[2]

غير أن الأسطول البرتغالي ما لبث في السنة التالية ٩١٥هـ/١٥٠٩م أن داهم الأسطول المملوكي في خليج ديو بعد الامدادات التي وصلته فما كان من الأمير حسين الكردي إلاّ أن قام بإخراج السفن التي كانت معه من غير استعداد. وخرج معه الهنود بسفنهم بلا استعداد أيضا، وانتهت المعركة التي دارت بينهما في خليج ديو إلى تدمير معظم قطع الأسطول المملوكي بشكل خاص، إذ أن البرتغاليين كانوا يهدفون إلى الإنتقام منه بسبب مقتل ابن قائد أسطولهم «لورنزو دي الميدا» ابن نائب ملك البرتغال بالهند، وبهذه الهزيمة اضطر الأمير حسين الكردي إلى الانسحاب بما سلم معه من السفن إلى جدة.[3]

وكانت نتيجة هذه المعركة البحرية أن أعاد البرتغاليون سيطرتهم على المحيط الهندي من جديد وبخاصة بعد أن وصلت أعداد سفنهم إلى حوالي خمسين سفينة[4] وبهذه السيطرة عاث البرتغاليون فساداً في سواحل الهند والمحيط الهندي، مما جعل ملوك الهند يوفدون إلى السلطان الغوري يستنجدون به لدفع الضرر عنهم[5] غير أن السلطان لم يستطع فعل أي شيء بعد تدمير معظم قطع أسطوله، واستطاع الأسطول البرتغالي في غياب القوة البحرية المملوكية الاستيلاء على جزيرة سوقطرة الواقعة أمام

---

(١) المعبري، تحفة المجاهدين، ص ٨٣، اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٩ .

(٢) ابن اياس بدائع الزهور جـ٤ ص١٤٢، احمددراج، المماليك والفرنج، ص ١٣٧.

(٣) م.س، جـ٤، ص١٨٢- ١٨٥، احمد دراج، المماليك والفرنج، ص ١٣٧.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٨٥ .

(٥) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٤ .

مدخل البحر الأحمر، فاحكم البرتغاليون بذلك سيطرتهم على طريق مصر-الهند[1] وقد مكنهم ذلك من إرسال أسطول مؤلف من ست عشرة سفينة إلى مياه البحر الأحمر بقيادة «الفونسو البوكيرك» سنة ٩١٩هـ/١٥١٢م، فبدأ بحصار عدن وحاول الاستيلاء عليها، إلاّ أنه فشل في تحقيق هدفه بسبب صمود أهل المدينة واستبسالهم في الدفاع عنها، فاتجه البوكيرك بأسطوله إلى اليمن وحاول الاستيلاء على بعض موانئها، فلم ينجح إلاّ بالاستيلاء على جزيرة تمران لبعض الوقت ثم انسحب عنها بعد ثلاثة أشهر من احتلالها وعاد إلى الهند.[2]

وأمام استمرار خطر البرتغاليين عمل السلطان الغوري على إعادة بناء الأسطول للوقوف في وجههم، وعلى الرغم من انشغاله بمواجهة غارات فرسان الإسبتارية في حوض البحر المتوسط إلاّ أنه تمكن من تجهيز أسطول مكون من اثنتين وعشرين سفينة أنفق عليه من ماله الخاص أكثر من أربعمائة ألف دينار، وحضر بنفسه إنزال السفن إلى مياه السويس[3]وقد ضم إليه عسكرا من الترك والمغاربة، وأربعة الآف مقاتل من أجناد المماليك وجعل قيادته للأمير حسين الكردي.[4]

وعندما أخذ الأسطول المملوكي يمخر عباب البحر الأحمر انسحب الأسطول البرتغالي واتجه إلى الهند فاستغل حسين الكردي ابتعاد الأسطول البرتغالي فاستولى على صنعاء وزبيد تحت الدولة العامرية وضمها إلى الأملاك المصرية، وقبل أن يتحرك بالأسطول لملاحقة الأسطول البرتغالي أقام حامية في اليمن جعل على رأسها الأمير برسباي[5] ولم يقو الكردي على منازلة الأسطول البرتغالي عندئذ أرسل بطلب النجدة، وكان السلطان الغوري قد وصلته نجدة بحرية أرسلها له السلطان العثماني بايزيد بقيادة سليمان الرومي ليتقوى بها ضد البرتغاليين فأرسلها من فوره إلى الأمير حسين

---

(١) ابراهيم حسن، البحرية. ص ١٨٤ .

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور جـ٤ ص ١٨٢-١٨٥.

(٣) م.ن، جـ٤ ، ص٣٦٥ المعبري، تحفة المجاهدين . ص ٤١ .

(٤) ابراهيم حسن، البحرية. ص ١٨٥ .

(٥) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٩ .

الكردي.[1]

والواقع أن هذه النجدة العثمانية تظهر بشكل جلي مدى التعاون الكبير الذي كان يتم بين دولتي المماليك و العثمانيين للوقوف معاً في وجه أعداء الأمة الإسلامية، وكان ذلك قبل حدوث التصدع في العلاقات بينهما.

وعلى الرغم من هذه النجدة إلاّ أن الأمير حسين الكردي لم يتمكن من إحراز نصر حاسم ضد البرتغاليين، وذلك بسبب القواعد القوية التي أنشأها البرتغاليون على الشاطيء الهندي[2] على أنه نجح في إبعاد خطرهم عن البحر الأحمر، وعندما توجه الأسطول المملوكي إلى عدن سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م التحم مع بعض قطع الأسطول البرتغالي وألحق به الهزيمة[3].

وعلى الرغم من الإعياء الشديد الذي أصاب دولة المماليك إلاّ أنها ظلت أمينة في الدفاع عن حمى الإسلام، وظلت كذلك حتى انهارت على يد العثمانيين الذين تمكنوا من الاستيلاء على بلاد الشام ثم مصر بين سنتي ٩٢٢-٩٢٣ هـ/ ١٥١٦-١٥١٧م، وقد انبرى العثمانيون لمواجهة البرتغاليين في مياه البحر الأحمر، وتمكنوا من دحرهم، وانتهى الموقف بأن دان البحر الأحمر للعثمانيين فيما دان المحيط الهندي للبرتغاليين.[4]

---

(١) المعبري، تحفة المجاهدين ص ٤٥ .

(٢) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٥ .

(٣) المعبري، تحفة المجاهدين، ص ٤٢ - ٤٦، ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٦.

(٤) المعبري، تحفة المجاهدين، ص٨٤ - ٨٥، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٩٠ ، العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٦٨، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٣٣ .

الخاتمة

مع الانتهاء من هذه الدراسة، لا بد من وقفة نستعرض فيها مجمل النتائج التي أوصلتنا إليها، فقد أوضحت أن دولة المماليك التي قامت في مصر وبلاد الشام قد انقسمت إلى قسمين:

دولة المماليك البحرية: وحكمت بين سنتي ٦٤٨ - ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ - ١٣٨٢م وكان سلاطينها من الأتراك وأشهرهم - فيما يتعلق بموضوع هذه الدراسة - الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون.

دولة المماليك البرجية: وحلت محل دولة المماليك البحرية، وحكمت بين سنتي ٧٨٤ - ٩٢٣/ ١٣٨٢ - ١٥١٧م، وكان سلاطينها من الشركس، وأشهرهم: الأشرف برسباي، الظاهر جقمق، قونصوه الغوري، وانتهت بقضاء العثمانيين عليها.

وأوضحت الدراسة أن مسيرة الجهاد الإسلامي التي قادها المماليك ضد الصليبيين انقسمت إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة تحرير بلاد الشام وتطهيرها تطهيراً شاملاً، وقد استغرقت الفترة الواقعة بين سنتي ٦٥٩ - ٦٩٠هـ/ ١٢٦١ - ١٢٩١م، وقادها ثلاثة من السلاطين على التوالي وهم: السلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون، والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

وبينت الدراسة أن كلاً من السلطان الظاهر والسلطان المنصور قد عقدا عدة مهادنات مع الصليبيين أثناء هذه المرحلة، وكانت هذه المهادنات خطأً تكتيكياً حربياً دافعه تفتيت القوى الصليبية لمواجهتها بشكل انفرادى، وقد أتت هذه السياسة البارعة أكلها.

المرحلة الثانية: وهي سرحلة الدفاع والوقوف في وجه تجدد الحروب الصليبية، والتي تمثلت في محاولات أوروبا والبابوية القيام بحملات صليبية جديدة على الشرق الأدنى الإسلامي لاعادة احتلال بيت المقدس وما فقدته في بلاد الشام، وكانت أكثر هذه المحاولات موجهة صوب مصر لإسقاطها والعبور من بوابتها إلى

بيت المقدس، وكان أخطرها ما قام به الملك القبرصي بطرس لوزجنان من هجوم على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، غير أن كل هذه المحاولات كان مصيرها الفشل.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة نقل المعركة إلى جزر البحر المتوسط التي كانت تنطلق منها الحملات الصليبية نحو مصر وبلاد الشام، وأول هذه الجزر هي جزيرة قبرص، وقد شن السلطان الأشرف برسباي ثلاث حملات متتالية عليها إلى أن تكن من إخضاعها للسيادة المملوكية.

وكانت رودس هي الجزيرة الثانية، فبعد أن اتخذها الصليبيون الإسبتارية قاعدة عسكرية لهم لشن الهجمات على السواحل الإسلامية على أثر إخضاع قبرص للسيادة المملوكية، وجه إليها السلطان الظاهر جقمق ثلاث حملاتٍ متتالية في محاولة للسيطرة عليها ،إلاّ أن ذلك لم يتحقق له.

وعلى الرغم من هذا الفشل إلاّ أن المماليك قزموا الصليبيين في رودس، وحدّوا من هجماتهم على سواحل مصر وبلاد الشام.

وبينت الدراسة أن اوروبا وعلى رأسها البابوية قد سعت إلى تطويق العالم الإسلامي في محاولة للقضاء عليه، بعد النجاح الكبير الذى حققه المماليك ضد الصليبيين، وتلك الانتصارات الإسلامية العظيمة التي حققتها الدولة العثمانية الفتية في منطقة البلقان، وقد تمخض هذا السعي عن ظهور الاكتشافات الجغرافية والتي آلت إلى وصول البرتغاليين إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح، ونقلهم التجارة عبر هذا الطريق بدلاً من طريق البحر الأحمر - برزخ السويس - البحر المتوسط - الذى تسيطر عليه دولة المماليك، وحاول البرتغاليون أيضا تهديد مداخل الجزيرة العربية والدخول إلى البحر الأحمر وضرب ميناء جدة فرضة الكعبة المشرفة، وقد أدى ذلك إلى حرمان المماليك، من الأرباح التي كانوا يحصلون عليها من بضائع الشرق الأقصى المتجهة إلى جدة، أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا، مما أصابها بالإعياء والإنهاك الاقتصادي.

لكل هذه الأسباب بينت الدراسة أن دولة المماليك قد أنزلت أساطيلها في البحر الأحمر، فلاحقت الأساطيل البرتغالية في المحيط الهندي وانتصرت عليها في معركة شول البحرية سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م، وعلى الرغم من هزيمة الأساطيل المملوكية من قبل البرتغاليين في معركة خليج ديو في السنة اللاحقة، إلاّ أن المماليك ظلوا يحكمون

سيطرتهم على البحر الأحمر ومداخله.

وبينت الدراسة أن نوعاً من التعاون العسكرى قد تم بين المماليك والبندقية ضد البرتغاليين، نظراً لأن البندقية قد تضررت تجارتها بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح، وأظهرت كذلك أن العثمانيين قد وقفوا بأساطيلهم إلى جانب المماليك في حربهم ضد البرتغاليين مما يظهر بشكل جلي مدى التعاون الكبير الذى كان يتم بين الدولتين للوقوف معا في وجه أعداء الأمة الإسلامية، وكان ذلك قبل حدوث التصدع في العلاقات بينهما.

وخلاصة الموقف أن دولة المماليك قد اتبعت استراتيجية في مسيرة الجهاد الإسلامي، ضد الصليبيين قامت على ما يلي:

- مع وجود القوى الصليبية في الساحل الشامي،
  - مسار عسكري: حروب عسكرية ونفسية مذهلة.
  - مسار سياسي: مفاوضات شاقة ومهادنات تكتيكية شائكة.
  - النتيجة: تحرير الساحل الشامي وتطهيره من براثن الاحتلال الصليبي تطهيراً شاملاً ونهائياً.
- مع تجدد الحروب الصليبية ومحاولة الالتفاف على العالم الإسلامي:
  - منحى دفاعي: صد الهجمات عن السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر والمحيط الهندي.
  - منحى هجومي: نقل المعركة إلى أرض الخصم ومواقعه.
  - النتيجة: السيادة على جزيرة قبرص وتحجيم الصليبيين في جزيرة رودس، وفرض نطاق أمني على السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر وبحر العرب وسواحل الجزيرة العربية ضد الاعتداءات البرتغالية.

- الملاحق -

نص الهدنة المعقودة

بين السلطان الظاهر بيبرس وبين الإسبتارية

في حصن الأكراد وحصن المرقب وعكا سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس الصالحي النجمي، وبين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت الإسبتار الفلاني بعكا والبلاد الساحلية، وبين فلان مقدم حصن الأكراد، وبين فلان مقدم حصن المرقب، وجميع الأخوة الإسبتار لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم الأثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة الف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة للإسكندر بن فيليب اليوناني-على أن جميع المملكة الحمصية والشيرزية والحموية وبلاد الدعوة المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة، وبلادها الموصوفة، وقراها وضياعها، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها ومزروعها ومعطلها، وطرقاتها ومياهها، وقلاعها وحصونها- على ما يفصل في كل مملكة، ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى اخرها.

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات: عامرا وداثراً وبما فيها من الغلات صيفياً وشتويا، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها- تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن كلاً من الجهتين يجتهد ويحرص في عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده وطاقته، ومن دخل اليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيره، أو القناة كان عليهم العداد كجاري العادة، ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر يحمي بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره

واتباعه، وممن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة، وكذلك مقدم بيت الإسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة.

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه: سواء أقام أو لم يقم، وكان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه، ومن يخرج من مدينة حمص، ويعود اليها، ومن غرب منهم ومات وكان عليه العداد.

وعلى أن يكون أمر فلاحي بلد المناصفات في الحبس والإطلاق والجباية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان باتفاق مع نائب بيت الإسبتار على أن يحكم فيه شريعة الإسلام إن كان مسلماً، وان كان نصرانيا يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد، وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبين.

وعلى أن الملك الظاهر لا يأخذ في بلد المناصفات المذكورة من تركمان ولا عرب ولا أكراد ولا غيرهم عدادا ولا حقاً من حقوق بلد المناصفات، إلاّ ويكون النصف منه للملك الظاهر، والنصف الآخر لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع اليها، والسكن فيها إذا اختاروا العود، وكذلك بيت الإسبتار لايمنعون أحداً من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود .

وعلى أن الملك الظاهر لا يمنع أحد من العربان والتركمان وغيرهم ممن يؤدي العداد، من الدخول إلى بلد المناصفات، إلاّ أن يكون محاربا لبعض الفرنج الداخلين في هذه الهدنة، فله المنع من ذلك، وأن تكون خشارات(من الدواب)الملك الظاهر وخشارات عساكره وغلمانهم وأهل بلدة ترعى في بلد المناصفات آمنة من الفرنج والنصارى كافة، وكذلك خشارات بيت الإسبتار وخشارات عسكرهم وغلمانهم وأهل بلدهم ترعى آمنة من المسلمين كافة في بلد المناصفات، وعند خروج الخشارات من المراعي وتسليمها لأصحابها، لايؤخذ فيها حق ولا عداد ولا تعارض من الجهتين.

وعلى أن تكون مصيدة السمك الرومية مهما تحصل منها، يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، كذلك المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، ويكون لبيت

الإسبتار في كل سنة خمسون ديناراً صورية عن القش، ويكون القش جميعه للملك الظاهر يتصرف نوابه فيه على حسب اختيارهم، ويكون اللينوفر (نوع من الرياحين) مناصفة، النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بانشاء بيت الإسبتار ايضا يكون مناصفة. وان يكون متولي أمرهما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة الإسبتار، يتوليان أمرهما والتصرف فيهما وقبض متحصلهما. وتقرر أن مهما يجدده بيت الإسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الإسبتار.

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة، فهي شيزر، وأبو قبيس وأعماله، وعينتاب وأعمالها، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الإسبتار وأعمالها، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها وقراها المستقرة بها، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها.

وما استقر بمملكة الملك المنصور ناصر الدين (محمد) / بن الملك المظفر أبي الفتح (محمود) بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فهي: حماة المحروسة وقلاعها ومدنها، وقراها وسهلها وجبلها وانهارها، ومنافعها وثمارها وعامرها، وبلاد رقيبة وبلاد بارين بحدودها وتخومها وعامرها وداثرها وجميع من فيها على أن الملك المنصور لا يرخص للتركمان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقيبة وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون الغلة لقلعة بارين، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الأخوة الإسبتارية والاتفاق معهم على ذلك.

وعلى أنه أن تعدى أحد من أصحابه بأذية، أو تعدى أحد من الفرنجية في بلاده بأذية كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما، فإن انكشف الاخيذة اعيدت. والا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست، وكما لهم، كذلك عليهم.

والمستقر لمملكة الصاحبين: نجم الدين وجمال الدين، والأمير صارم الدين نائبي الدعوة المباركة، وولد الصاحب رضي الدين وهي: مصياف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها وعامرها وداثرها ومدنها وبلادها وضياعها وطرقاتها، ومياهها ومنابعها، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبلي بهرا واللكام كل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتخومها أن يكون الجميع آمنين من على الرصيف الذي بشيزر إلى

نهاية الأراضي بحصون الدعوة وبلادها، وحماية القرية المعروفة «بعرطمار» يكون له أسوة الإسماعيلية. وإن علم الأصحاب أن أحداً من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الإسبتار لأذيه، أعلموا بيت الإسبتار قبل أن تجري أذية، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به، وان لم يحلفوا يردوا الاذية التي تجري .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الإسبتار رائحين وغادين ومنصرفين في بيعهم وشرائهم، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم. وكذلك جميع فلاحي بلاد الاسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم، وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع بلاد الإسبتارية، وإن تعدى أحد من الجهتين في سوق أو طريق في ليل أو نهار، تكون المهلة خمسة عشر يوما، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلاّ الخير بينهم، ومن توجهت عليه اليمين حلف، ومن لم يفعل يحلف وإلاّ يرد الأذية. وتكون الضيعة التي رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الإسبتار، وهي المشيرقة تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه المهادنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم، ويحمل الأمر في الحقوق.

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الإسبتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة الف ومائتا دينار قومصية وخمسون مداً حنطة، وخمسون مداً شعيراً، ولا تبقى قطيعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الإسبتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد ولا منكر ولا ماض ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه.

وتقرر أن تكون جميع المباحثات من الجهتين مطلقة مما يختص بالمملكة الحمصية، يسترزق بها الصعاليك، وأن نواب الملك الظاهر يحمونهم من اذية المسلمين من بلاده المذكورة، وان نواب بيت الإسبتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة. ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة إلى بلاد الإسبتارية بأذية ولا إغارة. ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الجارية في يد نواب الإسبتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة.

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصفات أحد ممن يجب عليه العداد وامتنع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضرا: اما عداد ديوان الملك الظاهر، واما عداد بيت الإسبتار،فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص المتنع عن

العـداد أو الخـارج من بلد المناصـفـات رهنا بمقـدار مـا يجب عليـه من العـداد، بحضـور رئيس من رؤساء بلد المناصفات، ويترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد.

وإن خرج أحد ممن يجب عليـه العداد، وعجز النائب الحاضـر عن أخذ رهنه: فإن دخل بلد من بلاد الملك الظاهر، كـان على النواب ايصـال بيت الإسـبـتـار إلى حـقـهـم مما يجب على الخـارج من العـداد. وكـذلك إن دخل الخـارج المذكـور إلى بيت الإسـبـتـار، كـان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقـهم مما يجب على الخارج من العداد. وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة.

وعلى أن التـجـار والسـفـار والمتـرددين من جـمـيع هذه الجـهـات المذكـورة يـكـونون امنين من الجهتـين: الجهـة الإسلامـيـة، والجهـة الفرنجـيـة والنصـرانيـة في البـلاد التي وقعت هذه الهدنة عليـهـا- وعلى النفـوس والأمـوال والدواب ومـا يتـعلق بـهم، يحـمـيـهم السلطان ونوابه، ويتـعـاهدون البـلاد الداخلة في هذه الهـدنة المباركـة الواقـع عليـهـا الصلح وفي بلد المناصـفـات - من جـمـيع المسلمين، ويحـمـيـهم بيت الإسـبـتـار في بلادهم الواقـع عليـهـا الصلح وفي بلد المناصفات - من الفرنج والنصارى كافة.

وعلى أن يتـردد التـجـار والمسافـرون من جـمـيع المترددين على أى طريق اختـاروه من الطرق الداخلة في عـقـد هذه البـلاد الداخلة في هذه الهـدنة المبـاركـة المختـصـة بالملك الظاهر، وبلاد مـعـاهدية، وبلاد المناصـفـات، وخـاص بيت الإسـبـتـار والمناصـفـات، يكون السـاكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال، تحمي كل جهة الجهة الأخرى.

وعلى أن مايختص بكل جهة من هذه الجهات: الإسلامـيـة، والفرنجيـة الإسبتارية لا يكون عـداداً على مـالهـا فـي المناصـفـات: من الدواب والغنم والبـقـر والجـمـال وغـيـرها، على العادة المقررة في ذلك.

وعلى أن اطلاق الرؤساء باتـفـاق من الجـهـتين: الإسلامـيـة والفرنجـيـة الإسبـتـارية، ومتى وقعت دعـوى على الجهـة الآخرى، وقف أمرها في الكشف عنهـا أربعين يوماً، فإن ظهرت أعيدت إلى صاحبها، وإن لم تظهر حلف ثلاثة نفر ممن يختارهم صاحب الدعوى، على ما يعلمونه في تلك الدعوى، وإن ظهرت بعد اليـمين اعيدت إلى صاحبها، وإن كان قد تعوض عنها أعيد العوض.

وعلى أن يكشفوا عن الأخيذة بجهدهم وطاقتهم. ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها، فإن حلفوا يبرؤون من الدعوى، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت على صاحبها، وإن امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعي، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شيء مثله، وكذلك يجري الأمر في القتل: عوض الفارس فارس، وعوض الراجل راجل، وعوض البركيل بركيل وعوض التاجر تاجر، وعوض الفلاح فلاح. وإذا انقضت الأربعون يوما المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى عليه للمدعي وجب عليه العوض حتى يرد، وان رد اليمين على المدعي ومضى على ذلك عشرة أيام ولم يحلف صاحب الدعوة بطلب دعواه وحكمها، وإن حلف اخذ العوض.ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد، ومعه مال لغيره أعيد جميع ما معه ، وكان الهارب مخيراً بين المقام والعود. وإن هرب عبد وخرج عن دينه، أعيد ثمنه، وإن كان باقيا على دينه أعيد.وعلى أن لا يدخل من القاطنين في بلد المناصفات: من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم، والى بلاد الفرنج والنصارى كافة لاغارة ولا أذية بعلم الملك الظاهر وبلاد معاهدية ولا يدخل أحد بلاد المسلمين لاغارة ولا اذية بعلم بيت الإسبتار ولا رضاهم ولا إذنهم.

وعلى أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلح يحمل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معاهديه وبين بيت الإسبتار. وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقص بموت أحد من الجهتين ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة. وهي: عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرساعات، أولها يوم تاريخه.

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لايتركون أحداً من التركمان ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الإسبتار أو رضاه، إلاّ أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة ويعلموا حاله، لئلا تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وببلد النصارى. ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الإسبتار في غد نزولهم المكان، أن كان المكان قريبا، وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الإسبتار.

وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفات والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، أوما استقر الحال عليه إلى آخر وقت. وعلى أن تخلى أمور المملكة الحمصية على ما كان مستقراً في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر»

هذا ما وقع الاتفاق والتراضي عليه من الجهتين، وبذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري: حجة بمقتضاه، وتأكيداً لما شرح أعلاه. كتب في تاريخ كذا وكذا.[1]

نص الهدنة المعقودة
بين السلطان الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت سنة
٦٦٧هـ / ١٢٦٩م

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع ايار سنة الف وخمسمائة وثمانين يونانية على بيروت وأعمالها المضافة اليها، الجاري عاداتهم في التصرف فيها أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت واماكنها المضافة اليها: من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها، وسن الفيل بحدودها والرح والشويف بحدودها، وأنطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقة، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين اليها من جميع أجناس الناس والمترددين إلى بلاد السلطان فلان، وهي الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكار وما هو منسوب اليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٣١ - ٣٩ .

الرحبية وما هو مختص بها: من قلاع وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما يختص بها، والمملكة الحلبية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشويكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها: بثغورها وحصونها وممالكها، وبلادها وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظما في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها، وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته، براً وبحراً، ليلاً ونهاراً: في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان، ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عُدم لأحد من الجانبين مال، أو أخذت أخيذة، وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن كان لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعى، وبرئت جهته من تلك الدعوى. فإن أبى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي، وأخذ ما يدعيه. وان قتل أحد من الجانبين خطأ أو عمداً كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره: فارس بفارس وبركيل ببركيل، وراجل براجل، وغلام بغلام، وان هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة، وان عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لا ينقصها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا اوان ولا تنقص بموت أحد من الجانبين. وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق، في تاريخ كذا وكذا.[1]

نص الهدنة المعقودة
بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد بركة
مع الإسبتارية في قلعة لد سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قسيم امير المؤمنين، وبين المباشر المقدم الجليل أفريز أولد كال مقدم جميع بيت الإسبتار. سراجون بالبلاد الساحلية وبين جميع الأخوة الإسبتارية لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للإسكندر بن فيليب اليوناني، على أن تكون قلعة لدبكمالها وربضها وأعمالها وما هو منسوب إليها ومحسوب بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان وما استقر لها الآن، ويتعلق بذلك من المواضع والمصايد والملاحات والبساتين والمعاصر والطواحين والجزائر: سهلها وجبلها وعامرها ودائرها، وما يجري بها من أنهار وينبع منها من عيون وما هو مبني بها من عمائر، وما استجد بها من القراح، وكل ما عمر في أراضي المناصفات على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها، وحصن برغين وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة تكون جميع بلده

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩ - ٤٢ .

وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة تكون جميع بلده وهذه الجهات خاصاً إلى آخر الزائد للملك الظاهر، ولا يكون لبيت الإسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب، وكذلك مهما كان مناصفة، كقلعة العليقة في بلادها لبيت الإسبتار، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ولا يكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الإسبتار.

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى لا تكون فيها مناصفة لبيت الإسبتار ولا للمرقب ولا حق. ولا رسم ولا شرط ولا طلب في جميع بلاد الدعوة، مصياف المحروسة والكهف والمنيقة والقدموس والخوابي والرصافة والعليقة، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة، يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر، وليس لبيت الإسبتار ولا الفرنجية فيه حديث ولا طلب.

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر لد ومقرّباً إلى حدود بلاد مرقية المعروفة بها، والداخل جميعها في الفتوح الشريف، واستقرارها بحكم ذلك في الخاص المبارك الشريف، وحد البيوت المحاذية لسور الربض، تستقر جميعها مناصفة بين السلطان وبين بيت الاستبار نصفين بالسوية، وما في جميع هذه البلاد، من بساتين وطواحين وعمائر ومصايد وملاحات ووجوه العين والمستغلات الصيفية والشتوية والقطاني والحقوق المستخرجة، وما هو مزروع من الفدن لأهل الربض وبيادرها: يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الإسبتار سرجوان بالسوية نصفين.

وما هو داخل الربض وداخل المرقب فإنه مطلق من الملك الظاهر للمقدم الكبير أفريز أولد كال مقدم الإسبتار سراجون وخيالته، ورجاله ورعيته، برسم إقامتهم وسكناهم من داخل الأسوار، وعن سور الربض المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها بما فيه من حقوق طرقات واحكار، ومراعي المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارها وجميع السخريات، وكل أرض مزروعة أوغير مزروعة مهما أخذ منه من حق أو عداد يكون مناصفة.

وكل ما هو من المواني والمراسي البحرية المعروفة جميعها بحصن المراقب: من مينا بلدة إلى ميناء القنطرة المجاورة لحدود مرقية، تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار. وما ينعقد عليه ارتفاعها، وتشهد

به الحسبانات- جميعه مناصفة، وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الإسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة.

ويعتمد ذلك في كل مايصل للمترددين والمقيمين بالقلعة والربض: من عامة وغير عامة، وخيالة على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للأخوة ولغلمانهم المعروفين بالأخوة الإسبتارية من الحبوب والمئونة والكسوة، والخيل التي هي برسم ركوبهم خاصة، ولا يكون عليها حق بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه.

وعلى انه لا يحمي أحد من الأخوة الخيالة والوزراء والكتاب والنواب والمستخدمين شيئا عن اسم بيت الإسبتار ليستطلق الحق ويمنع من استيدائه، ولو أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم. إذا أظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط أخذ جميع ماله مستهلكا للجهتين، للديوان السلطاني المعمور ولبيت الإسبتار، إن كان خارجا من البحر أو نازلا إلى البحر، صادراً وارداً، وكذلك في البر صادراً وارداً بعد المحافظة على ذلك وصحته.

وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الإسبتار، وولاته وكتابه ومستخدميه وغلمانه يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم بجميع ما يتعلق بهم ، وكذلك غلماننا وولاتنا ونوابنا ومستخدمونا وكتابنا ورعايا بلادنا آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم، متفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق وسائر المقاسمات والطرق والبساتين والطواحين والحقوق المقررة على الفدن على اختلاف أجناسها وكذلك الرّآسة واستخراج وجوه العين والحبوب والتصاريف الجاري بها العادة المقررة على الفدن من جميع ما يتعلق بها.

وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الأسبتار متفقين جملة على ذلك لا ينفرد أحد منهم بشيء، إلا باتفاق وتزيل في دفاتر الديوان المعمور وديوان بيت الإسبتار، ولا يطلق ولا يحبس إلا باتفاق من الجهتين. ولا ينفرد واحد دون آخر.

وعلى أن أي مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف في تأديبه، يعتمد ذلك فيه نائبنا، من شنق يجب عليه أو قطع، وأدّب بحكم الشرع

الشريف: من شنق وقطع وكحل أعين، بحيث لا يعمل ذلك إلاّ بحضور نائب من جهة بيت الاستبار حاضر يعاين ذلك بعينه، ويكون قد عرف الذنب وتحققه، وإن كان ذنبه يستوجب جناية أو غرامة دراهم أو ذهب أو مواشي أو غير ذلك على اختلاف أجناسه، يكون ما يستأدي مناصفة للديوان المعمور لبيت الإسبتار وصاحب المرقب. فإن كان فيها قماش وبضائع على اختلاف أجناسه، وصاحبه مسلم، يأخذ بضاعته من غير اعتراض من الجهتين بعد أداء الحق للديوان المعمور لبيت الإسبتار، وإن لم يعرف صاحب البضاعة وكانت لمسلم أعيدت للخزانة السلطانية ولا يكون لبيت الإسبتار تعلق، وإن كان صاحب البضاعة نصرانياً على اختلاف أجناس النصارى: تؤخذ بضاعته من غير اعتراض من جهتنا بعد الحق، وإن لم يعرف صاحب البضاعة، وكانت لنصراني، تبقى تحت يد بيت الإسبتار، خلا ما كان من بلاد مملكة السلطان على اختلاف دينه: إن كان نصرانيا أو ذمياً، على اختلاف جنس دينه، ليس لبيت الإسبتار عليهم اعتراض، ويحمل ذلك جميعه على اختلاف أجناس البضائع للديوان المعمور.

وعلى أنه متى انكسر مركب، وظهر إلى بر المواني‌ء بضاعة، وقصد صاحبه شيله إلى جهة يختارها في البر والبحر، ولا يتبع، فيؤخذ الحق منه: إن باع يؤخذ الحق، ويكون الحق للجهتين، وهو الحق المعروف الجاري به العادة.

وعلى أن التجار السفارة والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من المواني‌ء المحدودة في أعلاه، يتوجهون بخفارة الجهتين من غير حق: لا يتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين، ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب ومواniيها، فالترتيب على الخفارة من الجهتين مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرقات صادراً وواردأ، بحيث أنهم يحضرون إلى بلاد المرقب وإلى المواني‌ء بالمرقب المحدودة أعلاه، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين على ما شرحناه.

وعلى أن غلمان المباشر المقدم لبيت الإسبتار والأخوة والخيالة والرعية المقيمين بقلعة المرقب والربض يكونون آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومن يلوذ بهم ويتعلق في حال صدورهم وورودهم إلى بلادنا الجارية في مملكتنا في البر، منا ومن نوابنا بالمملكة والبلاد الجارية في حكمنا، ومن ولدنا الملك السعيد ومن ارائنا

وعساكرنا المنصورة، وان قتل قتيل أو أخذت أخيذة في حدود المناصف ببلاد المرقب فيقع الكشف عن ذلك عشرين يوما ، فإن وجد فاعل ذلك يؤخذ الفاعل بذنبه، وإن لم يظهر فاعل ذلك مدة عشرين يوما فيمسك رؤساء مكان قطع الطريق وأخذ الأخيذة وقتل القتيل، إن كان أخذ وقتل فكان من قتل القتيل أو أخذ الأخيذة- أقرب القرباء إلى الذي قطع عليه الطريق أو قتل قتيلاً، فإن خفي الفاعل لذلك وعجز عن إحضاره بعد عشرين يوما ، يلزم أهل نواب الجهتين من الغرباء الاقرب لذلك المكان بألف دينار صورية: للديوان السلطان النصف، ولبيت الإسبتار النصف، ولا تتكاسل الولاة في طلب ذلك، ويكون طلبه يداً واحدة ولا يختص الواحد دون الآخر ولا يحابي أحد منهم لأخذ الفلاح في هذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد واستخراج الحقوق ومقاسمة الغلال وطلب المفسدين ليلاً ونهاراً.

وعلى أن لا تغير الهدنة المباركة بأمر من الأمور، ولا من جهتنا ولا من جهة ولدنا الملك السعيد إلى انقضاء مدتها المعينة أعلاه وفروعها ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الإسبتار الحاكم على المرقب وغيره، وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا ، ويحقق الكشف إلى مدة أربعين يوما ، فمن يكون للبداية يخرج منها على من شغب، ويكون قد عرف دينه الذي بدا من جهة كل واحد، وإذا تغير النواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يعتمد ما تضمنته هذه الهدنة، ولا يخرج عن هذه المواصفة وإذا تسحب أحد من المسلمين علي اختلاف أجناسه، إن كان مملوكاً أو غير مملوك أو معتوقا أو غير معتوق، أو كائنا من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم، وإن كان غلاماً أو غير غلام-يرد ، بجميع ما يوجد معه، إن كان قليلاً أو كثيرا يرد ، ولو أن المتسحب دخل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معه، وإن كان خيلاً أو قماشا أو دراهم أو ذهباً وما يتعامل الناس به يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه، وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما حضر معه: من الخيل والأقمشة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلا أو كثيراً يمسكه لنوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالمرقب.وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بماحضر معه.

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا بكتاب ولا بمشافهة ولا برسالة ولا بقول: ولا يطلع

أحد من جهتهم إليهم، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم والوصول إلى جهتهم من القلعة المذكورة، ولا تسير إليهم مئونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه، ولا تكون بينهم معاملة، وإن حضر أحد من جهة العليقة إليهم يمسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذون بذلك خطوطهم.

وعلى أنهم لا يجددون عمارة قلعة، ولا في القلعة عمارة، ولا في البدنة ولا في أبراجها، ولا يعتمدون إصلاح شيء منها إلاّ إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرممونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ولا يجددون عمارة في ربضها ولا في سورها ولا في أبراجها، ولا يجددون حفر خندق وعمارة خندق، أو تجدد بناية خندق، أو قطع جبل أو تحصن عمارة أو تحصن بقطع جبل، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع ولم نأذن لهم بسوى البناية على أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد، وقد أذنا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم.

وعلى أن صهيون وأعمالها ولرومة (؟) أعمالها والقليعة وأعمالها وعيدوب وأعمالها الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون-يجري حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة بحكم أن بلاده المذكورة جارية في ممالكنا الشريفة.

وعلى أنه لا يمكن بيت الإسبتار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا بأذية ولا ضرر يعود على الدولة وعلى بلادنا وحصوننا ورعيتنا، إلاّ أن يكونوا أيد غالبة صحبة ملك متوج.

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة وهو برج معاوية الذي عند المحاصّة الداخلة في مناصف المرقب الآن يخرب ما يخصنا فيه، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه، وأن الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الإسبتار فيه شيء من البرين، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الإسبتار، وأن الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير الذي هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالحجارة والكلس لا تكمل عمارتها ويبقى على حاله، وهو وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه.

وعلى أن نواب الإسبتارية بالمرقب لا يخفون شيئا من مقاسمات البلاد ولا شيئا من حقوقها الجاري بها العادة أن بيت الإسبتار يستخرجونه ولا يخفون منه شيئاً، وكل

ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الإسبتار قبل هذه الهدنة يطلعون نوابنا عليه ولا يخفون منه شيئا قليلاً ولا كثيراً من ذلك.

وعلى أن السلطان يأمر نوابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة من المفسدين والمتلصصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته، وكذلك الماستر المقدم أفريز أولد كال يلزم ذلك من الجهة الأخرى، ومتى وقع- والعياذ بالله- فسخ بسبب من الأسباب، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم، ولا يمنعوا من السفر إلى أماكنهم من الجهتين، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً. وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة، مستقرة بقواعدها المسطورة للمدة المعينة وهي عشر سنين وعشرة أشهر كوامل، أولهامستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى أخرها متتابعة متوالية، لا تفسخ بموت أحد من الجهتين ولا بعزل والٍ وقيام غيره موضعه ولا زوال رجل غريبة ولا حضور يد غالبه، بل يلزم كلاً من الجهتين حفظها إلى آخرها ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخرا، والخط أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى. في تاريخ كذا وكذا.[1]

نص الهدنة المعقودة

بين السلطان المنصور قلاوون وبين متملك طرابلس سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١

تقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام « بيمند بن بيمند »- ملك الفرنج - لمدة عشر سنين كوامل متواليات، أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من هذه السنة(٦٨٠هـ-١٥ يوليو ١٢٨١م) -الموافق للخامس من شهر تموز سنة ألف وخمسمائة واثنين وتسعين للإسكندر اليوناني- وذلك على بلاد الملك المنصور، والملك الصالح ولده قريبها وبعيدها، وسهلها وجبلها، غورها ونجدها، قديمها ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس، ومجاور لها من المملكة البعلبكية وجبالها، وقراها الرحلية والجبلية. وجبال الفينين والعقبيين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات المستجدة وهي حصن الأكراد وأنليس والقليعات، وصافيتا وميعار، واطليعا وحصن عكار ومرقية، ومدينتها وبلادها ومناصفاتها، وهي بلاد الملكية.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٤٢ - ٥٠ .

وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الإسبتار وبلده ومدينته، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى وبلاد الست وبلاطنس وبلادها وجبلة والاذقية، وأنطاكيا والسويدية، وبلاد ذلك، وحصن بغراس وحصن ديركوش، وصهيون، وبرزية، وحصون الدعوة، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور، ويد ولده، وعلى الموانىء والسواحل، والأبراج، وغير ذلك. وعلى بلاد الإبرنس وعلى طرابلس. وما هو داخل فيها وأنفة البترون، وجبيل، وبلاد ذلك، وعرقا وبلادها، المعينة في الهدنة وعدتها إحدى وخمسون ناحية. وما هو للخيالة. والكنائس وعدتها إحدى وعشرون بلدا. وما هو للفارس« روجار ولا لولاى» من قبلي طرابلس يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية، وميناؤها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة، ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر نفراً، وهم المشد والشاهد والكاتب، وثلاث غلمان لهم، وعشر رجالة في خدمة المشد. ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنوها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعون ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعون ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها لا يعارضهم المشد فيه. وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق.

ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس، ولا غيره إلاّ ويؤخد الموجب عليها، وعلى أن الإبرنس لا يستجد خارج مما وقعت الهدنة عليه بناء يدفع ولا يمنع وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الأخرى. ولا ينقض ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره، وأن لا يحسن لأحد من أعداء السلطان ولا يتفق عليه برمز ولا خط، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة. وتقررت الحالة على ذلك، وعادت الرسل.[1]

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٢١٠ - ٢١١ .

نص الهدنة المعقودة

بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الصالح

وبين حكام عكا وصيدا وعثليث، سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي-خلد الله سلطانهما- وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة. وهم السنجال أود، كفيل المملكة بعكا، والمقدم افرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية، والمقدم افرير فيكول للورن مقدم بيت الإسبتار، والمرشان افرير كورات نائب بيت مقدم اسبتار الأمن لمدة عشر سنين كوامل، وعشرة شهور وعشر ساعات أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، الموافق الثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين لغلبة الإسكندر ابن فيلبس اليوناني. على جميع بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي، جميع القلاع والحصون والبلاد والممالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع والأراضي، وهي مملكة الديار المصرية وما بها من الثغور والقلاع والحصون الإسلامية، وثغر دمياط وثغر الإسكندرية ونسترية وسنترية وما ينسب إلى ذلك من المواني‌ء والسواحل والبرور، وثغر فوة وثغر رشيد، والبلاد الحجازية، وثغر غزة المحروس وما معها من المواني‌ء والبلاد، والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها، وبصرى وأعمالها، ومملكة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، ومملكة القدس الشريف وأعمالها، والأردن وبيت لحم وأعماله، وبلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت جبريل ومملكة نابلس، وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانيها وسواحلها ومملكة يافا والرملة وميناها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها وميناها، وقيسارية وميناها وسواحلها وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها، ولد وأعمالها، وأعمال العوجا وما معها من الملاّحة وبلاد الفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها، وبيسان وأعمالها وبلادها والطور وأعماله واللجون وأعماله وجنين وأعمالها، وعين جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله، وما ينسب اليه وطبرية وبحيرتها وأعمالها وما معها، والمملكة الصفدية، وما ينسب اليها، وتبنين، وهونين، وما معها من البلاد والأعمال، والشقيف المعروف بشقيف أرنون وما معه من البلاد والأعمال، وما هو منسوب إليه، وبلاد القرن وما معه خارجا عما في هذه

الهدنة، ونصف مدينة إسكندرونة، ونصف ضيعة مارن بقراهما وكرومهما وبساتينهما وحقولهما، وما عدا ذلك (من أعمال إسكندرونة المذكورة) يكون جميعه بحدوده وبلاده لمولانا السلطان ولولده والنصف الآخر لمملكة عكا، والبقاع العزيزي وأعماله، ومشغرا وأعمالها وشقيف تيرون وأعماله والعامر جميعها في لايا وغيرها وبانياس وأعمالها، وقلعة الصبيبة وما معها من البحيرات وأعمالها، وكوكب وأعمالها وما معها، وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق والمملكة الدمشقية وما لها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال، وقلعة بعلبك وما معها وأعمالها، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود ومملكة حماة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها، وبلاطنس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وبرزية وأعمالها، وفتوحات حصن الأكراد وأعمالها وصافيتا وأعمالها، وميعار وأعمالها والعريمة وأعمالها وقدفيا وأعمالها ومرقية وأعمالها وحلب وأعمالها، وحصن عكار وأعماله وبلاده والقليعة وأعمالها، وقلعة شيزر وأعمالها وأفامية وأعمالها، وجبلة وأعمالها، وأبو قبيس وأعماله، والمملكة الحلبية، وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون، وأنطاكيا وأعمالها وما دخل في الفتوحات المباركة، وبغراس وأعمالها، والدربساك وأعماله، والرواندان وأعمالها وجازم وأعمالها، وعينتاب وأعمالها، وتيزين وأعمالها، وسبخ الحديد وأعماله، قلعة نجم وأعمالها، وشقيف دير كوش وأعمالها، والشغر وأعماله، وبكاس وأعماله، والسويداء وأعمالها، والباب وبزاعا وأعمالهما، والبيرة وأعمالها، والرجية وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشميميس وأعمالها، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إلى جميع ذلك وما لم يعين من الحكام بمملكة عكا. وهم كفيل المملكة، والمقدم افريركليام ديباجوك مقدم بيت الديوية، والمقدم افرير نيكول للورن مقدم بيت الإسبتار، والمرشان افرير كورات نائب مقدم بيت اسبتار الأمن، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في طاعتهم و(ما) تحويه مملكتهم الساحلية، ومن جميع الفرنج على اختلافهم، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك الصالح ولا حصونهما ولا قلاعهما، ولا بلادهما، ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما، ولا عربهما ولا تركمانهما ولا أكرادهما ولارعاياها على اختلاف الأجناس والأنفار ولا ما تحويه من المواشي والاموال والغلال وسائر الأشياء منهم

ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية أيديهم، وكذلك كل ما يستفتحه مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح على يدهما ويد عساكرهما ونوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة من البلاد الساحلية وهي مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وطواحينها وما يختص بها من كرومها وما لها من حقوق حولها وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة، وعدتها «بما فيها من مزارع» ثلاث وسبعون ناحية خاصا للفرنج، وكذلك حيفا والكروم والبساتين والعدة بحيفا سبع نواحي وكذلك ما رسا بأرضها المعروفة بها تكون للفرنج. وكذلك دير السياج، ودير مارلياس يكون للفرنج. ويكون لمولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصا، عفا والمنصورة وباقي بلاد الكرمل وهي ثلاث عشرة ناحية للفرنج، وعثليث القلعة والمدينة، والبساتين التي قطعت والكروم وفلاحتها وأراضيها تكون لها، ويكون لها من البلاد ست عشرة ناحية وتكون خاصاً لمولانا السلطان ما يذكر وهو قرية الهراميس بكاملها وحقوقها ومزارعها، وبقية بلاد عثليث تكون مناصفة خارجاً عما للخاص الشريف، وعما لخاص عثليث يكون مناصفة وهي ثمان نواحي. وفلاحة الإسبتار بعمل قيسارية يكون خاصا للفرنج بما فيها، ونصف مدينة إسكندرونة ونصف قرية مارن بما فيها للفرنج وما عدا ذلك يكون خاصا لمولانا السلطان. ومهما كان في إسكندرونة وقرية مارن من الحقوق والغلة يكون مناصفة. وصيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب إليها يكون خاصاً للفرنج، ويكون لها من البلاد خاصا خمس عشرة ناحية، وما في الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قديمة تسقي أراضيهم يكون خاصا لهم. وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان ولولده بكمالها. وتكون هذه البلاد العكاوية وما عُين في هذه الهدنة آمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة وما هو خاص وما هو مناصفة آمنة مطمئنة ومن بها، وليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سوراً ولا قلعة ولا برجا ولا حصنا قديما ولا مستجداً، وعلى أن شواني مولانا السلطانن وشواني ولده متى عمرت وخرجت لا تتعرض لأذية البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها، وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً

للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها ولا تتزود منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها، وإن انكسر شيء من هذه الشواني- والعياذ بالله- من ميناء من المواني‍ء التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهداً أو مع مقدمها فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها ويمكن رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر فيها والعود إلى البلاد الإسلامية، ويبطل حركة ما ينكسر منها أو يرميه البحر فإن لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها. ويعتمد هذا الفصل من الجهتين. وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجية وغيرهم من جوا البحر لقصد الحضور لحضرة مولانا السلطان أو حضرة ولده في بلادهما المنعقدة عليها هذه الهدنة فليلتزم نائب المملكة والمقدمون بعكا تعريف مولانا السلطان بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين وأن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون برآء من عهدة اليمين في هذا الفصل، وإن تحرك عدد من جهة البر من التتار وغيرهم فأي من سبق إليه من الجهتين فيعرف الجهة الأخرى وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية- والعياذ بالله - عدد من التتار وغيرهم في البر وانحازت العساكر قدامهم، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بضرة فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم اليه. فإن حصل جفل- والعياذ بالله- من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونوا آمنين مطمئنين بما معهم وعلى أن نائب المملكة بعكا والمقدمين يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء وإن ظفروا بأحد منهم يمسكون، وإن باعوا عندهم بضائع يمسكوا حتى يحضر صاحبها وتسلم إليه، وكذلك يعتمد مولانا السلطان في أمر الحرامية هذا الاعتماد. وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان. وتكون

البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الراخلة في هذه الهدنة. وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة ترمى براً ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان في ذلك على وجه الهبة بغير حق. وتضمنت الهدنة تقرير الشروط الجاري بها العادة.

ولما حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة، توجه الأمير فخر الدين أياز أمير حاجب والقاضي بدر الدين بن رزين لتحليف الفرنج فحلفوا واستقر ذلك"[1].

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٣٤ - ٤٣ .

نص الهدنة المعقودة

بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولديه

الملك الصالح والأشرف خليل وبين مالكة صور سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم. استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين قسيم أمير المؤمنين وولده، وولي عهده المولى السلطان الملك الصالح علاء الدنيا علي خليل أمير المؤمنين، وولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل خلّد الله سلطانهما وأدام دولتهم- وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سير هري بن الإبرنس بيمند مالكة صور حال استقرار هذه الهدنة ونائبها بمملكة صور، وهو القومص الجليل سير ريمون يسكند لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات أولها يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، صلوات الله على صاحبها وسلامه، الموافق لثامن عشر تموز سنة ألف وخمسمائة وستة وتسعين للإسكندر بن فيليبس اليوناني، وآخرها الرابع عشر من جمادي الأول من سنة أربع وتسعين وستمائة الموافق للثامن عشر من تموز سنة ألف وستمائة وخمسة للإسكندر، يتبع بعضها بعضا، على حكم ما استقر عليه الحال إلى آخر أيام الملك الظاهر-رحمه الله-متتاليات الساعات والأيام والشهور والسنين إلى آخرها على جميع البلاد الإسلامية الداخلة في ممالك بلاد مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين، وبلاده وقلاعه ومدنه وحصونه، وما اشتملت عليه مملكة الديار المصرية، وما فيها من الثغور والسواحل والقلاع والمدن، والمملكة الشامية وما اشتملت عليه من الثغور والقلاع والحصون والمدن، والثغور الساحلية، وما اشتملت عليه من الحصون، ومن برور ومن موانيء، ومن بلاد. والبلاد البعلبكية والحمصية والحموية والفتوحات الشريفة بحصن الأكراد وحصن عكار، وما يضاف إليها، ودخل في جملتها من ثغور وبلاد معاهديه وحصون وبرور وسواحل، والمملكة الحلبية والفتوحات الأنطاكية، وما هو مجاور لصور من المملكة الصفدية والشقيفية وغيرها من القلاع والحصون والبلاد، على كل ما هو داخل في مملكة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين من ممالك وحصون وقلاع وثغور ومدن وقرى وسواحل وموانىء وبرور، قريبها وبعيدها، سهلها وجبلها، عامرها

ودائرها، غورها ونجدها، شرقها وغربها، يمنها وحجازها، شاميها ومصريها، وما تشتمل عليه من قرى ومزارع وأنهار و طواحين وأبراج وبساتين، وعلى من حوته هذه الممالك وتحويه من عساكروجند ورعايا وعرب وتركمان وأكراد وفلاحين وسائر أجناس الناس على أجمعين على اختلاف أجناسهم وتغاير أشكالهم وأديانهم، وعلى أموالهم ومواشيهم على تغاير أصوافها وأوبارها والأموال على تغاير أجناسها.

تكون هذه الممالك المذكورة. وما اشتملت عليه، ومن فيها من سائر الناس أجمعين الساكنين بها والقاطنين والمترددين إليها ، ومنها وفيها من التجاو والسفار آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومواشيهم في حالتي صدورهم وورودهم وسفرهم،وإقامتهم، وما لمعاهديه من البلاد والجهات، وما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور وعلى يد أولاده ويد عساكرهم وجنودهم، وجيوشهم من الحصون والبلاد والقلاع يجري عليها وعلى من فيها، وما فيها حكم هذه الهدنة المباركة إلى آخر مدتها، وعلى بلاد الملكة دام مراريت بنت سيرهري بن الإبرنس بيمند المعينة لها خاصا، ومناصفة في هذه الهدنة، وهي مدينة صور وما دارت عليه أسوارها وضواحيها خاصة، وما فيها من الأراضي التي فيها البقول والأقصاب والمعاصر التي لا دمنة لها، وهي المعوقة ورشمون- أراضي الزيتون- من الضواحي التي لادمنة لها، وبستان العوجا الذي لا دمنة له، والحكورات والطواحين التي حول مدينة صور تكون هذه الضواحي خاصة لصور، وذلك بشرط أن تكون رشمون والمعوقة وبستان العوجا أراضي من ضواحي صور بغير دمن، ولا قرى، وعلى أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده السلطان الملك الصالح والملك الأشرف نصرهم الله خاصا لهم الخمس الضياع من ضياع صور من أجودها وآكثرها متحصلاً من عين وغلة التي استقرت في الخاص الشريف السلطاني من الأيام الظاهرية وهي :قانا ومزرعتها، القروية، إصريفيا ومزرعتها، حانا يخن وما بكمالها، المجادل بكمالها، كفر دبين بكمالها على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية، تكون هذه الخمس القرى خاصا جميعها بأراضيها وحدودها وحقوقها، وكل ما هو داخل فيها ومنسوب إليها لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولادة من غير مشاركة لهم في ذلك.

وتكون للملكة مراريت مالكة صور من ضياع صور، عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصا لها على ما هو مستقر في الهدنة الظاهرية: أن هذه العشر الضياع تكون

خاصا لمملكة صور حسبما عينت بأسمائها فيها وهي: عين أبي عبدالله، القاسمية، سدس، قحلب، المرفوف، الجارودية، الجمادية، مرفلة، رأس العين، برج الإسبتار، تكون هذه العشر الضياع المذكور بحقوقها وحدودها وأراضيها وما هو داخل فيها خاصا لملكة صور دام مراريت مالكة صور، وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها بما فيها من مزارع وعدتها بما فيها من المزارع ثمان وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي : الطالية، درتيه، الدهرية، الفنونية القية، واديالحجاج، العرتية، البحتية، المالكية، دير عمران، التقبية، الكبية، بابولية، الحمية، دير قالون، غرايغال، الزيادات، وحيوية، ربعين، بني دفنع، مارنين، عيا، صديقي، رسكيانية رفلية، عشليث ومزرعتها، الملاحات، السحنونية، الفراخية، طرقات الدير، المعلية، الخميرا، روتية، بابوح، فقعة، البارورية، كفرد هال، حويا ومزرعتها، سرفية، مجدل، بيت روح، طرسا، فسون، التفاحية، أمد، ركنا، مارون، طرسنحات، كفرناي، بني باقتلة، معولة، طفلسة، أشحور، الرمر، الفهرون، دورغيا، ابروخية، هرين، الصواني، حلوسية، معروب، بعليث، درفانون، طرديا، بدياس، النعمانية، بدوث، الحمرانية، طورا، السرفيات، بردسيل الجديدة، العباسة، الخيشة، السفلسة، أشحور، الفاه، شادسة، العجيلة، المصرية، وذلك خلا المعوقة، ورشمون، وبستان العوجا التي ذكرناها ليست بقراه، وأن المعوقة اسم المعصرة، وبستان العوجا غير قرية، ورشمون غير قرية، وإن كانت قرى كانت من جملة بلاد المناصفات، وإن لم تكن قرى كانت من جملة ضواحي المختصة بها.

وحدود هذه البلاد جميعها من جهة القبلة مرفلة، وقرية دير عمران، وبرج وادي الحجاج، والعربية، وريف، وبارين، ومن الشرق عناقة، سكاسه، ومجدل شرقية، والسحنونية الداخل ذلك المناصفات، وقانا، ومحروما، والمجادل، وكفر دبين الداخل في الخاص الشريف، ومن الشمال أصر يفيا الداخلة في الخاص الشريف، ونهر القاسمية، ومن الغرب تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة جميعها بمزارعها وحقوقها، وأنهارها، وبساتينها ودمنها، ومتحصلات مغلاتها من وجوه العين، والغلة مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور، وبين الملكة دام مراريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها من وجوه العين والغلة، وحقوق، وزكاوات وعداد وحكورات، وأجر وضمانات، وخراجات وجبايات، ومواريث، وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها نصفين بين الجهتين بالسوية.

ويستقر الحال في جميع الاشياء، كما كانت إلى آخر الأيام الظاهرية، وعلى أن يكون المباشر لهذه الضياع والمناصفات المذكورة والمستخرج لأموالهاوغلالها نواب مولانا السلطان الملك المنصور عز نصره باتفاق مع نواب الملكة دام مراريت مالكة صور بحيث لا تنفرد جهة باستخراج درهم ولا غيره، وعلى أن يستمر الشخص بأرض الزهرية في المكان الذي جرت به عادته في الأيام الظاهرية، وعلى أن تكون هذه البلاد المختصة بمالكة صورآمنة مطمئنة هي ومن فيها من عسكرها وخيالتها ورجالتها ورعيتها وتجارها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومواشيهم في حالتي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم إلى آخر هذه الهدنة، وعلى أن التجار والسفار والمترددين من الجهتين يترددون ويبيعون ويشترون ويوردون ويصدرون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وعلى أنهم لا يحدث عليهم شيء غير ما جرت العوائد به من الجهتين، وأن الممنوعات مستقر حالها في البيع على حالتها، وعلى أن المراكب من الجهتين المترددة في البحر تكون كل فرقة منها من الفرقتين آمنة من الفرقة الأخرى مطمئنة في البحور والمراسي والدخول والخروج، تلتزم كل طائفة من الجهتبن كف الأذية عن الجهة الأخرى، وعلى أنه متى انكسر مركب من الجهتين إن كان لمسلم تسلمه له إن كان موجوداً، ولنواب مولانا السلطان إن كان مفقودا، وإن كان لنصراني من بلاد مولانا السلطان -عز نصره -فالحكم فيه كحكم المسلم، وإن كان من أهل صور ومن رعية الملكة مالكة صور يسلم له المال إن كان موجودا، ولديوانها إن كان مفقوداً. وإن مات أحد من الجهتين في الجهة الأخرى ولم يكن له وارث يجري عليه هذا الحكم من الجهتين ولا يخفى ماله، وعلى أنه متى قتل أحد من الجهتين ووجد القاتل مسلما يحكم فيه نواب مولانا السلطان الملك المنصور -نصره الله - بما تقتضيه سياسة السلطنة الشريفة المطهرة، وإن كان نصرانيا من أهل صور تحكم فيه الملكة دام مراريت مالكة صور، كل جهة بحضور نائب من الجهة الأخرى يباشر الحكم فيه بما تقتضيه أحكام الجهتين، وذلك يكون الحكم في كل من تعدى وأسرف وأغتال، يتولى ذلك نواب مولانا السلطان تأديب المسلم، وتأديب النصراني يتولاه نواب الملكة مالكة صور، وإن خفي أمر القتيل كانت دية الفارس من الجهتين الفا ومائة صورية، و التركبلي مائتي درهم، والفلاح مائة دينار، والتاجر تكون ديته على قدر جنسه وأصله ومقدرته، يؤخذ ذلك من أهل القرايا التي يقتل فيها ذلك الشخص جناية لهم وتأديبا جملة واحدة، يعتمد ذلك من الجهتين وإن كان المقتول في

المناصفات كان متحصل الجناية مناصفة، وعلى أنه متى أخذت أخيذة ترد بعينها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمر القتيل أو أمر الأخيذة كانت المهلة في الكشف عن أمره أربعين يوما ، وإن لم يظهر له خبر حلف والي تلك الجهة وثلاثة أنفار ممن تختارهم الجهة الأخرى. وإن امتنعوا من اليمين لزمت الجناية المذكورة وقيمة الأخيذة، وعلى أنه متى هرب أحد من الجانبين يرد بما معه، ومتى هرب مملوك من أي جنس كان يرد بجميع ما معه ذكراً كان أو أنثى، عبداً كان أو حراً. يعتمد ذلك على الجانبين. على أن الملكة دام مراريت مالكة صور لا تستجد بناء قلعة ولا تجديد سور ولا حفر خندق ولا ما يتحصن به مما يمنع أو يدفع.

وعلى أن مولانا السلطان لا يفسح لأحد من عساكره ولا من جنوده ولا من أهل بلاده من التطرق لبلاد صور المعينة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر ولا سرقة ولا عدوان ولا غدر لا في بر ولا بحر ولا يتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعاهديه للملكة دام مراريت مالكة صور لا في نفسها ولا في خيالتها وأصحابها خلا الإسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان. ولمولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم الى مالكة صور بالسوء والضرر متى أراد ، وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من متجرم أو مفسد أو رجل غريبة وسائر الإفرنجية يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان بأذية أو إغارةأو فساد أو عدوان.

وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لا توافق أحداً من سائر الفرنجية على أمر فيه أذية لبلاد مولانا السلطان أو على ممالكه أو رعاياه وسائر من فيها وما فيها ولا تساعد أحداً على ذلك برمز ولا كتابة، ولا إشارة، ولا رسالة إلى حين انقضاء هذه الهدنة. ولها من مولانا السلطان مثل ذلك، وعلى أنه متى انقضت الهدنة أو وقع - والعياذ بالله - فسخ من أحد من الجهتين كانت المهلة للتجار والسفار والمترددين اربعين يوما حتى يعود كل واحد بماله إلى مأمنه ووطنه آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين. تستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة، وقواعدها المقررة، لا تنتقض أحكامها ، ولا ينفك نظامها بموت أحد من الجهتين ولا بعزل وال ولا تزيله غيره، ولا برجل غريبة ولا بيد غالبة، بل تستمر مدتها وتوفى عدتها ، وهي عشر سنين كوامل متتاليات، أولها الرابع عشر من جمادي الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية الموافق لليوم الثامن عشر من شهر تموز من سنة ألف وخمسمائة وآخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة

أربع وتسعين وستمائة الموافق الثامن عشر من تموز من ألف وستمائة وخمسة للإسكندر بن فيليبس اليوناني.

يلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرها ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها والخط الشريف أعلاه بمقتضاه إن شاء الله تعالى.[1]

(١) إبن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٠٣ - ١١٠ .

نص رسالة السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون إلى الملك ليو -ارجون سرمان- ملك أرمينية الصغرى وذلك بعد فتحه عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

نعلم الملك أرجون سرمان وفقه الله في سره وجهره، وجعله ممن يلتقي المصيبة في آهل ملته إذا عجز أن يلتقيها بصدره، أما بعد: فإنا فتحنا عكا التي هي دين الصليب، في هذا الأحد القريب، فلو رأيت خندقها العميق مردوما، وكل برج كان بها منيعا قد عاد مهدودما، وفرسانها في خنادقها جاثية، قد أصبحوا بسيوفنا «صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية»[1] ولمّا أحاط بها ركابنا المنصور، كما يحيط بها السور، أظهروا الجلادة في القتال، ورموا بالمجانيق والنبال، وحسبوا أن بأسهم يصونهم، وأن مانعتهم حصونهم، فما نفعهم الحديد، ولا كثرة العدد والعديد، لمّا قومنا لهم كل سنان، وجاهم الموت من كل مكان، أشرفنا عليهم من الأسوار، وأحطنا بهم كما يحيط بالزند السوار، فولوا من بين أيدينا منهزمين، وأصبحوا على مافعلوا نادمين، فكل منهم يُرى طريحاً أو أسيرا، لمّا دمرناهم وديارهم تدميرا

أما الديوية فما منعهم طارقة ولا جنوية، وأما الإسبتار فأفناهم سيفنا البتّار ،وأما الزنادقة البنادقة، القوا بأنفسهم في البحر لما رأو حملاتنا الصادقة، وأنت أيها الملك، إذ لم تعتبر بعكا لأنكيناك على أقصى وجودك، وأعدمناك بعد وجودك، وتندم ندامة أهل عكا حيث لا نفعهم الندم، وتصبح بعد الوجود في العدم، فتحمل القطيعتين الأولة والثانية، وتحضر بنفسك إلى أبوابنا العالية، وإن خالفت وأطعت إبليس لنطيلنّ حزنك على بلاد سيس، ويكون رأيك على نفسك وبيس، فكل منكم يقل: لم يبق بعد عكا إلا أنا، فالجو بنفسك قبل أن تقع في الويل والعناء، وافهم هذا الكلام والسلام.[2]

---

(١) سورة الحاقة الآية ٧-٨.

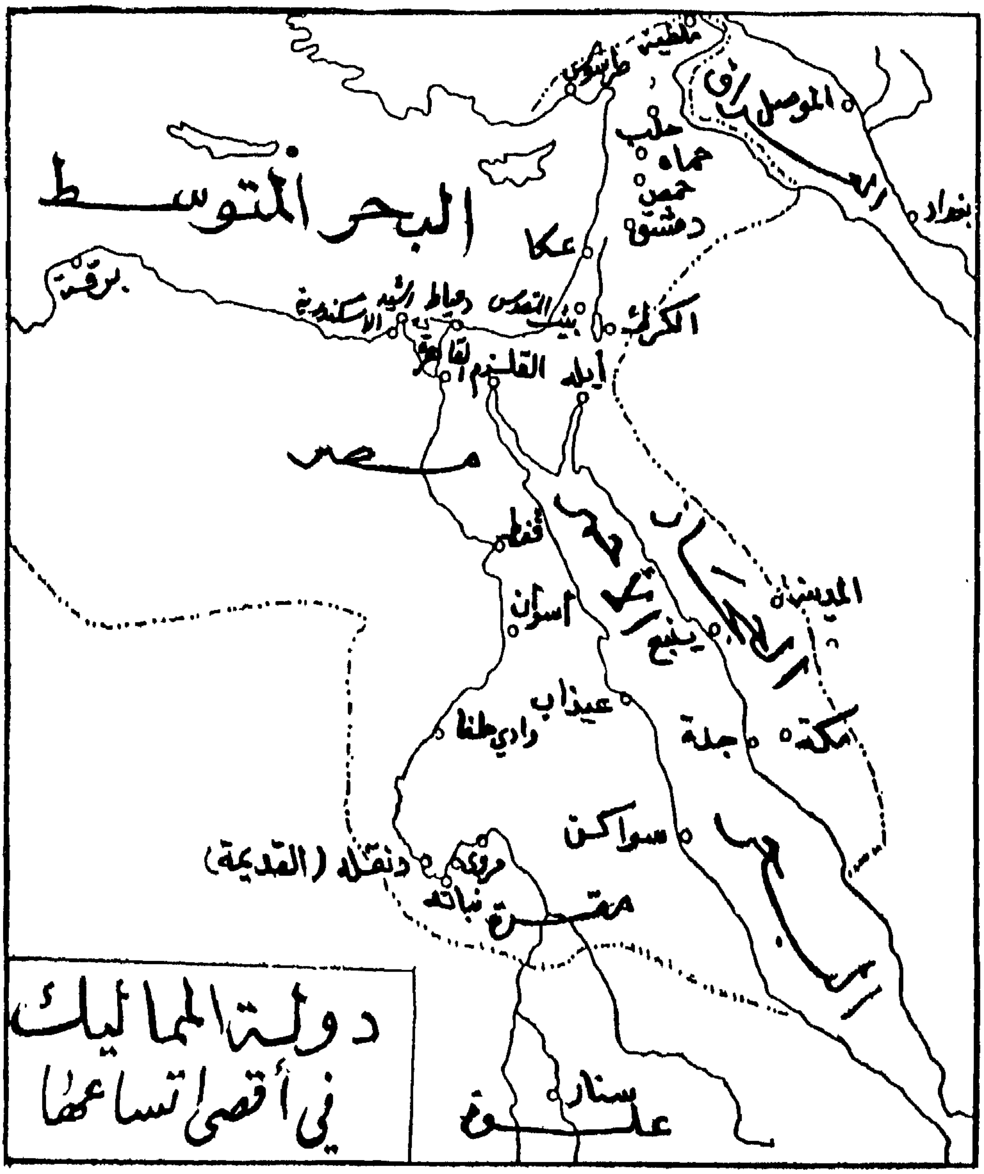
(٢) إبن أيبك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

نص مرسوم الأمير يلبغا الخاصكي
الصادر إلى الأمير سيف الدين منكلي بغا نائب دمشق
حول أخذ ربع أموال النصارى في أعقاب واقعة الإسكندرية
سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م ، وموقف ابن كثير من ذلك

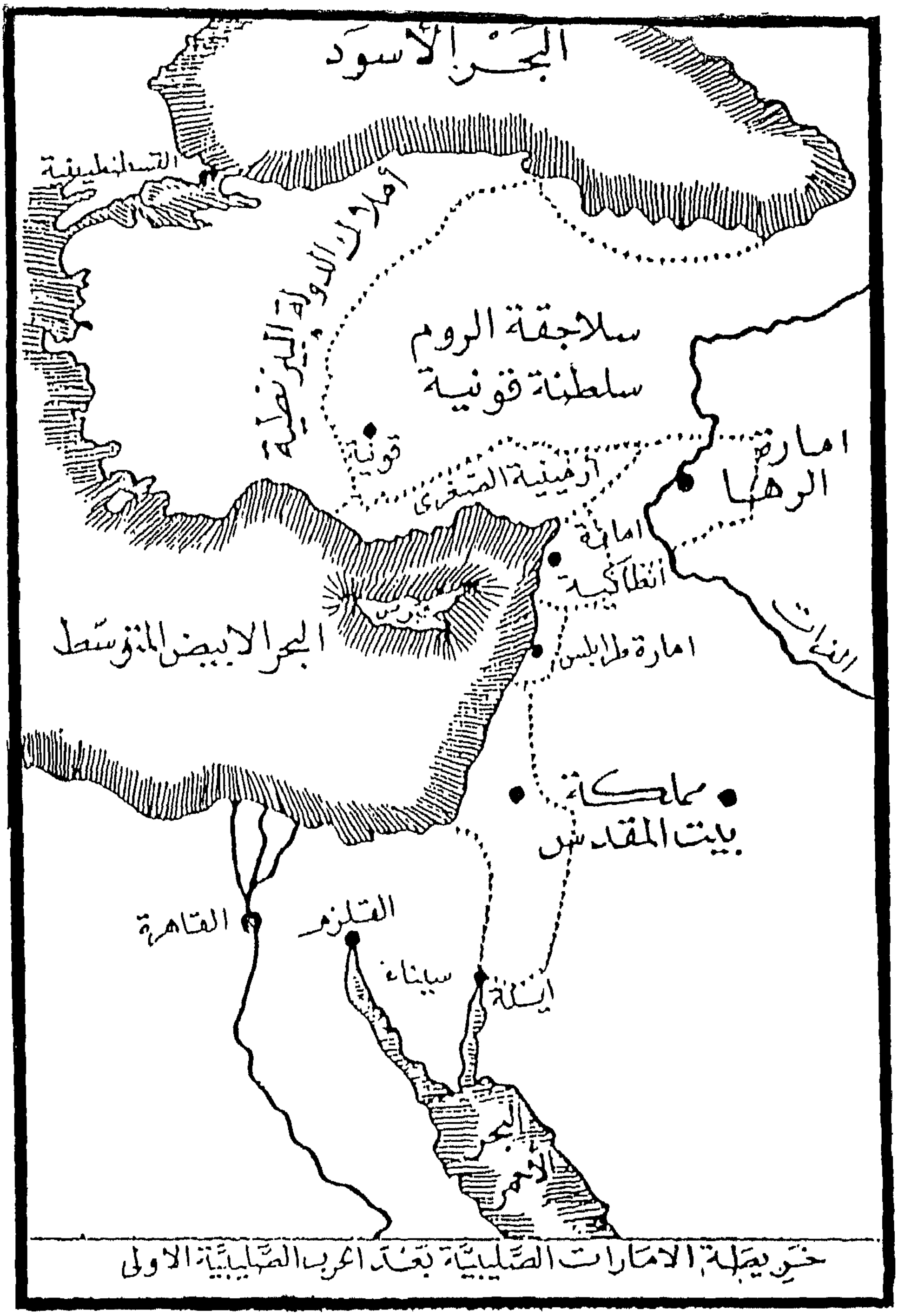
... وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خُرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعا، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنسا كثيرا، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعا، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة الصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد -الفرد - فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير، فقال: كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ولا يمكنني أن أخالفه؟ وذكرت له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب، وأنه يجوز ذلك وإن لم يفعل ما يتوعدهم به، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام: «إئتوني بالسكين أشقه نصفين»، كما هو الحديث مبسوط في الصحيحين، فجعل يعجبه هذا جداً، وذكر أن هذا كان في قلبه وأنني كاشفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية، وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتجيء حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد رحمه الله، ثم اجتمعت به في دار السعادة في أوائل شهر ربيع الأول فبشر في أنه قد رسم بعمل الشواني والمراكب لغزو الفرنج ولله الحمد والمنة ثم في صبيحة يوم الأحد طلب النصارى الذين إجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه وهم قريب من أربعمائة فحلفهم كم أموالهم وألزمهم بأداء الربع من أموالهم، فإنالله وإنا إليه راجعون، وقد امروا إلى الولاة بإحضار من في معاملتهم، ووالي البر قد خرج إلى القرايا بسبب ذلك، وجردت أمراء النواحي

لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك[1].

(١) إبن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٣١٤ - ٣١٥

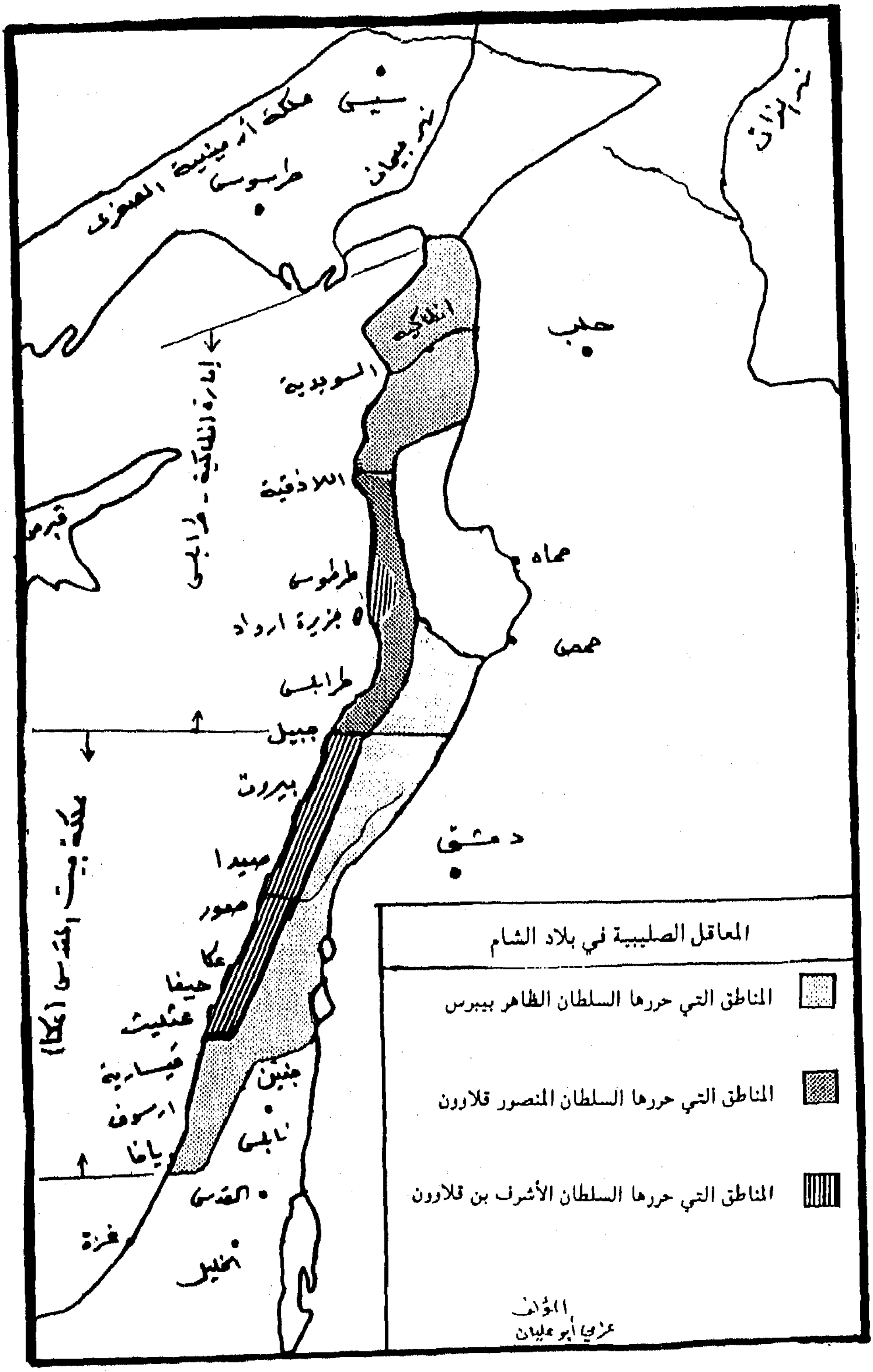


عن كتاب مصر وبلاد الشام في عصر الأيوبيين والمماليك - لمؤلفه سعيد عاشور

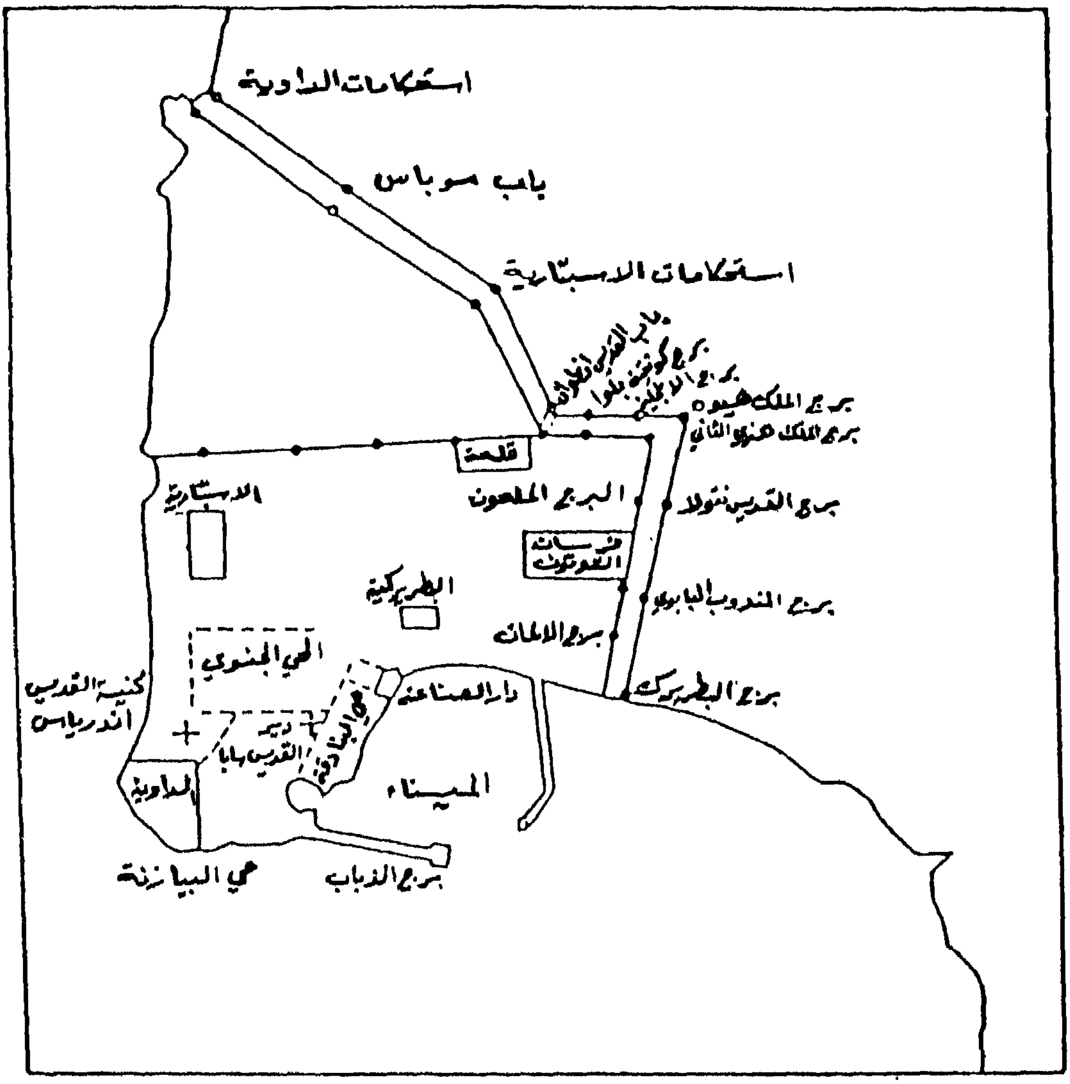


خريطة الامارات الصليبية بعد الحرب الصليبية الاولى

عن كتاب تاريخ الحروب الصليبية في المشرق - لمؤلفه سعيد برجاوي

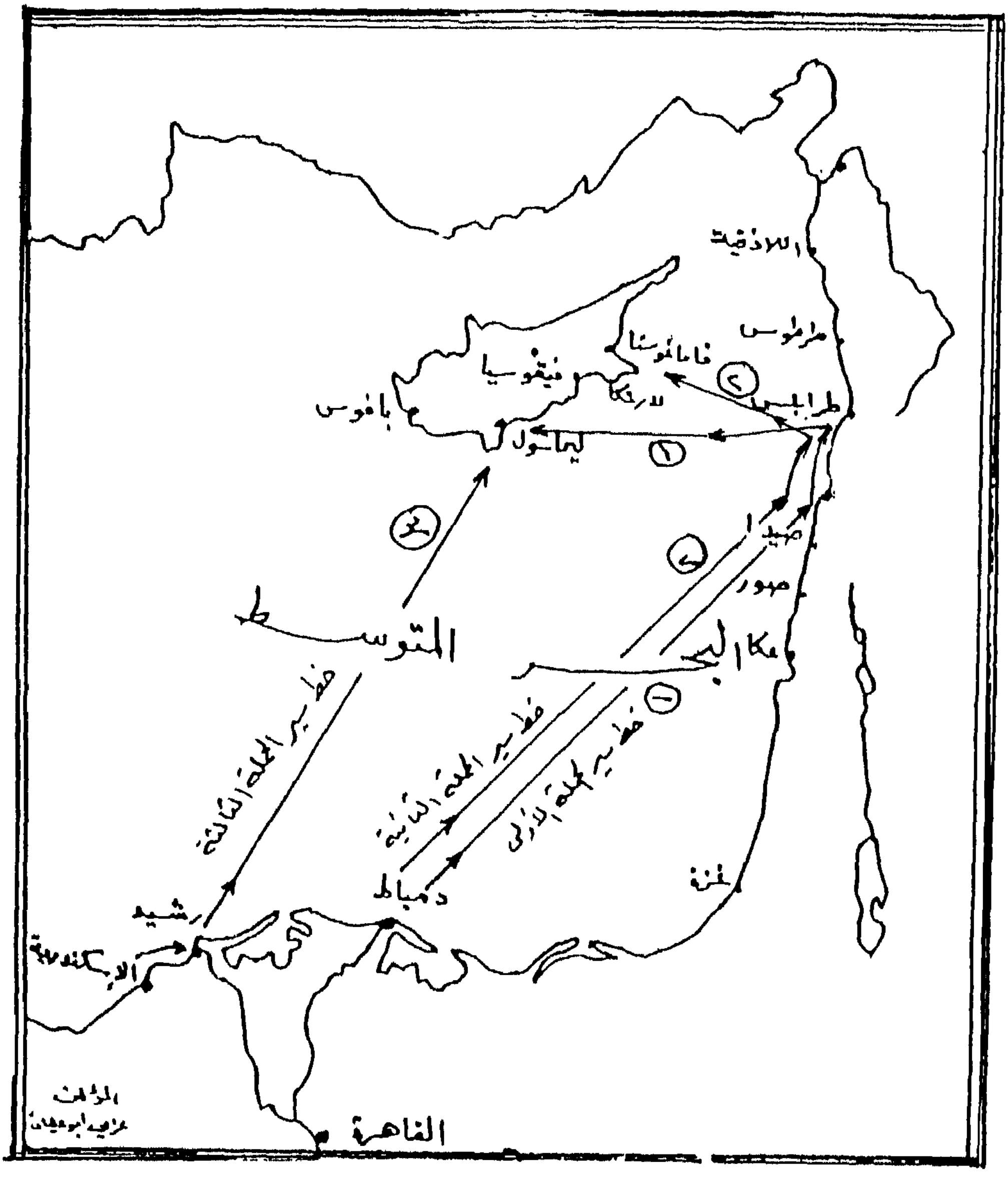


المعاقل الصليبية في بلاد الشام
المناطق التي حررها السلطان الظاهر بيبرس
المناطق التي حررها السلطان المنصور قلاوون
المناطق التي حررها السلطان الأشرف بن قلاوون
المؤلف
عزمي أبو عليان
سيس
مملكة أرمينية الصغرى
طرسوس
نهر جيحان
نهر الفرات
حلب
أنطاكية
السويدية
اللاذقية
قبرص
إمارة أنطاكية - طرابلس
حماه
طرطوس
جزيرة أرواد
حمص
طرابلس
جبيل
بيروت
دمشق
صيدا
صور
عكا
حيفا
عثليث
قيسارية
أرسوف
يافا
مملكة بيت المقدس (عكا)
جنين
نابلس
القدس
غزة
الخليل

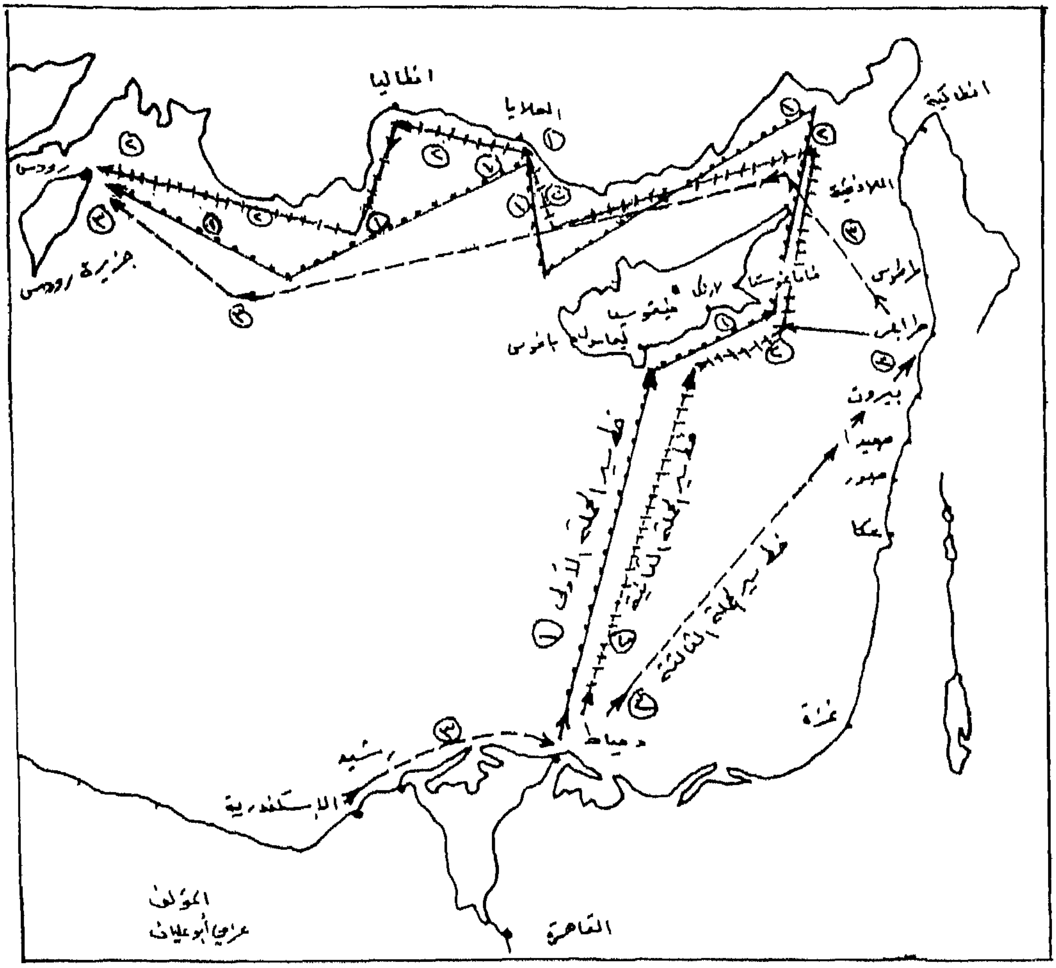


عكا سنة ١٢٩١م

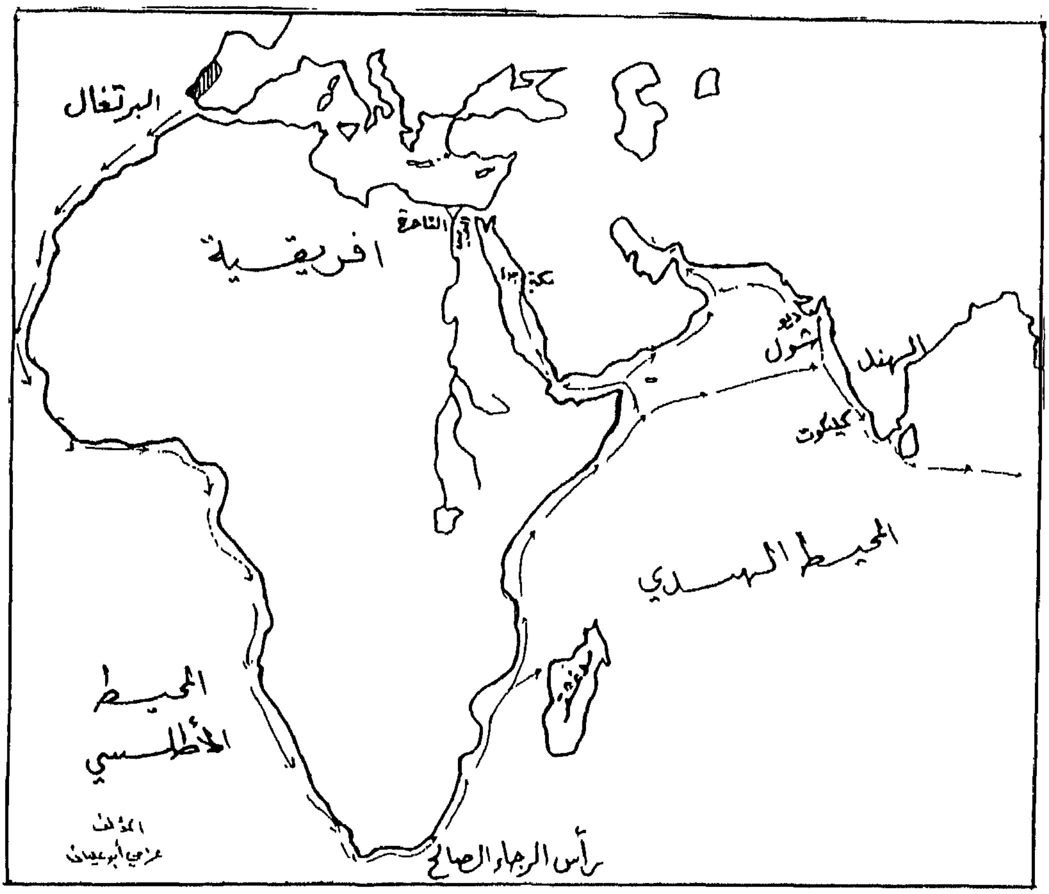
عن كتاب تاريخ الحروب الصليبية - لمؤلفه رنسيمان



حملات المماليك على جزيرة قبرص



حملات المماليك على جزيرة رودس



اعتداءات البرتغال على سواحل شبه الجزيرة العربية، بعد اكتشافهم رأس الرجاء الصالح ووصولهم إلى الهند

المصادر والمراجع

اولا: المصادر:

١- ابن الأثير: عز الدين محمد بن عبدالكريم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ - بيروت (دار الكتاب العربي) ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

٢- ابن أياس، أبو البركات محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق محمد مصطفى، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف) ١٩٦٠ - ١٩٧٤م.

٣- ابن أيبك الدواداري، أبو بكر عبدالله (ت٧٣٤هـ/١٣٣٤م)، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية - تحقيق اولرخ هارمان - القاهرة (مطبعة عيسى البابي وشركاه) ١٣٩١هـ/١٩٧١، جـ٨.

٤- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر - تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة، (مطبعة لجنة التأليف) ١٩٦٠، جـ٩.

٥- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (ت٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، انباء الغمر بابناء العمر - تحقيق عبدالمعيد خان، بيروت (دار الكتب العلمية)ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٦- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر: بيروت (مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني)، ط٣، ١٩٦٧م.

٧- ابن خلكان، أبو العباس أحمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق احسان عباس، بيروت (دار الثقافة)، ١٩٦٨ - ١٩٧٢م.

٨- ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) عيون التواريخ - تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، بغداد (مكتبة الرشيد) ١٩٨٠م، جـ٢٠.

٩- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م)
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - تحقيق بولس روايس، باريس (المطبعة الجمهورية) ١٩٨٤م.

١٠- ابن شداد الحلبي، عز الدين محمد بن علي (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - الجزء المنشور بعنوان تاريخ لبنان والأردن وفلسطين - تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢م.

١١- تاريخ الملك الظاهر - تحقيق أحمد حطيط. فرانز شتاينر بفيسبادن ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٢- ابن الصيرفي، على بن داود الخطيب الجوهرى (ت. ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)
نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان - تحقيق حسن حبشي، القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٩٧٠ - ١٩٧٣م.

١٣- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت٩٥٤هـ/١٥٤٦)،
مفاكهة الخلان في حوادث الزمان - تحقيق محمد مصطفى، القاهرة (المؤسسة المصرية) ١٩٦٢ - ١٩٦٤).

١٤- ابن عبدالظاهر، محي الدين عبدالله بن رشيد الدين (ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور - تحقيق مراد كامل، راجعه محمد على النجار، القاهرة (الشركة العربية للطباعة والنشر)، ١٩٦١م.

١٥- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

١٦- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م)
تاريخ الدول والملوك - نشر بعنوان، تاريخ ابن الفرات - تحقيق قسطنطين زريق - بيروت (المطبعة الأميركانية)، ١٩٣٦ - ١٩٤٢م.

١٧- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أحمد (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م)،
تاريخ ابن قاضي شهبة - تحقيق عدنان درويش، دمشق (المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية) ١٩٧٧م، جـ٣.

١٨- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة (ت٥٥٠هـ/ ١١٥٥م)،

ذيل تاريخ دمشق - تحقيق هـ، امدروز، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م.
١٩- ابن كثير، أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢) البداية والنهاية في التاريخ - بيروت (دار الفكر).
٢٠- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - جـ١-٣ تحقيق حسنين محمد ربيع وراجعه سعيد عاشور، القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ - ١٩٧٧م.
٢١- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى الشافعي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار البشر - تحقيق أحمد رفعت البدراوى، بيروت (دار المعرفة) ١٩٧٠م.
٢٢- ابن يحيى، صالح (ت٨٤٠هـ/ ١٤٣٦) تاريخ بيروت - تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، (دار المشرق).
٢٣- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) الذيل على الروضتين، بيروت (دار الجيل) ط١، ١٩٤٧ - ١٩٧٤م.
٢٤- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر، بيروت (دار المعرفة).
٢٥- أبو المحاسن، يوسف بن تغري بردى (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة (المؤسسة المصرية).
٢٦- الدواداري المنصورى، بيبرس (ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط، الجامعة الأردنية، ميكروفيلم رقم ٢٠.
٢٧- الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء - تحقيق بشار عواد معروف ويحيى هلال السرحان، بيروت (مؤسسة الرسالة)، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٢٨- سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلي (ت٦٥٤هـ/ ١٣٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - حيدر - اباد الدكن (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية)، ط١، ١٩٥٢، جـ٨.

٢٩- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)،
التبر المسبوك في ذيل السلوك، نشره أحمد زكي، القاهرة (المطبعة الأميرية) ١٨٩٦م.
٣٠- السيوطي، الحافظ جلال الدين (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)،
تاريخ الخلفاء - بيروت (دار الفكر) ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٣١- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٣٢٧هـ.
٣٢- شافع بن علي، ناصر الدين (ت٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م)،
حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية - تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
٣٣- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)،
الوافي بالوفيات، جـ٩ تحقيق يوسف خان، جـ١٠ تحقيق جاكلين سويلة وعلي عمارة، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٣٤- العيني، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد (ت٨٥٥هـ/١٤٥٢م)
عقد الجمان، جـ١ حققه محمد محمد أمين، القاهرة، (الهيئة المصرية)، ١٤٠٧هـ.
٣٥- القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت١٠١٩هـ/١٦١٠م)،
أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، بيروت (عالم الكتب).
٣٦- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبدالله (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الأنشا، القاهرة (المؤسسة المصرية).
٣٧- المعبري، زين الدين بن عبد العزيز (ت ق ١٠هـ/ ١٦م)،
تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين - تحقيق أمين توفيق الطيبي، طرابلس - ليبيا - (كلية الدعوة الأسلامية)، ١٩٨٧م.
٣٨- مفضل بن أبي الفضائل (ت٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م).
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد ابن العميد، باريس، ١٩٢٠م.
٣٩- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)،
السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١-٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة،

(لجنة التأليف) ١٩٥٦ - ١٩٥٨،جـ٣-٤ تحقيق سعيد عاشور، القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٩٧٠ - ١٩٧٢م.

٤٠- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - لبنان (مطبعة الساحل الجنوبي).

٤١- النويري السكندري، محمد بن قاسم بن محمد (ت بعد سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م) الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية بدأ تحقيقه اتين كومب واتم تحقيقه عزيز سوريال عطية، حيدر اباد الدكن (دائرة المعارف العثمانية)، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).

٤٢- اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبر اليقضان، حيدر اباد الدكن (مطبعة دار المعارف النظامية) ط١، ١٣٣٩هـ.

٤٣- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد الدكن (مطبعة دائرة المعارف العثمانية) ١٩٥٤م.

ثانياً: المراجع العربية :

٤٤- برجاوي (سعيد أحمد) الحروب الصليبية في المشرق، بيروت، (دار الافاق الجديدة) ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٤٥- توفيق (عمر) الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة)، ١٩٨٦م.

٤٦- حسن (إبراهيم) البحرية في عصر سلاطين المماليك، مصر (دار المعارف) ١٩٨٣م.

٤٧- دارج (احمد) المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القاهرة، (دار الفكر العربي) ١٩٦١م.

٤٨- رنسيمان (ستيفان) تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني (دار الثقافة)، ١٩٦٧ - ١٩٦٩م.

٤٩- زيادة (محمد مصطفى) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، مجلة الجيش المصري، يناير (كانون ثاني) ١٩٤٦م.

٥٠- زيادة (نقولا) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت ١٩٤٣م.

٥١- سالم (عبد العزيز) دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي - الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة) ١٩٨٦م.

٥٢- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي - الإسكندرية، ١٩٦٧م.

٥٣- سرهنك (اسماعيل) حقائق الأخبار عن دول البحار، القاهرة (المطبعة الأميرية) ١٣١٢هـ/ ١٣٣٤هـ.

٥٤- سرور (محمد جمال الدين) دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، (دار الفكر العربي) ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

٥٥- طرخان (إبراهيم علي) مصر في عصر المماليك الجركسة، القاهرة ١٩٥٩م.

٥٦- عاشور (سعيد عبدالفتاح) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، (دار النهضة العربية) ١٩٧٢م.

٥٧- الحركة الصليبية، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ط١، ١٩٦٣م.

٥٨- العصر المماليكي في مصر والشام، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٦٥م.

٥٩- قبرس والحروب الصليبية، القاهرة ١٩٥٧م.

٦٠- مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

٦١- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٧٠م.

٦٢- العبادى (أحمد مختار) بالأشتراك مع عبدالعزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٨١م.

٦٣- العبادى، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، ١٩٦٩م.

٦٤- عبد السيد (حكيم أمين) قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة (دار الكاتب العربي) ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

٦٥- عمر (عبد العزيز عمر) أوروبا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، بيروت (مطبعة كريدية اخوان) ١٩٧٦م.

٦٦- العمروسي (محمد) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب - بيروت (دار

الغرب الإسلامي) ط٢، ١٩٨٢م.

٦٧- ماهر (سعاد) البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة (دار الكاتب العربي).

٦٨- موير (وليم) تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة (مطبعة المعارف) ١٩٢٤م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية :

69- Atiya. A.S
The Crusade in The Later Middle ages, London. 1938

70- Holt .P. M
Qalawan,s 'Treaty with Acre in 1283' The English History Review Vol, Xcl, October, 1976. No cccixi, PP 802-812.

71- Khowiter, Abdul-Aziz
Baibars the First
London, The Green Mountain Press, 1978

72- King
The Knights hospitallers in Holy Land.
London 1931

73- Lane-Poole, Stanley
A History of Egypt in the Middle ages
London, 1924

فهرس المحتويات